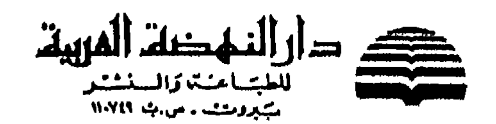
معالم حضارات الشرق الأدنى القديم

الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور





الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور
استاذ بجامعة بيروت العربية



إهـــداء

إختلفنا نشأة ولغة ودينا . . . ولكنني أتمثل فيها قول الرسول عن الزوجة الصالحة : « إذا نظرت إليها أسرتك وإن غبت عنها حفظتك في مالك وعرضك وإن أمرتها أطاعتك » . . . وبعد أن أسبغ الله عليها نعمة الإسلام زادت مكانة عندي .

فإليها أهدي هذا

حقوق الطبع محفوظة
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب ١١٠٧٤٩

* الإدارة: بيروت، شارع مدحت باشا، بناية كريدية، تلفون: ٣٠٣٨١٦/ ٣٠٩٨٣٠/ ٣١٢٢١٣
برقياً: دانهضة، ص. ب ٧٤٩-١١
تلكس: NAHDA 40290 LE
29354 LE

* المكتبة: شارع البستاني، بناية اسكندراني رقم ٣، غربي الجامعة العربية، تلفون: ٣١٦٢٠٢

* المستودع: بئر حسن، تلفون: ٨٣٣١٨٠

مقـــدمة

كان الاعتقاد السائد لدى الكثيرين إلى زمن قريب أن دراســـة الحضارات القديمة . لا يتناولها بالبحث إلا بعض الخاصة من المرفهين أو المترفين الذين يشبعون هوايتهم فى التعمق فى الدراسة والبحـــث عن المجهول ـ ولكن نظرا لأن كل ماتزخر به الحياة الراهنة من منتجات وخبرات وعادات وتقاليد ومظاهر مختلفة أخرى إنما ترجع فى أصولها إلى مختلف الجهود البشرية ، وقد وضعت أسسها منذ عصور سحيقة وتطورت بمرور الزمن حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن فإن هذه الدراسة لم تعد موضوعا قاصراً على فئة من الناس بل ولا يمكن أن تفضل دراسة حضارة أمة على حضارة أمة أخرى غيرها ، ولذا أخذ الاهتمام بها يتزايد حتى أصبحت دراستها منتشرة فى جميع أنحاء العالم المتمدين وكثيرا ما تتضافر جهود الباحثين من مختلف الدول والشعوب فى دراسة الحضارات القديمة وتشجيعها على اعتبار أنها التراث الإنسانى الذى استمدت منه مختلف الأمم أصول حضاراتهـــا الحالية ، ومن ثم يعملون على توفير أستباب هـــذه الدراسة بموالاة الكشوف الأثرية وترميم الآثار المختلفة ويعكفون على دراسة اللغات القديمة حتى يتمكنوا من وضع صورة حية أو قريبة من الواقع لهذه الحضارات ومظاهرها المختلفة ، وهكذا تشعبت فروع البحث وتعددت نواحيه حتى أصبح

من المستحيل أن يلم باحث أو دارس بحضارات مختلفة بل ولا بمختلف نواحى حضارة واحدة وعلى ذلك فإن وضع مؤلف واحد لعدد من الحضارات لايمكن أن يكون جامعا .انما يرضى كل الرغبات ويسد كل الفجوات .

ومع أنى ترددت كثيرا فى وضع هذا المؤلف إلا أنى وجدت أن الضرورة تقضى بأن أيسر على طلبتى بعض الشىء وأجنبهم مشقة البحث فى العديد من المراجع لمجرد سرعة الاطلاع على المعالم الرئيسية لحضارات الإقليم الذى نعيش فيه « الشرق الأدنى » ، على أنه ينبغى أن لايفهم من ذلك أن فى هذا المؤلف غنى عن الإطلاع على مختلف المراجع المتخصصة فى دراسة هذه الحضارات ونواحيها المتعددة .

وقد يبدو للقارىء أننى فى تناول هذه الحضارات لم أراع ترتيبها حسب أهميتها أو أسبقيتها فى الزمن ولكننى أود أن ألفت النظر إلى أننى فضلت اتباع نفس الترتيب الذى سبق أن اتبعته فى كتابى السابق « معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم » استكمالا للفائدة المرجوة إذ أننى جردت ذلك الكتاب من كل ما يشير إلى المظاهر الحضارية إلا فيما يختص بالعصور السابقة للكتابة على أساس أنها الوسيلة الوحيدة لتتبع تاريخ تلك العصور ، وهكذا يمكن اعتبار هذا المؤلف مع سابقه متكاملين

بالنسبة لمن يود الاطلاع على المعالم الهامة لتاريخ وحضارات الشرق الأدنى القديم .

ولا يسعنى فى هذا المجال إلا أن أقدم واجب الشكر إلى كل من عاوننى على إخراج هذا الكتاب الذى أرجو أن يحقق الغرض المطلوب .

والله ولى التوفيق ؟

محمد أبو المحاسن عصفور

مقدمة الطبعة الثانية

ما كنت أظن أنني سأعيد طبع هذا الكتاب بعد مرور نحوا من عشرة أعوام على ظهور طبعته الأولى اذ اعتقدت أن موضوعه سيكتب فيه خلال تلك الفترة غير أن ما ظهر من مؤلفات لا يتناول الا حضارة قطر أو قطرين فحسب من أقطار الشرق الأدنى وهي في جملتها تسهب في ذلك وتتعرض للكثير من التفصيلات التي تجعل من العسير الالمام بالمعالم الرئيسية لحضارات اقليم الشرق الأدنى أو تكوين فكرة شاملة عنها .

ومن خلال تجربتي في التدريس ، وجدت أن كتابي هذا يناسب طلبة أقسام التاريخ في الجامعات العربية كما" وكيفا ــ كما أنني لا أشك في أن الذين تبهرهم رؤية آثار أسلافنا يودون لو أن هذه الآثار تفصح لهم عن أسلوب الحياة الذي اتبعه أولئك الذين خلفوها وأن توضح لهم مظاهر حياتهم، فعسى أن يكون فيهذا الكتاب ما يفي ــ قدر الامكان ــ بهذا الغرض وتوخيت فيه البساطة بحيث يستطيع القارىء العادي أن يستوعبه وأن يكون فكرة عامة لا بأس بها عن أصحاب تلك الحضارات التي كانت أقدم ما ظهر من حضارات في العالم والله ولي التوفيق .

المؤلف

محتوى الكتاب

الموضـوع صفحة

قائمة بالأشكال

الشكل	الصفحة

الشكل	الصحيفة

تمهيـد

الحضارة :

الحضارة فى اللغة خلاف البداوة لأنها تدل على سكنى الحضر أو إجتماع الناس للتعاون على أسباب المعيشة ودفع المضرات ، فهى تمثل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى وتقابل كلمة Civilisation .

وبما أن كل مجتمع (مهما كان بدائيا) يصيب شيئا من التطور ببذل الجهد والكفاح الدائم فإن هذا اللفظ خرج عن مدلوله الأصلى إلى مدلول عام شامل فأصبحت كلمة الحضارة تطلق على كل إنتاج مادى أو أدبى للانسان سواء كان انتاجا راقيا أو بدائيا وعلى ذلك يمكن القول بأنه لايوجد مجتمع دون حضارة ، وكثيرا ما يختلط هذا اللفظ فى معناه بكلمة الثقافة ولكن إذا ما تأملنا الأصل اللغوى لهذه الكلمة الأخيرة لوجدنا أنها تدل على التطور العقلى عن طريق التدريب والتعليم ، وهى تقابل لفظ Culture - كذلك يختلط اللفظان « الحضارة والثقافة » فى معناهما بكلمة المدنية وإن كان اختلاط هذه الأخيرة بكلمة الحضارة أعم من اختلاطها بالثقافة ، إلا أن المدنية أصلا تدل على سكنى المدن وقد تطور معناها حتى أصبح يدل على أقصى ما يصل إليه مجتمع ما فى ميدان حضارته أثناء عصر من العصور - وهكذا نجد أن كتب اللغة تميل الى ترتيب مراحل التطور الاجتماعى إلى البداوة ثم الحضارة وأخيرا المدنية ، على اعتبار أن البداوة تقوم على حياة الحيوان من صيد ورعى فمن دأبها التنقل وعدم الاستقرار

والحضارة تدل على سكنى الحضر والانتظام فى مجتمعات تتعاون فى معيشتها أما المدنية فتدل على سكنى المدن والانتظام فى مجتمعات أكثر تعقيدا ورقيا أو كما تقول بعض كتب اللغة أنها تمثل الانغماس فى حياة الدعة والترف .

فالحضارة على أى حال تمثل كل مظهر من مظاهر الانتاج البشرى أو غالبا ما يحددها سلوك الإنسان وطرق معيشته وتفاعله مع البيئة ، ولذا كان من الطبيعى أن تختلف كل حضارة فى مظاهرها عن الحضارات الأخرى ، فلكل حضارة من الحضارات قديمها وحديثها مظاهر مميزة وعلى هذا يميز الناس بين الحضارة المصرية والحضارة اليونانية والحضارة الاسلامية وهكذا .

ومن العسير إبراز مميزات كل من تلك الحضارات وخاصة القديمة منها لأننا ـ من جهة ـ مازلنا نشعر بقصور الدراسات المتعلقة ببعض مظاهرها ومما يزيد المشكلة تعقيدا أن بعض المدونات لم يمكن تفسيرها تماما حتى الآن ؛ كما أننا ـ من جهة أخرى ـ نستشهد على مظاهر هذه الحضارات بمخلفات أثرية نحن على يقين من أنها لم تكن منتشرة بين عامة الناس وإنما هى من مخلفات ثراة القوم وخاصتهم فضلا عن كونها تمثل أرقى ما كانوا يمتلكونه وأفضل ماوصلت إليه الفنون فى أزمانهم فهى بالأحرى تمثل مخلفات المدنية لا مخلفات الحضارة ، ومع كل ينبغى أن لا نقلل من شأنها عند مقارنة الحضارات المختلفة بعضها بالبعض إذ لاسبيل إلى التعرف إلى مظاهر هذه الحضارات إلا عن طريقها .

ومع أن الكثيرين قد يتساءلون عن الأسباب التى تدعو الانسان إلى الاحتفاظ بكثير من منتجاته الحضارية وهو ما أتاح لنا فرص العثور على

ما يمثل هذه المنتجات فى الحضارات القديمة فإن من الممكن أن يعزى ذلك إلى عاملين أساسيين هما ديانة أهل هذه الحضارات وفنونها .

والديانة شأنها شأن الحضارة خرجت فى معناها عن مدلولها الأصلى لأنها فى اللغـــة كالدين لها معانى مختلفه منها الجزاء والمكافأة والطاعة والانقياد والعادة والعبادة ، وهى كذلك إسم لجميع مايعبد به الله والملة ـ إلا أن المعنى المألوف، هو أنها « الاعتراف بقوة أو قوى تفوق البشر ، تسيطر عليهم ويجب عليهم إطاعتها ويؤثر اعترافهم بها فى سلوكهم وفى عقليتهم » ـ وقد تختلط فى معناها بالعقيدة ولكن هذه الأخيرة تدل فى اللغة على عقد الرأى أو عقد القلب والضمير على أمر معين كما تدل على الاقتناء والجمع فإذا قيل اعتقدت كذا أى عقدت عليه القلب والضمير ، واعتقدت ضيعة ومالا أى اقتنيتها ـ إلا أن المعنى الشائع للعقيدة هو أنها « إيمان بتفوق قوة من القوى » ولكن ليس من الضرورى أن تسيطر هذه القوة على البشر ، وقد تطور هذا فأصبحت العقيدة اسما لما يدين به الانسان ـ ومن الواضح أن الانسان فى الحضارات القديمة كانت له ديانات وعقائد عامة ولكننا لانعرف شيئا عن أصولها ونشأتها وطقوسها ومذاهبها إلا من عصور متأخرة وخاصة بعد أن عرفت الكتابة ، ومع هذا فان مانعرفه عنها لايعد كافيا لارتباطها بعواطف الانسان واحساساته الداخلية وهذه لايمكن ادراكها لأنها لم تدون فى أغلب الاحيان ـ ورغم هذا يمكننا أن نتصور بأنها كانت ساذجة بسيطة فى أول الأمر ثم تطورت ودخلتها زيادات وحواشى أخرجتها عن شكلها الأصلى ، وما دام الأمر كذلك فإن الانسان ـ سواء فى ديانته أو عقائده ـ يحاول أن يسترضى هذه القوى بكل ما لديه من وسائل مادية وغير مادية فشيد لها المعابد

وقدم القرابين وقام بمختلف الطقوس من أجلها . وهذه بالطبع يبدو أثر البيئة فيها واضحا هى الأخرى .

ولما كانت الفنون هى كل مايخرجه ذوق الانسان ليحقق فائدة عملية فى حياته وليرضي به غريزة من غرائزه ، وبما أن الانسان تميز بالذوق السليم والشعور بالجمال فمن الممكن القول بأن الفن هو الانتاج الذي يرضي به الانسان شعوره بالجمال، لذا خضعت فنونه في كل من الحضارات القديمة إلى أصول وقواعد تميزت بها ـ وإن كانت قد وقعت فى بعض الأخطاء إلا أنها لم تحد عنها محافظة على تقاليدها وقواعدها ـ وبالتالي فإن كلا من هذه الفنون قد تأثرت هى الأخرى كذلك بالبيئة التى نشأت فيها وخضعت لمؤثراتها المختلفة .

وعلى هذا يمكن القول بأن أهم المخلفات الأثرية التى تتخذ منها شواهد وأدلة على مظاهر الحضارات المختلفة ترتبط بفنون أهل هذه الحضارات ودياناتهم ارتباطا وثيقا إلا أن كل المظاهر الحضارية فى أى مجتمع من المجتمعات قوامها تفاعل الإنسان فى هذا المجتمع مع بيئته التى عاش فيها ولذا تنوعت هذه المظاهر وتنوعت بين قطر وآخر وبين أمة وأخرى ولايحدث بينها من التشابه إلا بقدر تشابه بيئاتها وإن كانت بعض المظاهر تجد سبيلها من مكان إلى آخر عن طريق النقل والمحاكاة وسنتناول فيما يلى أهم المظاهر الحضارية فى مختلف أقطار الشرق الأدنى .

أولا : حضارة مصر

التعرف على الحضارة المصرية :

لعل من أشق الأمور دراسة الحضارة المصرية دراسة شاملة وافية لأنها وإن تناولها الباحثون بالدراسة فى عصور مختلفة إلا أن الكشف عن أسرار اللغة المصرية لم يتم إلا منذ فترة وجيزة نسبيا وعلى ذلك ظلت حضارة مصر غامضة بالنسبة لهؤلاء الباحثين رغم أن آثارها كانت تحيط بهم وفى متناول أيديهم - فاليونان مثلا صادفتهم عقبات كثيرة فى تفهم تلك الحضارة ، بل أنهم حينما جاءوا إلى مصر دهشوا أشد دهشة لما شاهدوه من حضارة فى وادى النيل حيث كانوا يعتقدون بأنهم أرقى الأمم حضارة وثقافة - وقد بدت لهم مظاهر الحضارة المصرية غاية فى الغرابة والغموض وكانوا بين مقدر لها وساخر منها ولكن الأغلب أنهم كانوا يكنون لها الاحترام العميق مع أنهم عجزوا عن تفسير كثير مما شاهدوه من الاختلافات بينها وبين حضارتهم ، وقد استهوتهم كذلك بعض قواعد السلوك عند المصريين ولذا نجدهم يقارنون مظاهر هذه الحضارة بمظاهر حضارتهم فيذكر هيرودوت مثلا بأن المصرى كان يكتب من اليمين إلى اليسار فى حين تكتب شعوب العالم الأخرى من اليسار إلى اليمين وفى مصر تخرج المرأة إلى الأسواق وتقوم بالعمل فى الحقول بينما يظل الرجل فى البيت ليقوم بالغزل أو النسيج كما أن النساج المصرى كان يدفع لحمة النسيج من أعلى إلى أسفل وهذا كله عكس ما يحدث فى البلاد الأخرى .

ومع أن العالم القديم ظل ينظر إلى المصريين على أنهم شعب غريب

الأطوار إلا أنه كان يتطلع إلى مظاهر حضارتهم وينظر إليها نظرة التقديس والإجلال وكانت نقوشهم وطقوسهم الدينية التى كان يقوم بها الكهنة تمثل عالما مليئا بالأسرار والغموض وكثيراً ما طمع اليونانيون فى الوصول إلى دراسة تلك الأسرار ولهذا نجد أن بعضهم وخاصة فى عهد البطالمة يندمجون فى الأوساط الكهنوتية ويقومون بالطقوس الدينية ولكنهم لم يستطيعوا فهم كل تلك الألغاز التى أحاطت بهم ، ومع هذا ظلوا على احترامهم وتقديرهم لرجال العلم والكهنة والمعبودات المصرية حتى وحدوا بين بعضها وبين الآلهة اليونانية .

ومنذ العصر اليونانى استمر الغموض يحيط بالنقوش المصرية ولم يستطع أحد تفسيرها رغم المحاولات العديدة التى بذلت فى سبيل حل طلاسمها ولكن طريقة تلك الكتابة جعلت من الحتم الوصول إلى تفسيرها فمعظمها كتابة رمزية تصويرية وكانت دقة المصرى وعنايته الفائقة بتدوين أهم الحوادث خير مساعد للعلماء فى مهمتهم فقد صور الأشخاص والمناظر المختلفة وكتب فوقها ما يدل عليها وكانت أولى النتائج الهامة فى سبيل حل طلاسم اللغة المصرية هى ما وصل إليه العالم الانجليزى توماس ينج Tomas Young الذى قـرر بأن الكتابة المدونة فوق المناظر المختلفة هى شرح لتلك المناظر وأن أسماء الملوك الممثلين فى تلك المناظر توضع داخل أشكال بيضاوية أى « خراطيش » ، وأن هذه الكتابة ليست كلها رمزية تصويرية أى أن أشكالها (رموزها) لايدل كل منها على معنى وإنما بعض هذه الأشكال أو الرموز له قيمة صوتية فقط ولايدل على معنى قائم بذاته . وفى نفس الوقت أو بعده بقليل عثرت الحملة الفرنسية على حجر رشيد وتوصل شمبليون من مقارنة

الخراطيش المكتوبة به إلى نفس النتيجة التى وصل اليها « ينج » كما توصل إلى القيمة الصوتية لبعض الرموز وبدأ يضع معجما للحروف والعلامات الهيروغليفية .

وتتابعت جهود العلماء بعد ذلك فأمكن تفسير اللغة المصرية وفهم كل ما أمكن العثور عليه من آثار مكتوبة ـ ومع أن الآثار المصرية مليئة بآلاف النصوص والوثائق إلا أنها ليست كافية للتعرف على كل نواحى الحياة المصرية لان كل ما كتب على الآثار المختلفة لايخرج عن كونه شرح لبعض المناظر الدينية المتكررة مع الإشارة إلى الآلهة والقرابين المختلفة بالإضافة إلى أسماء الملوك وبعض الأحداث التاريخية الهامة التى حدثت فى عهدهم أو عهد أسلافهم . أى أن المحصول من هذا الانتاج الضخم كان محصولا ضئيلا للغاية لايتناسب إطلاقا مع وفرة الوثائق المكتوبة ، فالاعتماد إذن على هذه المدونات وحدها لايكفى لإعطاء فكرة كاملة عن الحضارة المصريه فى أشكالها المختلفة .

مقومات الحضارة المصرية :

وكانت العقيدة التى يدين بها المصرى خير ما أمدنا بفكرة واضحة عن الحضارة المصرية إذ أن المصرى اعتقد فى البعث وأنه سيحيا حياة أخرى أبدية ـ من جهة ـ ولأنه أحب حياته الدنيا وطمع فى أن يجعل من حياته الأخرى صورة مطابقة لها ـ من جهة أخرى ـ صور مناظر حياته على جدران مقبرته أملا فى أن تتحول هذه المناظر إلى حقيقة واقعة عند البعث، ومع أننا نعتقد بأن هذه المناظر قد صورت على شاكلة ما كان يقوم به فى حياته الدنيا ، إلا أننا مع هذا نلاحظ

بأنه حرص على أن يجعل من تلك الحياة حياة مثالية وتغالى فى إظهارها بمظهر الحياة الدائمة السعادة والرفاهية وقد وصل فى ذلك أحيانا إلى درجة السفه حيث حرص على أن يأخذ معه إلى العالم الآخر كل ما ظن أنه سيحتاج اليه من آلات وأدوات وحيوانات أليفة .

ومع أن كثيرا من حضارات العالم القديم قد درست عن طريق دراسة آثار المنازل ومخلفات مناطق السكن فى تلك الحضارات إلا أننا فى مصر نجد أن هذه المنازل قد اختفى معظمها ولم يبق منها إلا النادر فقط حيث كان المصرى يعتقد بأن حياته فى الدنيا حياة زائلة وأن الحياة الآخرة هى الحياة الأبدية فكان يقيم مساكنه من مواد خفيفة سريعة البلى واستعمل لذلك اللبن والأخشاب ولم يستعمل الحجر إلا نادراً وعلى الأخص حول الأبواب والنوافذ فقط ولم يبق من المدن المصرية التى كانت آهلة بالسكان إلا أمثلة شاذة مثل كاهون وتل العمارنة والسبب فى بقائها هو أنها قد بنيتا لغرض خاص ثم أهملتا بعد بنائها والإقامة فيها قليلا وهجرها السكان بعد ذلك ويشبه ذلك أيضا بعض القرى التى أقيمت من أجل عمال الجبانات مثل مساكن عمال جبانتى الجيزة وسقارة ولذا كان من الصعب استنتاج صورة واضحة للمساكن المصرية فى عصورها المختلفة ولكن أمكن التوصل إلى ذلك عن طريق البقايا المتخلفة من تلك المدن ومن مساكن العمال ومن بعض النماذج التى وضعت فى المقابر لغرض من الأغراض السحريه أو لمجرد اللهو والتسلية . وكذلك من النقوش التى تمثل تلك المنازل .

أما الفن المصرى فهو جدير بالإعجاب وقد وصل إلى درجة عالية من

الرقى فى كل نواحيه المختلفة من عمارة ونقش ونحت وأدب وموسيقى وقد بنيت هذه على أصول مستقلة فاقت فى معظمها كل فنون الشعوب الأخرى ومما يميز الحضارة المصرية فى هذا السبيل أننا نجد آثارها ممثلة فى عصورها المختلفة، أى أن مظاهر تلك الحضارة ممثلة بصورة مستمرة من عصور ماقبل التاريخ فى سلسلة متتابعة لانكاد نجد فيها فجوة، فهى تمتاز عن سائر الأقطار الأخرى فى هذه الناحية - وقد مكنتنا دراسة آثارها من التعرف على المصرى فى آلاف السنين ومنها يتضح أن اللغة المصرية لم تتغير إلا مرة واحدة وتغيرت الديانة مرتين كما تغيرت الطبقة الحاكمة عدة مرات أما المصرى نفسه فقد ظل دون تغيير يذكر لأن ظروف الحياة الطبيعية ظلت كما هى ثابتة لاتتغير ولم يحدث مثل ذلك للشعوب الأخرى . ولهذا الأمر أهميته البالغة لأنه يرينا كيف تطورت الآراء والأفكار خلال الخمسين قرنا التى مضت وكيف تطورت العادات وإلى أى مدى أثرت الحضارة المصرية وتأثرت بالحضارات الأخرى وليس من المبالغة فى شىء أن نذكر بأن الحضارة المصرية كان لهـــا أثر كبير فى الحضارتين اليونانية والرومانية اللتين نقل عنهما العرب وهؤلاء بدورهم كان لهم أثرهم فى الحضارات الأوربية المعاصرة بل ويمكن أن نتتبع أصل بعض الألفاظ فى اللغة الانجليزية وفى اللغات الأوربية الأخرى ونرجعها إلى أصول مصرية قديمة .

وما دامت الحضارة تنتج عن النشاط الإنسانى وأن هذا النشاط يتأثر بالبيئة أى أنها تفاعل بين الانسان وبيئته فمن الممكن القول بأن البيئة المصرية بمميزاتها المختلفة هى التى حددت نوع تلك الحضارة وأثرت فى تفكير المصرى وإنتاجه - وإذا ما تأملنا هذه البيئة محاولين أن ندرس بصفة عامة

جغرافية مصر فى معناها الضيق لوجدنا أن نهر النيل يمتد فيها من صخور الشلال الأول إلى البحر المتوسط وهو يتفرع فى الدلتا الى أن يصب فى البحر وعلى ذلك شملت مصر قسمين مختلفين : الأول يمتد فيه وادى طويل ضيق مساحته المنزرعة ضئيلة للغـــاية وتحف به الصحارى من الجانبين ويمكن لأى إنسان إذا ماوصل إلى حافة الوادى أن يقف باحدى قدميه على الأرض المنزرعـة ويرتـكز بقدمه الأخرى على الصحراء ، أى أن الانتقال من الأرض المنزرعة إلى الصحراء انتقال فجائى ، وتلى الصحراء شرقا وغربا سلاسل من التلال القليلة الارتفاع تمتد بطول الوادى تقريبا أما فى الدلتا فالوادى متسع والأراضى الزراعية شاسعة فهى فى معظم العصور أغنى وأكثر إزدحاما من الوجه القبـــلى وما زالت كذلك حتى الآن ولـكنها فى أقدم العصور التاريخية كانت أقـــل سكانا لـكثرة مستنقعاتها .

ولما كان الانسان القديم فى مصر يخشى خطر الفيضان ويتجنبه فإنه كان يسكن على جانبى الوادى على الهضاب المرتفعة وكان النهر فى بداية الأمر قليل العمق متسع المجرى ، وكلما عمق مجراه كلما انحسرت الميـاه من الجانبين وتبعه السكان هابطين من الهضاب إلى حافة الوادى وعلى هذه نجد أقدم البقايا الأثرية من عصور ماقبل الأسرات موغلة فى الصحراء بعيدة عن الوادى وأكثر ارتفاعا من تلك التى تليها فى الزمن فتـكونت بذلك المدرجات النهرية المعروفة التى تعد شاذة فى تتابعهـا الزمنى لأن المعتاد فى الطبقات الأثرية أن تـكون أقدمها هى السفلى وأحدثها هى العليا أما فى المدرجات النهرية فإن العـكس هو الذى حدث .

وتتميز البيئة المصرية بأن الظاهرة الغالبة فيها تتمثل فى خطوط متوازية أو متعامدة فالوادى شريط ضيق يحيط بالنهر من الجانبين تبعد عنه قليلا الصحراوين الشرقية والغربية وهذه وتلك تحف بها سلاسل قليلة الارتفاع تظهر كأنها خطوط عمودية على طبقات الوادى التى تسير فى خطوط مستقيمة وكان لهذا أثره فى التفكير المصرى فقد رأى المصرى أن تلك الوديان والصحارى تمتد إلى مسافات شاسعة دون عائق وتمثل فضاء لانهائيا كما أنه رأى بعض مظاهر الطبيعة فى إستمرار دائم فالشمس تشرق كل يوم فى المشرق وتغرب فى المغرب فاعتقد بأن هناك حياة خالدة يعيش فيها المرء حياة أبدية وأن الحياة الدنيا فترة انتقال إلى عالم الخلود ـ وقد أثرت هذه البيئة كذلك فى نشاطه الفنى إذ خضع الفن إلى قواعد لاتحيد كثيراً عما تمثله المرء فى بيئته ، فرسومه ونقوشه بل وتماثيله أيضا تخضع لقانون الاتجاهات المستقيمة حتى ليمكننا القول باننا إذا ما أخذنا صورة انسان أو تمثالا من تلك التى قام بعملها المصرى القديم وقطعنا الرأس والأطراف لوجدنا صعوبة فى تفسير الجزء الباقى كذلك إذا ما تأملنا هذه الصورة أو ذلك التمثال لوجدنا أن الرأس يتعامد على الكتفين وأن هذين يمثلان خطا مستقيما يوازى الخطوط الأفقية الأخرى فى الجسم كذلك يتوازى الذراعان والساقان والخطوط الرأسية الأخرى ولذا قال أحد فلاسفة اليونان عن التماثيل المصرية بأنها كلها جميلة ولكن ينقصها المدرب الرياضى وذلك لأن الحركة فيها غير واضحة .

وإذا ماخرجنا عن دائرة الأفكار الفلسفية والدينية والفن إلى الحياة العملية المصرية لوجدنا أن الجماعات التى عاشت فى مصر فى أجزائها المختلفة كان يسهل عليها الاتصال فيما بينها وأهم ظاهرة قامت بتيسير هذا الاتصال هى نهر النيل

الذى كان له أكبر الأثر فى نشأة الحضارة المصرية وتطورها ، فمن المعروف أن اتجاه التيار فى النهر (من الجنوب الى الشمال) واتجاه الرياح السائدة « الرياح التجارية الشمالية الشرقية » (من الشمال إلى الجنوب) وعدم وجود العوائق على طول النهر من البحر المتوسط إلى أسوان مما يجعل الملاحة ميسورة فى كل أوقات السنة وفى الاتجاهات المختلفة وعلى ذلك كان من الطبيعى أن تنشط الملاحة فتمكنت الجماعات المنتشرة على طول الوادى من الاتصال بعضها بالبعض بسهولة ويسر وتبادلت مظاهر ثقافاتها وحضاراتها المختلفة ـ وكان للنيل كذلك أكبر الفضل فى توحيد تلك الجماعات إذ أن خطر الفيضان المشترك والرغبة فى التحكم فى مياه النهر للحصول على منافع مشتركة حتمت إيجاد مجتمع موحد متعاون فى ذلك الجزء من العالم.

ولاشك فى أن وادى النيل كان فى أول الأمر مسرحا لتنافس تلك الجماعات الصغيرة المتفرقة التى كانت تعيش على جانبيه والتى كانت تكون أقاليم مستقلة يغير أقواها على ما جاوره من أقاليم أضعف ويبسط سلطانه عليها حتى انقسم وادى النيل فى جزئه الأدنى إلى قسمين كبيرين : مملكة الوجه القبلى ومملكة الوجه البحرى ـ ومملكة الوجه القبلى كانت تضم أصلا أثنين وعشرين إقليما من تلك الأقاليم الصغيرة أما مملكة الوجه البحرى فكانت تضم عشرين إقليما وقد ظل هذا التقسيم يراعى فى معظم العصور الفرعونية ، كذلك ظل انقسام البلاد إلى مملكتين عالقا فى الأذهان حتى نهاية تلك العصور ويتمثل ذلك فى الألقاب الملكية وفى كثير من الإدارات الحكومية فكان الملك يلقب بملك الوجهين القبلى والبحرى وأطلق على بيت المال مثلا إسم « بيتى الذهب والفضة » والمقصود هو بيت

الذهب والفضة الخاص بالجنوب ومثيله الخاص بالشمال كذلك كان هناك وزيران أحدهما للجنوب والآخر للشمال .

نشأة الحضارة المصرية

ظل العالم المتحضر فترة من الزمن لا يعرف فيها شيئا عن نشأة الحضارة المصرية وتطورها بل وخيل للكثير من الباحثين بأن تلك الحضارة التى توحى آثارها بالنمو والإزدهار والتعقيد لم تكن أصيلة فى مصر ولم تتطور فيها وإنما جلبت اليها من الخارج فى صورة راقية ، إلا أن العثور على آثار تمثل الحضارات السابقة لعصر الأسرات (أى الحضارات البدائية) فى سلسلة متتابعة تكاد تكون متكاملة أثبت أن الحضارة المصرية أصيلة فى مصر نشأت وتطورت فيها وإن كان الأمر لا يخلو بالطبع (كما هو الحال فى الحضارات الاخرى) من التأثر بحضارات الأقاليم المجاورة فى بعض مظاهرها . ولكن مما لاشك فيه بأن البيئات المتشابهة والأجناس المتشابهة تنتج حضارات متشابهة وهكذا كان تشابه بيئات الشرق الأدنى القديم مما يعقد الأمور فى التعرف على انتقال الحضارات من بيئة لأخرى .

ولما كانت الحضارة المصرية قد وصلت إلى درجة رفيعة من التقدم والرقى فإنه كان من الأهمية بمكان أن يجتهد الباحثون فى التوصل إلى معرفة الجنس الذى يعد مسئولا عن هذه الحضارة أو الذى أبدعها وأنشأها إلا أن كل الجهود التى بذلت لم تؤدى حتى الآن إلى نتيجة حاسمة إذ لم يعثر على بقايا بشرية يمكن الحكم منها على نوع السكان الذين عاشوا فى العصر الحجرى القديم وقد حاول العلماء عبثا التعرف على هؤلاء من مخلفات العصور التالية ، وأقدم ما وجد من

مخلفات بشرية يدل على وجود عناصر مختلفة كانت تعيش جنبا الى جنب ولذا يمكن القول بأن الحضارة المصرية ترجع الى أجناس مختلفة عاشت فى وادى النيل واحتك بعضها بالبعض كما كانت لهم علاقات بالأجناس المشابهة التى عاشت فى الأقطار المجاورة ولذا قال بعض المؤرخين بأنه لم يوجد مصرى على الاطلاق وانما كان هناك دائما مصريون ويعنى هذا أنه لم ينفرد فى مصر جنس واحد وإنما وجدت أجناس متجاورة اختلطت ببعضها وكونت فى مجموعها سكان وادى النيل الأدنى .

ومما لاشك فيه أن الشعبة الحامية من جنس حوض البحر المتوسط كانت أكثر العناصر نشاطا فى شمال أفريقيا بما فى ذلك وادى النيل، ويبدو أن جنسا له بعض الصفات الزنجية قوى التكوين والبنية كان يسود العالم القديم وقد دخلت الى وادى النيل فى أثناء دخوله اليهما عناصر حامية قليلة العدد ثم ما لبثت هذه الأخيرة أن ازداد عددها حتى أصبحت هى الغالبة فى الوادى ورغم ذلك ظل خليط تلك العناصر مع الجنس القوى البنيه ممثلا فى معظم العصور التاريخية .

ومن المعروف كذلك أن عناصر كثيرة مختلفة قد دخلت إلى مصر فى عهودها المختلفة ولكن هذه لم تؤثر فى التكوين الجنسى للسكان إلا بنسب ضئيلة لأن تلك العناصر عند دخولها إلى مصر لاتلبث أن تختلط بالسكان وتندمج فيهم وتفقد مميزاتهـا الجنسية بالتدريج وإن ظلت بعض تلك المميزات تظهر فى العناصر الناتجة من إختلاطها حينا بعد حين .

وقد أدى تشابه بعض مظاهر الحضارة فى مصر مع مظاهر الحضارة فى جنوب غربى آسيا إلى الإعتقاد بأن الحضارة المصرية قد نقلت من

هذه الجهات إلى مصر عن طريق هجرة من المجـــرات ولكن تشابه ظروف البيئة فى تلك المرحلة البدائية يجعلنا نتردد كثيرا فى الأخذ بهذا الرأي ، ومع كل فإن انتقال تلك المظاهر الحضارية قد تم عن طريق احتكاك مباشر أو غير مباشر بين سكان وادى النيل وبين سكان جنوب غربى آسيا وليس ضروريا أن يكون عن طريق هجرة من المجرات .

فنشأة الحضارة فى مصر إذن مازال يكتنفها الغموض ومهما قيل فى ذلك فإن مايعنينا هو أننا نجد فى العصور الفرعونية حضارة بهرت العالم ووصلت إلى مدى بعيد فى ميدان التقدم فى كافة مظاهرهـا المختلفة وقـد تمثلت فى مصر دولة قوية فتية يحكمها بيت مالك له تقـاليده ومراسيمه المعقدة ويحيط بالملك حاشية يحمل أفرادها مختلف الألقاب ويحتـــلون مناصب رفيعة ، وتكاد تحاكى فى تنظيمها الإدارى ما نسير عليه فى حياتنـا الحاضرة وكانت الطقوس الدينية تقام فى المعبد فى صورة لاتختلف كثيراً عن الطقوس التى تقام فى بعض العبـادات الحديثة وكان الجيش يتبع أساليب وفنون حربية تسير وفق الأسس التى تقـــوم عليها الجيوش النظامية ـ وهكذا فى سائر النظم كانت مصر دولة لاتختلف فى كيانها كثيراً عن أى دولة حديثة .

ويرى كثير من الأثريين بأن الحضـارة المصرية كانت حضارة مـادية حسية فى أساسها وأنها كانت تهدف إلى الناحية العملية دون النظرية .

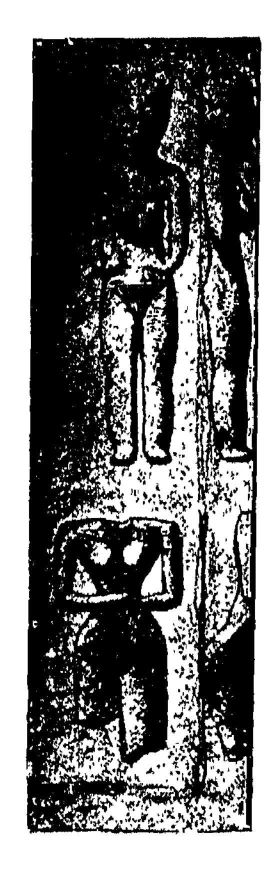
ولـكن مما لاشك فيه أن كثيراً من النتائج العلمية التى وصل اليهـــا المصرى كانت عن طريق إتجاهه إلى بعض النواحى النظـرية أى أنه سما بتفـكيره عن تحقيق أهداف عملية فى دراسته لبعض النواحى العلمية، ومهما

كان الأمر فإنه فى كل إنتاجه فى المراحـــل الأولى من حضارته كان يهدف أصـلا الى تحقيق منفعة فى حيـاته العملية شأنه فى ذلك شأن الشعوب الأخرى .

وإذا ما أردنا دراسة مظاهر الحضارة المصرية المختلفة فان من الملائم أن نتحدث عنها على أنها مظاهر لمجتمع نشيط راق وصل الى مرتبة عالية من التنظيم وبالطبع تحتل الأسرة المكانة الاولى فى دراسة أى مجتمع من المجتمعات وتمثل الحياة اليومية لأفرادها مظاهر الحضارة المختلفة .

الاســـرة

اذا ما أردنا أن نتتبع تقاليد الزواج والنظام الأسرى فى مصر القديمة فإننا لانكاد نجد مايشير إلى هذه الأمور فى بداية العصور الفرعونية، ويخيل إلينا ن المصرى فى عصور ماقبل الاسرات كان يتخذ زوجة كأليف تعاونه فى حياته وتنجب له الاطفال شأنه فى ذلك شأن الإنسان فى كل المجتمعات البدائية البسيطة ، فإنجاب الذرية هو أهم البواعث عـــلى الزواج فى تلك المجتمعات ـ ويستدل عـلى أن المصرى القديم قد توخى هذا الغرض من تماثيل السيدات التى وجدت فى عصور ما قبل الاسرات فهى عموما تماثيل لسيدات متضخمات الأثداء والبطون وهى فى هيأتها وتكوينها تدل على أن المقصود منها تمثيل الامومة وانجاب الذرية ،(شكل١) ومن نصائح أحد الحـكماء لشاب يحضه على الزواج قوله له أن يتخذ له زوجة فى شبابه « فإن أحسن شىء فى الوجود هو بيت الإنسان الخـــاص به » وأن « تلد له ابنا » ـ ويبدو أن الاحتفاظ بالزوجة لم يكن سهلا كما هو الحال فى سائر الجماعات البدائية فربما كان القوى يغتصب زوجة الضعيف ويتخذها



(شكل ١) تماثيل سيدات من العصر قبل التاريخى

لنفسه ولذا نجد أن الملك المتوفى يوصف فى نصوص الأهرام بأنه « يأخذ النساء من أزواجهن على حسب رغبته »

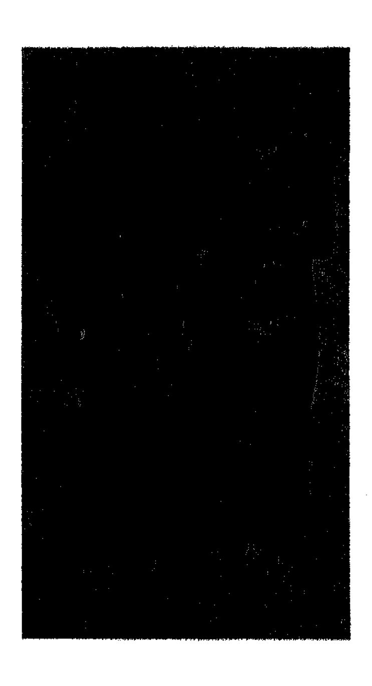
ولانعرف طقوس الزواج فى مصر القديمة إلا أن من المرجح أنه كانت هناك عقود قانونية كما يفهم ذلك من أقوال الحكماء فى نصحهم لمن يستمعون اليهم عند الاشارة إلى الزوج بقولهم «لكى يؤسس المرء لنفسه بيتا » مما يدل على أن هناك إتفاقا من نوع ما أو عقداً يكتب بصورة خاصه (١) .

أما مركز المرأة فى مصر القديمه فكان على خلاف مايعتقده الاوربيون عن نساء الشرق إذ أن هؤلاء يعتقدون بأن المرأة فى الشرق ملهاة للرجل وأنها لعبتــه ولمجرد تسليته والوقوف على راحتـه وظنوا أن الحـالة فى مصر القديمة لم تكن تختلف عن ذلك إلا أن هذا القول يتنافى مع الواقع فالمرأة فى الشرق من الناحية العملية تحظى بمكانة أعظم كثيراً من مكانة المرأة الاوربية ولهـا من الحقوق مالا تحلم به هذه الأخيرة فى كثير من الأحيان . وعلى أية حال احتلت المرأة مركزاً هاما فى مصر

---

(١) إرمان - رانكه (ترجمة أبو بكر ومحرم كمال) « مصر والحياة المصرية » (القاهرة سنة ١٩٥٣) ص ١٦٢

القديمة وظهرت سيدات عظيمات قمن بأدوار كبيرة فى التاريخ -وكانت الزوجة الشرعية لاتقل مركزاً عن الزوج فهى على قدم المساواة معه وقد مثلت فى تماثيل الدولة القديمة فى حجم يكاد يكون مساويا لحجم الرجل (شكل ٢) وتضع يدها حول رقبته أو وسطه فى تآلف وكانت تشترك فى صيده ولهوه وفى الإشراف على أعماله المختلفة . أما فى العصور المتأخرة نسبيا فقد روعى أن تمثل الزوجات بحجم أصغر من حجم أزواجهن لأسباب فنية أو تقليدية.



شكل (٢) : تمثال الملك منقرع وزوجته بمتحف بوسطن

وكان من النادر أن يجمع المرء أكثر من زوجة شرعية ومع هذا كانت الزوجات الشرعيات للشخص الواحد فى درجة عظيمة من الود

والتآلف فمثلا نجد أن « إميني » الذى كان نبيلا من نبلاء الدولة الوسطى كانت له زوجتان شرعيتان إحداهما تسمى « حنوت » والأخرى تدعى « نبت » وقد أنجبت له الأولى ثلاثة بنات وولد واحد . أما الثانية فكان لها ولدان وخمسة بنات وقد أسمت « حنوت » بناتها جميعا باسم الزوجة الثانية وسمت الأخرى ثانى بناتها باسم « حنوت » ويدل هذا على مقدار الصفاء بينهما [١] . وفى العصور المتأخرة لم تنتشر عادة الزواج بأكثر من واحدة إلا فى الطبقات الدنيا أو عند الملوك فقط وحكام الاقاليم وذلك لأسباب تتعلق بالوراثة أو لأسباب سياسية فأحد حكام الاقاليم فى الدولة الوسطى قد أصاب ميراثا عن طريق زواج والده بأحدى السيدات اللائى يرثن أحد الاقاليم أى أنه لم يكن له الحق فى وراثته إلا عن طريق هذا الزواج - كما أن الملوك فى الدولة الحديثة عمدوا إلى مصاهرة بعض ملوك دول الشرق المجاورة ومن أبرز هذه الزيجات زواج رمسيس الثانى بابنة ملك الحيثيين بعد عقد معاهدة الصلح بينهما ، وقد جاء هذا الزواج توكيدا للتحالف بينهما .

وكان الزواج يتم غالبا فى سن مبكرة فالولد يتزوج عادة فى سن الخامسة عشرة أما البنت فكانت تتزوج فى الثانية عشرة - وكان زواج الاخت قاعدة متبعة ويمنح الوالد ابنته لولده ليتزوج منها ، وتطور الامر فأصبحت كلمه الاخت تطلق لتعنى الحبيبة أو الخليلة كما كانت تدل على الزوجة ولم تكن هناك غضاضة فى زواج الاخت فقد نشأت هذه العادة على الارجح

---

(١) إرمان - رانكة (المرجع السابق) ص ١٥٩

فى المجتمعات الصغيرة لظروف حتمتها البيئة حتى تحافظ على دمائها ، وظل الملوك فى مصر يتبعونها للمحافظة على الدم الملكى المقدس فى دائرة البيت الملكى نفسه .

ورغم الزواج المبكر كانت الحالة الخلقية بين الازواج عادية فى معظم الاحيان ولكن شابتها بعض الشوائب فى أحوال نادرة إذ أن أمثلة وردت عن حدوث بعض الخيانات الزوجية إلا أنها لم تكن شائعة .

وكان ينظر إلى الارملة نظرة الحذر وكان الحكماء يحضون الشباب على تجنب الالتقاء بها حتى لايقعوا فى حبائلها كما أنهم كانوا ينفرون من المرأة المجهولة الاصل [١] .

ولم يكن النبيل أو العظيم ليقتصر على زوجته الشرعية فقط بل كان يتخذ بعض المحظيات فكان له بيت للحريم (شأنه فى ذلك شأن الملوك) كان يعرف باسم « بيت المحجبات » ويخضع لرقابة شديدة . ولم يكن للحريم حقوق الزوجات الشرعيات (وليس لأبنائهم ولا لبناتهم حقوق شرعية) ولم تظهرن في الحفلات على قدم المساواة مع الزوجات بل كان مركزهن فى المؤخرة دائما ـ وكان على المحظيات أن يقمن بالغناء وبالترفيه عن السيد ، ومع هذا فقد وجدت أمثلة كثيرة للعتق وتشير إلى ذلك نصوص مختلفة وبعض النصوص تشتد فى عتقهن والاحتفاظ لهن بالحقوق الشرعية كالاحرار [٢] .

وكان مركز الأم عظيما للغاية وكان المرء ينسب إليها أحيانا لا إلى

---

(١) Max . d ' Anii 2.13FF

(٢) Rec . Trav 29 , 166 ; ASA 14, 23 ; JEA. 26, 23 ff

والده فيضاف اسم الأم بعد اسم الشخص ـ وكان التوريث فى الدولة الوسطى يسير على نظام أن ابن الابنة الكبرى هو الذى يرث لا الإبن الا كبر كما أن جد الشخص من جهة أمه كثيراً ما كان يتوسط لحفيده فى نيل الحظوة لدى البلاط أو فى الحكومة ، ولم يكن الابن ليرث عن أبيه شيئا إلا بعد أن يقرر الملك ومستشاروه ذلك ، لكى يوضع كل فى مكان والده ».[1]

ومن جهة أخرى كان يراعى دائما أن يحمى الإبن اسم والده وأن يخلده فهو يشرف على تقديم القرابين له ويحافظ على مقبرته وإبقاء آثاره لأن المصرى كان يعتقد أن زوال اسمه من النقوش هلاك أبدى له ولذا كثيرا ما عمد بعض المصريين إلى إزالة أسماء بعض السابقين للانتقام منهم ـ ومع كل لا نجد أمثلة كثيرة يفتخر فيها الابن بوالده بل ولم نجد سلسلة نسب كاملة تستمر عدة أجيال إلا فى عصور متأخرة وربما ذلك لصعوبة التعرف على الاجيال السابقة وذلك لأن الشخص كثيراً ما كان يغير اسمه فى بعض مراحل حياته كما أن بعض الأشخاص كانوا يعرفون بأسماء التدليل لابأسمائهم الاصلية وأصبحت أسماء التدليل هذه واختصارات الأسماء شائعة منذ الدولة الوسطى على الاقل.

أما الروابط العائلية بين أفراد الاسرة المختلفة فقد كانت تشوبها بعض الشوائب أحيانا وذلك لإنتشار عادة التسرى ووجود الكثير من الرقيق الاجنبي وكان المصرى ينظر إلى هؤلاء نظرة التحقير بل أنه كان ينظر

---

(١) إرمان ـ رانكة (المرجع السابق) ص ١٦٥ ـ ١٦٦

إلى الأجنبى عامة نظرة الاحتقار شأنه فى ذلك شأن الأمم التى تنهض وخاصة إذا كانت الأمم الأخرى أضعف منها ويتمثل هذا فى تعريف المصرى للمصريين بأنهم الرجال أو بنى الإنسان ؟ وللبدو بأنهم سكان الرمال أو الصحراء ولأهل الجنوب بأهل كوش الخاسئين ، ومن الأمثلة الواضحة على احتقار أهل البلاد الأخرى مانجده فى نص يمثل شكوى أحد الأبناء إلى الوزير فى حق والده الذى كتب جزءا من أملاكه لزوجته الثانية فقد أجاب الوزير على هذه الشكوى بأن الوالد «حر فيما يمتلك حتى ولو كانت تلك الزوجة التى أعطاها ليست زوجته بل محبوبة أجنبية آسيوية أو نوبية» [١] ـ وكثيراً ماكانت الزوجة الثانية (وخاصة التى لا أولاد لها) تعامل بشىء من القسوة من أولاد زوجها وإن كن أحيانا يعاملن معاملة طيبة ويحظين بمركز ممتاز وبالطبع كان المال عاملا هاما فى تحديد بعض أنواع العلاقات التى كانت تسود فى الأسرات .

أما فيما يختص بالأطفال وتنشئتهم فإنهم فى عهد الدولة القديمة كانوا يتركون لحريتهم حتى سن الرابعة تقريبا وكثيرا ماتمثلهم النقوش وهم عرايا مجردين من اللباس يلعبون أو يصحبون آباءهم فى نزهاتهم وصيدهم، أما بعد الدولة القديمة فيندر أن نجد صورة لطفل مجرد من اللباس ـ وكانوا يذهبون إلى مدارس تلحق بالمعابد غالبا ، ولكن أبناء النبلاء وذوى النفوذ كانوا يذهبون الى مدارس البلاط حيث ينشأون مع أبناء الملك وكانت العلامة المميزة لأبناء الملوك والنبلاء خصلة من الشعر أشبه بالضفيرة على جانبى الرأس . ومع أنهم كانوا يعاملون بشىء من الحزم فى تربيتهم أكثر

---

(١) JEA 13, pl. XIV, p. 32

من أطفال العصر الحالى إلا أنهم كانوا يحظون بالكثير من اللعب التى وجدت منها نماذج فى بعض المقابر ومنها أنواع متقدمة فى صناعتهـــا وفكرتها كثيراً (١) .

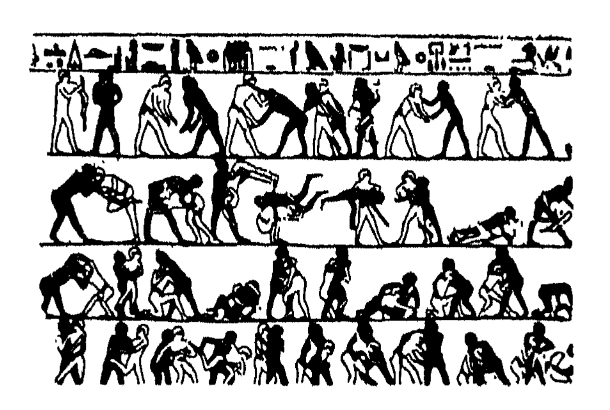
وقد روعى فى قواعد السلوك أن تجعل من الإنسان شخصا ممتازا فى عمله وفى علاقته مع الآخرين وهى تحض على التعلم والابتعاد عن الشرور والآثام وعن قرناء السوء - ومن تعاليم بعض الحكماء نتبين أن السلوك فى حضرة العظماء كان معقداً يشوبه الكثير من التكلف ولايكاد يختلف كثيراً عن قواعد السلوك الحالية ، ومن أمثلة ذلك ما ورد على لسان أحد الحكماء ، إذا دعيت إلى حضرة العظيم فلا تجلس إلا إذا دعاك وإذا دعيت إلى الطعام فكل مما هو أمامك ولا تنظر إلى ما يأكله ذلك العظيم . . إضحك عندما يضحك فإن هذا مما يبهج قلبه .. الخ » .

أما عن وسائل الترفيه وقتل أوقات الفراغ فكثيراً ما كانت الأسرة تشترك فى الخروج مع عميدها فى رحلات صيده ولهوه ، فبعض النقوش تبين لنا الرجل واقفا فى زورقه وهو يقوم بصيد الطيور أو الأسماك فى المستنقعات ومعه زوجته وأولاده وقد يصحبهم قط أليف يأتى بالطيور المصابة إلى القارب - أما فى رحلات الصيد المحفوفة بالمخاطر مثل صيد فرس النهر والتمساح وصيد الحيوانات المفترسة فى الصحارى فأغلب الظن أن الرجال هم الذين كانوا يخرجون فيها وحدهم إذ لم يرد فى النقوش ما يبين اصطحابهم لعائلاتهم فيها ، غير أنه فى أحوال نادرة كان يطيب لبعضهم

Garstang, Burial Customs, pp. 151 ff; Petrie, Naqada & Ballas, pp. 34 f; Petrie, Kahun , pl. 30 , 57 & pl. IX,18-20

أن يصحبوا زوجاتهم فى صيد الصحراء حيث تقوم كلاب الصيد بدور هام فيها إذ تكون حيوانات الصيد الرئيسية من الأرانب والغزلان التى يسهل للكلاب الامساك بها ـ وكثيراً ماكانت تقام فى الصحراء ساحة مسورة بحواجز (جدران) فى هيئة الشباك تساق إلى داخلها حيوانات الصيد حيث كان الملك فى الدولة القديمة يمتع نفسه باطلاق سهامه عليها بينما يقف على خدمته عدد من الخدم يقدمون له السهام التى يطلقها ، وقد حاكى أمراء الأقاليم ملوكهم فى هذه الرياضة منذ عهد الفوضى الأول ـ أما فى الدولة الحديثة فإن الملوك كانوا مولعين بصيد الحيوانات المتوحشة ومواجهتها فى العراء لما فى ذلك من إثارة وحماس رغم الخطورة التى كانوا يتعرضون لها .

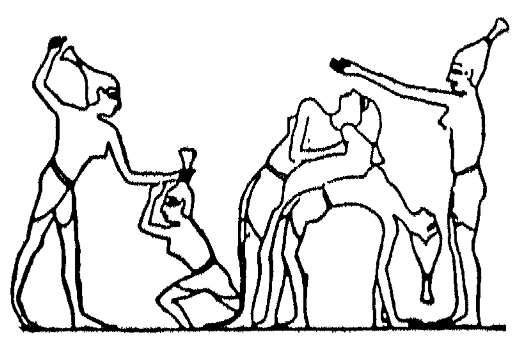
أما تسلية الأسرة داخل الدار فتنحصر فى مشاهدة رب الدار وأسرته لبعض المتصارعين وهم يعرضون ألعابهم فى مرونة وخفة ومهارة (شكل ٣)



شكل (٣) : فريق من المتصارعين

أو بعض المتبارزين المسلحين بعصى قصيرة ويتقون ضربات خصومهم بأذرعهم الطليقة التى تحميها سيور جلدية شدت إليها ـ وقد تشاهد الأسرة

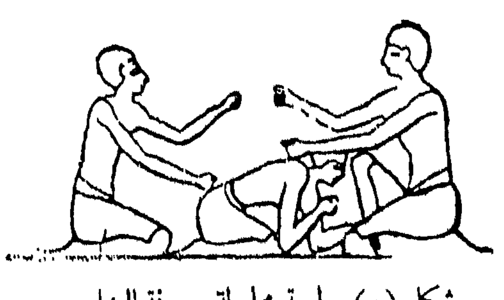
كذلك عرضا لبعض الفتيات يلعبن بكرات صغيرة ألعابا فيها كثير من المهارة والحذق أو يؤدين حركات بهلوانية أو يقمن بالرقص وهو ما كان يقوم به الرجال كذلك فى بعض الأحيان ، وكثيراً مايبدو فى مناظر الرقص مايمثل اللوحات الحية أو رقص البـاليه (شكل ٤) ـ وكانت الموسيق



شكل (٤) : راقصات يمثلن لوحة حية

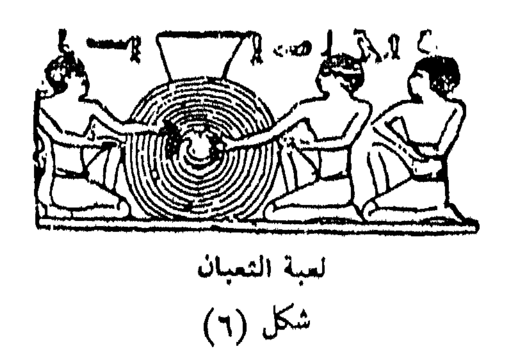
والتصفيق بالأيدى والغناء ترافق الرقص فى كثير من الأحيان ـ وقد أغرم المصريون باقامة الحفلات التى كانت لاتخلو من الموسيقى والغناء والشراب .

ولم يقتصر المصريون على ضروب التسلية الرياضية أو مشاهدة فرق المصارعين والراقصين وغيرهم والاشتراك فى الحفلات المختلفة بل كانت لديهم أنواع أخرى من الألعاب وضروب اللهو فن ذلك مثلا قيام بعض الصبية بلعبه يتكهن فيها أحدهم بمن يضربه وهو راكع لايرى أيدى زملائه حين يهوى أحدهم على ظهره (شكل ٥) أو يشتركون فى قذف أداة ذات سن مدببة على لوحة من الخشب وغيرها من الألعاب التى تحتاج إلى مران ومهارة ـ كما أن الألعـــاب التى تحتـاج إلى إعمـــال الفكر كانت محببة لديهم فى سائر عصورهم ومنها مايشبه رقع الشطرنج أو الداما الحالية ، ومنها لعبة كانت رقعتها



شكل (٥) . لعبة محاولة معرفة الضارب

ذات مقبض وقد رسم عليها شكل أفعى ملتفة حول نفسها ولكنها مقطعة في بعض الأماكن وكان المتباريان يلعبانها بوضع تماثيل صغيرة للأسود والكلاب على جسم الأفعى ، ويبدو أن الفائز هو الذى يستطيع إخراج تماثيله من ذلك التيه الممثل فى شكل جسم الأفعى بشروط معينة (شكل ٦) وغير ذلك من الألعاب التى لم يمكن التوصل إلى طريقة لعبها أو قواعدها .



لعبة الثعبان

شكل (٦)

الملـــك

كان الملك على رأس المجتمع وهو سيده فذاته مصونة لا تمس ، ولم يصل إلى هذه المكانة بالطبع إلا بعد تعاقب أجيال عديدة من الجماعات التى عاشت فى وادى النيل ، إذ يمكننا أن نتخيل أن هذه الجماعات كانت تسلم قيادها إلى زعماء من أفرادها وتثق كل جماعة فى زعيمها وتعترف له بالقوة والسيطرة، ثم أخذت هذه الجماعات تندمج معا وانتقلت الزعامة إلى أيدى أقوى زعيم من هؤلاء . وبالطبع لم يكن ليصل إلى الزعامة إلا من تمتع بمميزات يعجز عنها غيره من الافراد مما أدى إلى أن تنسب إليه قوى خارقه وأن يحاط بمظاهر الإجلال والقدسية ولكنه فى نفس الوقت كثيراً ما كان عرضة لأن يصبح هدفا للحاسدين والمنافسين الذين يتحينون الفرص للإيقاع به والتخلص منه لإبداله بغيره ، وليس من الضرورى أن يكون العامل على التخلص منه عدواً بل قد يكون من أقرب المقربين إليه إذ يتصور أنه أحق منه بالمكانة التى يتمتع بها .

ولا شك فى أن حروبا كثيرة دارت بين الأقاليم المختلفة إلى أن وحدت هذه الأقاليم فى قطرين « مملكة الوجه القبلى ومملكة الوجه البحرى» واستمر الحال على هذا المنوال زمنا طويلا قبل أن توحد المملـــكتان توحيداً مؤكداً . وبالطبع أخذت مكانة الزعيم الأقـــوى تزداد ويعظم توقيره ، وما أن صار هذا ملكا حتى كانت قدسيته قد بلغت أوجها ونسب إلى الآلهة . ونظراً لطول الأمد الذى عاشت فيه مملكتا الوجه القبلى والبحرى منفصلتين فقد حرص المـــلك على إبراز حكمه لهذين القطرين فأصبح يطلق على نفسه « موحد القطرين » أو « سيد القطرين ».

ومن البديهى أن تنتقل كل الحقوق والوجبات التى كانت لزعيم الجماعة إلى ملك البلاد - وبما أن الزعيم كانت له السلطة المطلقة على الجماعة يتصرف فى شئونها ويرعى حقوقها ويدافع عنها فقد أصبح الملك صاحب الحق المطلق فى كل أملاك الدولة، وإذا سمح بإعطاء شىء منها إلى بعض المقربين له فإنما يكون ذلك من قبيل المنحة أو العارية التى يستطيع أن يستردها حينما يشاء بل وكانت الرعية من الناحية النظرية على الأقل ملكا له يتصرف فيها وفق مايريد - وكان هو المحور التى تدور حوله كل شئون الدولة وهو المسيطر عليها والمتصرف فيها، إلا أنه فى الواقع لم يكن ليستطيع ذلك إلا بمعاونة الوزراء وعدد من المستشارين الذين يستعينون بدورهم بالعديد من الموظفين والكتاب، وإلى جانب هؤلاء يعمل قواد الجيش وجنودهم والكهنة وأتباعهم على احتفاظ الملك بسلطانه وإعلاء شأنه والمعاونة فى تصريف شئون الدولة - وفى مختلف الاقاليم كان يمثل الملك أمراؤها الذين كانوا يستعينون بدورهم بأجهزة مصغرة لما هو موجود بالعاصمة.

وكان على الملوك أن يحسنوا علاقاتهم بكل هذه السلطات وفى نفس الوقت يعملون على عدم تهديدها لسلطانهم، وطالما كان الملك قويا فإنه كان ينعم باستقرار الأمر له وازدهرت البلاد ونعمت بالأمن والهدوء فى حين أن ضعف الملوك كان يؤدى إلى كثرة الدسائس من حولهم وقد ينجم عن ذلك إسقاطهم على أيدى مغتصبين للعرش أو قيام الثورات ضدهم وإن لم يكن هـذا وذاك فإن كلا من الطوائف المختلفة التى تعاون الملك فى تصريف أمور الدولة تعمل على زيادة نفوذها والإكثار من الامتيازات التى تتمتع بها وتسوء أحوال الدولة ويعم فيها الفساد.

ومع أن الملك كان ينتسب إلى الآلهة بل واعتبر فى نظر المصريين إله كما يتضح ذلك من الألقاب التى كان يتخذها [١]، كذلك كانوا يشيرون إليه بلفظ « الإله » ، « حور الذى فى القصر » ، « الإله الطيب » الخ . . . وبعد موته يطلقون عليه « الإله العظيم » - إلا أن فكرة ألوهية الملك الحى لم تمثل ماديا إلا ابتداء من عصر الأسرة الثامنة عشرة ، فمنذ أقدم العصور لم تنشأ معابد لعبادة الملك وهو على قيد الحياة إذ أن أقدم ماعثر عليه من معابد لعبادة الملك وهو مازال حيا كان من عهد الملك امنحتب الثالث [٢]، ومن الممكن أن تكون الفكرة التى ابتدعتها حتشبسوت فى معبدها بالدير البحرى والتى حاكاها امنحتب الثالث فى معبد الأقصر من تصوير مولدهما كأن الإله آمون نفسه قد اتصل جنسيا بوالدتيهما وأنجبهما من صلبه مما جعل فكرة إنشاء معبد لعبادة امنحتب الثالث لشخصه مقبوله لديه إلا أنه لم يبدأها فى مصر إذ لم تبدأ عبادة شخص الملك الحى فى مصر إلا منذ عهد رعمسيس الثانى.

وما دام الملوك يتمتعون بمثل هذه المكانة فإنه كان لابد من أن يمتازوا عن رعاياهم فى زيهم وزينتهم وإن كان لباسهم فى أقدم العصور يتسم بالبساطة لايزيد على إزار قصير ذو شريط يمتد فوق الكتف الأيسر وحزام مثبت به ذيل حيوان من الخلف ويوضع فيه خنجر من الأمام وهذا الزى يشبه ماكان يلبسه صيادو الوحوش فى أقدم العصور

---

(١) الالقاب الخمسة الشائعة هى : حور ، الربتان (أو المنتسب الى الالهتين نخبت إلهة الوجه القبلى ووادجيت إلهة الوجه البحرى) ، ملك مصر العليا والسفلى ، حور الذهبي ، ابن رع .

(٢) فى سدنجا ، سيصب ، صلب بشمال السودان .

(شكل ٧) وإلى جانب هذا الإزار كان الملوك يتزيون بنقبة قصيرة تلتف حول الوسط فوق مايشبه الجعبة التى تستر العورة وفى الوسط حزام مثبت بمشبك من الأمام نقش عليه إسم الملك وقد أصبح هذا الزى تقليديا فى معظم العصور الفرعونية .



شكل (٧) أحد الملوك بالزى القديم

وكان يتحلى بلحية طويلة صناعية مدببة يثبتها إلى ذقنه كما يضع على رأسه عصابة تنحدر على الكتفين بثنايا كثيرة وتلوى فى الخلف على هيئة ضفيرة قصيرة فوق العنق ويشدها على الجبهة شريط يمثل على منتصفه الجزء العلوى للأفعى السامة (أوريوس) رمزا لحمايتها له (كأنها تهدد أعداء الملك) بينما يمتد بقية جسمها فى خط متعرج فوق منتصف الرأس — أما التيجان فقد كانت تختلف فى أشكالها وما ترمز له فنها التاج الأبيض وهو تاج الوجه القبلى وكان على شكل مخروط طويل ومنها التاج الأحمر وهو تاج الوجه البحرى وكان على شكل قلنسوة لها ظهر كمسند مرتفع وحلية ملتوية من الأمام ومنها التاج المزدوج الذى يجمع بين التاجين السابقين ومنها التاج الازرق ... الخ — ومن شارات الملك

التى كان يستعملها عصا معقوفه (كان شكلها يستخدم فى الكتابة بمعنى «حاكم أو ملك») وأداة تشبه السوط أو المذبة ، أما السلاح التقليدى الذى كان يمثل مستخدما له فى النقوش التى تبينه وهو يقضى على الأعداء فكان هراوة أو دبوس قتال هو عبارة عن عصا قصيرة مثبت فى طرفها كتلة من الحجر.

وقد تطورت أزياء الملوك بمرور الزمن ولكنها فى الغالب لم تختلف عن ملابس الرعية إلا بما تحلى به من زخارف ذهبية على أن النقبة الملكية التقليدية ظلت ملازمة لهذه الأزياء فكانت تلبس فوق الملابس العادية أو تحتها - وإلى جانب شارات الملك السابقه أخذ الملوك منذ عصر الدولة الحديثة يستخدمون سيفا يشبه المنجل.

ومن الطبيعى أن كثرة واجبات الملك وتعقد الحياة الاجتماعية قد استوجبتا ظهور الملك بمظهر لائق فى المناسبات المختلفة ولذا كان من المحتم مراعاة اختيار الملابس والشارات المناسبة والعناية بها وملاحظة دقة استعمالها واختص عدد من الموظفين فى البلاط بهذه الأمور فكان هناك «موظفو خزانة الثياب الملكية» و «المشرف على ثياب الملك» و «غسال فرعون» و «رئيس غسالى القصر» و «رئيس القائمين بتبييض الثياب الملكية» و «المشرف على صانعى الشعر (المستعار)» و «وصانع شعر فرعون» و «أمناء التيجان» الخ - أما الحلى فكانت لها إدارة هامة فى القصر «إدارة الحلى الملكية» ولها رئيس وكتاب ورئيس صناع ورئيس فنانين و «المستشار الخاص بحلى الملك» و «مبدع الحلى الملكية» .

وكان العرش فى أول أمره بسيطا عبارة عن مقعد فى هيئة مكعب ذو ظهر قليل الارتفاع وابتداء من عصر الدولة الحديثة صار هذا المقعد

يوضع تحت مظلة تحملها أعمدة خشبية دقيقة ، ويبدو العرش وكأنه يرتكز على رؤوس أعداء مصر التقليديين (الزنوج والآسيويين) وتحلى المظلة فى أعلاها بزخارف فى هيئة صفوف من أفاعى الحماية (أوريوس) وفى قاعدتها بأسماء البلاد الأجنبية التى هزمها الملك .

حاشية الملك

لا يمكننا أن نتعرف على كل أفراد حاشية الملك ووظائفهم فى البلاط بصورة كامله ، ولكن من الممكن أن نتتبع الكثيرين منهم إذا تأملنا مناظر الاحتفالات المدنية والدينية التى كان الملك يشترك فيها وخاصة من عهد الدولة الحديثة - ففى أقدم العصور كان الملك يتجلى لرعيته فى محفة يحملها عدد من الجنود ويرافقه موظف كبير يحمل لقب « حامل المروحة على يمين الملك» ، وهو يحمل مروحة صغيرة رمزا لمكانته ، بينما يوجد حامل مروحة كبيرة أمام المحفة وآخر من خلفها ، وحينما يخرج الموكب الملكى من القصر لحضور أحد الاحتفالات أو للنزهة يجرى فى المقدمة رجلان يحملان العصى لإفساح الطريق أمام المركبة الملكية التى تشدها خيول مزينة وعلى جانبيها يجرى الحرس الملكى ويتبعها عدد من الجنود يمثلون مختلف فرق الجيش ومن بعدهم كبار الضباط فى مركباتهم - وإذا صاحبت سيدات القصر الملك فى هذا الموكب فإن عربات الملكة والأميرات تجرى إلى جانب عربة الملك . وفى الاحتفالات التى تجرى داخل المعابد نجد إلى جانب الكهنة القائمين بالطقوس بعض أبناء الملك الذين حضروا لمشاهدتها ويحيط بالملك عدد من كبار موظفيه ، وقد يحمل محفته عدد من أبنائه بينما يقوم عدد آخر منهم باستخدام المراوح ويتقدم الكهنة فى

الموكب طائفة من أقارب وأولاد الملك والأمراء العظام وفى طليعة الموكب نافخو الأبواق وقارعو الطبول معلنين قدوم الموكب .

ومما يوضح لنا الدور الذى كان يقوم به بعض رجال البلاط عدد من النصوص التى خلفها هؤلاء وافتخروا فيها بمكانتهم وحظوتهم لدى سادتهم، فهناك مثلا « المشرف على أسرار غرفة الصباح » وهو ما يعادل حاليا « رئيس الخدمة الخاصة » الذى كان يشرف على ملابس الملك وزينته وتمتد إختصاصاته إلى كثير من الشئون ، وكثيرا ما كان يعهد بهذه الوظيفة إلى « ابن الملك » أو إلى أقرب المقربين إليه لأنه فى غالب الأحيان كان يتحكم فى إدارة القصر أيضا ـ وإلى جانب هذا الموظف كان هناك عدد كبير من المقربين إلى الملك ، وكانت تقاليد القصر صارمة بحيث لايمكن لأحد هؤلاء أن يتعدى فى مثوله أمام الملك المكان الذى يخصص له أو أن يقترب من شخص الملك أكثر مما يستحق ، ومع أن لقب « السمير » و « السمير الوحيد » يوحيان بأن حامل كل منهما لابد وأن يكون من أتباع الملك الذين يضمهم بلاطه إلا أن هذين اللقبين كثيرا ما كانا يمنحان على سبيل التشريف لأشخاص يعملون فى خارج البلاط أو فى أماكن نائية عن العاصمة .

ومع أن الملوك كانوا يجمعون بين عدد من الزوجات إلا أن زوجة واحدة هى التى كانت تعد ملكة شرعية وهى التى كان يجرى فى عروقها الدم الملكى أو أن تكون أولى زوجات الملك ، وكان اسمها يوضع فى خرطوش كما هو الحال بالنسبة لاسم زوجها وكان نفوذها عظيما وخاصة إذا استطاعت أن تتحكم فى شخص الملك ، وكثيرا ما كن يلعبن دورا

رئيسيا فى البلاط بعد وفاة أزواجهن كما أن بعضهن بلغن مرتبة التقديس كآلهات .

وإلى جانب الملكات وغيرهن من زوجات الملك كان الملوك يحتفظون بحريم خاص وحظيات يخضعن لرئيسة ويشرف عليهن عدد من الموظفين لهم مكانتهم مثل « المشرف على غرف الحريم الملكية » ، « نائب رئيس الحريم » إلى جانب عدد من الحراس الذين يمنعونهن من الاتصال بالعالم الخارجى اتصالا غير مرغوب فيه ، وكثيرا ما كان بعض النبلاء ذوى المكانة يفخرون بأنهم كانوا يشغلون وظيفة « المشرف على بيت الحريم الملكى » وبأنهم كانوا يعرضون الحريم أمام الملك ويلاحظون الرقص فى القصر ، وبالطبع كانت مهمة هذا الحريم تنحصر فى تسلية الملك وإدخال السرور إلى نفسه - وكان الوصول إلى مرتبة حظية ملكية يعد شرفا تتطلع إليه الكثيرات لأن بعضهن كن يتمتعن بحظوة كبيرة لدى الملك وتمنحن ألقاب شرف رفيعة مثل « حاكمة البلاد كلها » ، « سيدة القطرين » ، « الحاكمة الجميلة » ... الخ وكثيرا ما كان يفخر بعض العظماء باتخاذ حظيات ملكيات كزوجات لهم .

ولاشك فى أن تعدد زوجات الملوك وكثرة حظياتهم قد أدى إلى وجود عدد وفير من الأبناء الملكيين ولذا كانت تخصص لهم أملاك معينة كما كانت تسند إليهم مناصب مختلفة دينية وقضائية وإدارية وعسكرية ، وقد عنى بتنشئة هؤلاء الأمراء فى أقسام خاصة من القصر وكان المشرفون على تربيتهم يتمتعون بمكانة سامية فرضعاتهم - وهن غالبا من زوجات الأشراف - كن يلعبن دوراً هاما فى البلاط وخاصة إذا ما أصبح الجالس

على العرش أو الملكة من بين الذين أرضعتهم ، كما أن مربى الأمير أو الأميرة كان هو الآخر يعد من أعلى شخصيات البلاط .

وكثيرا ما كان الملوك يسمحون بتنشئة بعض أبناء كبار رجال الدولة مع أبنائهم فى البلاط ويولونهم عطفهم ورعايتهم ولذا كان هؤلاء يفخرون دائما بهذه النشأة عندما يصبحون رجالا، مهما علا قدرهم .

وينبغى أن ندرك بأن كل ملك كان يشمل بعطفه - إلى جانب أفراد أسرته عدد من الأقارب يميزهم لقب « قريب الملك » أو « المعروف لدى الملك » ، ولايخلو الأمر من وجود أدعياء حملوا هذا اللقب ، ولذا كان أقرباء الملك الحقيقيين يميزون أنفسهم بلقب « قريب حقيقى للملك »

ويمكننا أن نتصور أن الملوك وخاصة فى أقدم العصور كانوا لايسندون أكبر وظائف الدولة إلا إلى من يعيشون على مقربة منهم ومن يتوخون فيهم الإخلاص والحكمة ، ولذا لانستبعد أن الوزراء ورؤساء الكهنة كانوا من بين الأمراء الملكيين أو من أقرباء الملك ، ويجىء هؤلاء فى مركزهم الاجتماعى بعد ملك البلاد وأسرته بالطبع - وكان سراة القوم والنبلاء كثيرا ما يحملون ألقابا شرفية كانت لاتمنح صاحبها الحق فى القيام بأعباء وظيفية وإن كانت فى معناها تدل على أعمال معينة ، إلا أن ذلك لم يكن ليقصد به إلا إظهار ما لحاملها من حظوة لدى الملك وتتيح له أن يظهر فى معيته ، ومع كل يمكننا أن نتخيل أن هذا الإجراء كان وسيلة فعالة لمراقبة هؤلاء بإبقائهم على مقربة من القصر .

أما حكام الأقاليم فكانوا يمثلون طبقة خاصة ويجمعون من السلطات مثلما يجمع الملوك فى نطاق الأقاليم التى يحكمونها ، غير أنهم كانوا دون

شك أدنى مرتبة من الوزراء إلا إذا ارتبطوا برباط المصاهرة أو النسب مع البيت المالك نفسه .

وفيما عدا هؤلاء الذين أسلفنا ذكرهم جميعا لانكاد نتبين من طبقات المجتمع الباقية سوى طائفة الموظفين الذين كان المجال أمامهم مفتوحا للترقى إلى أرقى المناصب والارتفاع بمكانتهم الاجتماعية ـ ولانكاد نتبين من الآثار شيئا يستحق الذكر من الطبقات الاجتماعية الأخرى إلا أن من الممكن أن نتخيل أن هؤلاء كانوا يمثلون على الترتيب مهرة الصناع والفنانين ثم الكادحين من أبناء الشعب وهم التجار والمزارعون والأجراء وأصحاب الحرف الوضيعة والرقيق ، على أنه يبدو أنه كان فى الإمكان تحرر بعض العبيد والوصول إلى مكانة اجتماعية مرموقة .

المسكن

لا يمكننا ـ بالرغم من تقدم الكشوف الأثرية فى مصر ـ أن نكون فكرة واضحة عن أقدم المنازل التى وجدت فيها لأن هذه كانت من مواد خفيفة دون شك وكانت باستمرار تقع فى نفس الأماكن المجاورة للمجرى ، فاذا ما درس منزل أو تهدم حل محله منزل جديد يبنى على أنقاض المنزل الأول ـ ولذا كان من العسير العثور على آثار لأقدم المنازل وإعطاء صورة مؤكدة عنها ومع ذلك يمكن أن نتصور أشكال تلك المنازل من الرسوم التى وردت عن أقدم المعابد المصرية لأنه من المعروف حسب رأى المحدثين أن المنزل المصرى هو أساس التصميم فى المعابد والمقابر ، ومما يؤيد ذلك أن المصرى نفسه كان يطلق على المعبد اسم بيت الاله وعلى

المقبرة بيت الروح أو المنزل الأبدى فكلاهما إذن صمم على غرار المنازل التى أقيمت للأحياء .

وأقدم أنواع المعـــابد كانت عبارة عن أكواخ من الألياف المضفورة ومن سيقان البردى وغيرها من النباتات المماثلة ، ولا شك أن المنازل كانت على مثالها ـ وقد استبدلت هذه فى العصور التاريخية بل ومنذ ما قبل الأسرات بمنازل من الطمى كما يستدل على ذلك من نموذج من الطين شكل (٨) وجد فى إحدى مقابر الوجه القبلى وهو يمثل المنزل فى



شكل (٨) : نموذج من الطين لمنزل من عصر ما قبل الأسرات

هيئة متوازى مستطيلات مائل الجدران الى الداخل وكان إطار الباب من الخشب والعارضة الاسطوانية التى تربط القائمتين من الخشب أيضا وبالحائط الخلفى للمنزل نافذتان عاليتان متقاربتان تثبت فيهما عوارض قصيرة من الخشب .

وقد سبقت الاشارة بأننا لم نعثر على مدن مصرية كاملة إلا فى حالات نادرة وشاذة وقد بنيت هذه المدن لأغراض خاصة وفى عصور خاصة ثم أهملت وهجرت بعد سكنها بفترة قصيرة فأدى ذلك إلى طمرها بالرمال وأتيحت الفرصة لحفظها ، ومن أمثلة هذه مدينة كاهون التى ترجع إلى الدولة الوسطى ـ وهذه المدينة (شأنها فى ذلك شأن مثيلتها أخيتاتون «تل العمارنة » التى بنيت فى عهد اخناتون) بنيت دفعة واحدة ، أى أنها لم تنمو بالتدريج فهى مدينة مصطنعة ولذا بقى تخطيطها سليما فى جملته وعلى ذلك أمكن للأثريين الذين قاموا بالحفر فيها أن يستكملوا النقص فى بعض المنازل التى تهدمت واستطاعوا أن يكونوا فكرة صحيحة عن شكل المنازل فيها.

وتبلغ مساحة مدينة كاهون حسب الأبحاث الأثرية التى تمت فيها ٣٥٠ × ٤٠٠ متر مربع تقريبا ويحيط بها سور من اللبن به فتحتان أحداهما جنوبية غربية والثانية شمالية شرقية وتنقسم هذه المدينة إلى قسمين: أحدهما صغير خاص بمنازل العمال والآخر كبير كان يقطنه الملك وبعض النبلاء وكبار موظفى البلاط وهو مقر الحكومة أيضا .

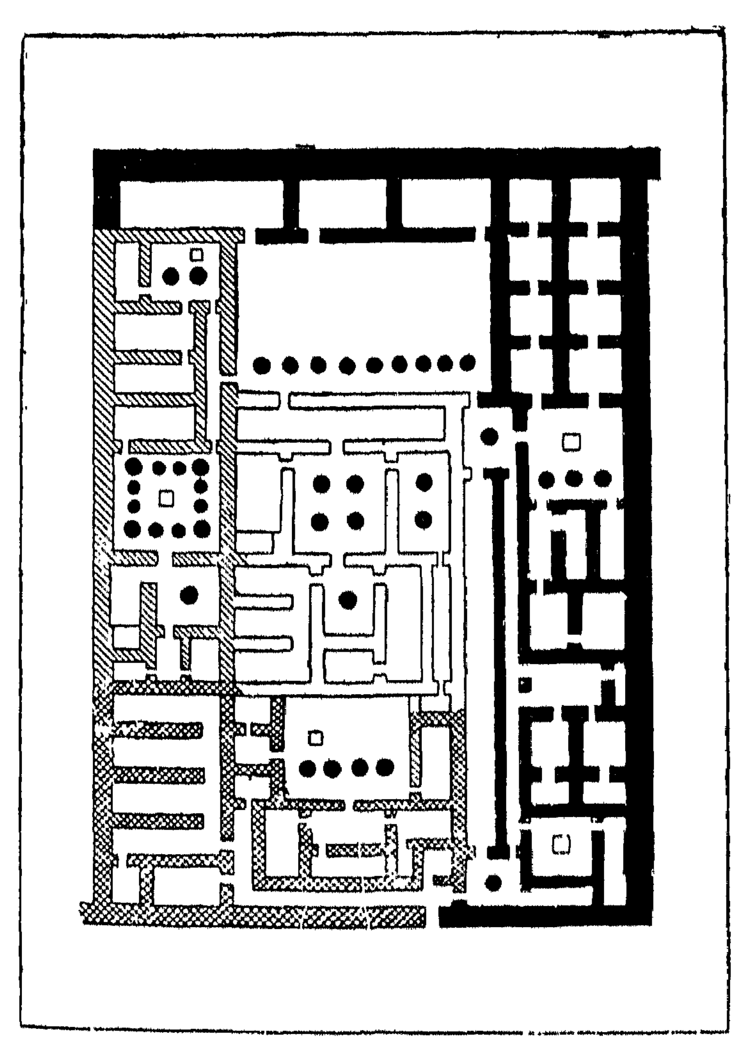
ومنازل العمال غاية فى التواضع ويشترك كل منزلين فى حائطها الخلفى أما القسم الكبير من المدينة فيقع فى الجانب الشرقى منها وينفصل عن القسم السابق بجدار عريض يمتد بطول المدينة ، وهذا القسم كان يشغل

نحو ثلاثة أرباع المدينة ونصفه على الأقل كان خاصا بالملك وكبار موظفى البلاط والحكومة ، وهو يتألف من عشرة أو أحد عشر منزلا فى حجم القسم الخاص بالعمال ويفصل كل بيتين حائط مشترك وإلى جنوب تلك المنازل الكبيرة كانت توجد منازل صغيرة أشبه بالفيلات وهى خاصة بالنبلاء وإن كان بعض هذه المنازل الصغيرة كبير الحجم متعدد الحجرات ومنها ما يضم نحو سبعين قسما بين غرفة ودهليز شكل (٩) .

وأهم الأجزاء الرئيسية فى أى منزل من منازل النبلاء هى : المدخل وحجرتين للبواب ودهليز يتفرع إلى فرعين أحدهما يتجه إلى بيت الرجال والآخر يتجه إلى قسم الحريم .

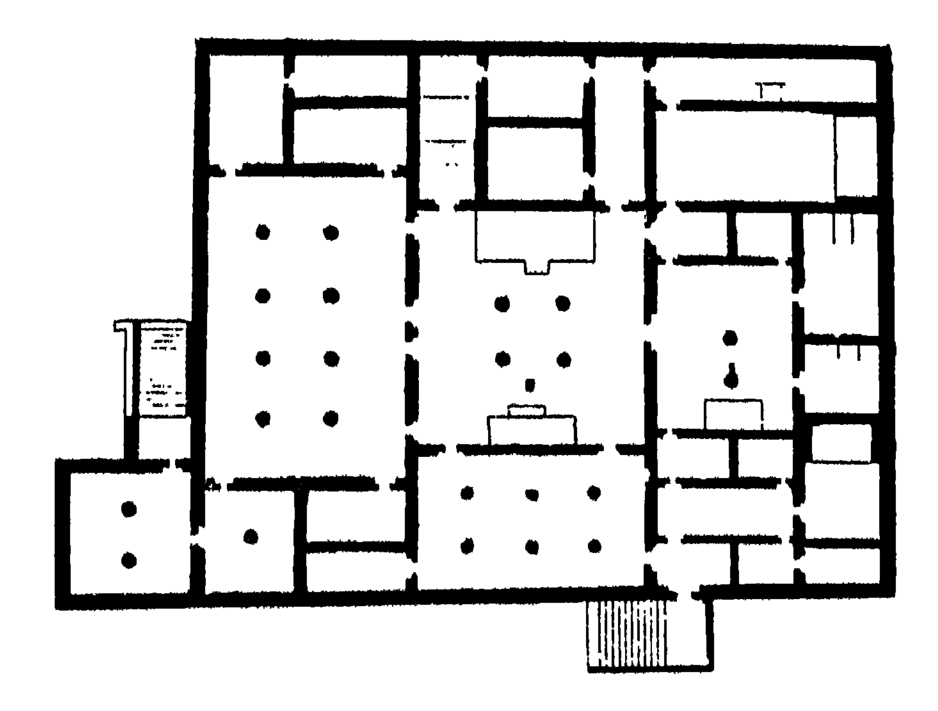
أما منازل العمال والطبقات الدنيا من الشعب فكانت كما ذكرنا بسيطة متواضعة . وهى على العموم تتألف من ردهة تحيط بها بعض غرف وكانت أحيانا تتكون من طابقين .

أما فى الدولة الحديثة فأحسن الأمثلة للمنازل فيها تلك التى وجدت فى تل العمارنة وهى كذلك على نوعين : منازل لأفراد الشعب عبارة عن غرفة رئيسية فى الوسط تبعدها ردهات تفصلها وتخفيها عن أنظار الداخلين وفيها سلم يؤدى إلى السطح ولها غرفتان خلفيتان كما توجد بها أحيانا غرفة للاستحمام ـ أما منازل السادة فكانت أشبه بالدوار فى الريف المصرى الحالى ، فبعد المدخل الرئيسى يوجد فناء ومن هذا يصعد سلم إلى قسم الرجال ويليه مباشرة بهو أعمدة أو مكان للاستقبال يجلس فيه صاحب الدار وبجوار هذا الجزء توجد غرفة للطعام ومن هذه يفتح باب إلى حجرة أخرى للاستقبال وهى صغيرة نسبيا ويلى هذه سلم يؤدى إلى الدور العلوى أيضا حيث يوجد القسم الخاص بالسيدات .



شكل (٩) : رسم تخطيطي لمنزل من كاهون

وحول حجرات الاستقبال توجد المخازن وبعض الحجرات الخاصة بموظفي الدار ودورات للمياه وكذلك توجد بعض الحظائر - والفناء الامامي للدار ينفتح في حديقة كبرى مجاورة للمنزل قد يكون لها مدخل خاص آخر وفي بعض الأحيان يوجد بها مسجد خاص - شكل (١٠) ، وكانت



شكل (١٠) : رسم تخطيطى لمنزل من العمارنة

الأبواب والنوافذ فى هذه الدور قليلة العدد عادة والنوافذ صغيرة المساحة وترتسع إلى قرب السطح وكانت الجدران تزين فى كثير من الأحيان وبعض المنازل يطلى من الخارج .

وكانت هذه المنازل تزود بأثاث كاف من أسرة ومساند رأس ووسائد وكراسى وغالبا ما كان هذا الأثاث دقيــق الصناعة مزخرف بمختلف الزخارف وخاصة فى عصر الدولة الحديثة بل وابتداء من أواخر عهد الدولة الوسطى كان الأثاث يطعم بالاصداف والاخشاب الثمينة وبعض الاحجار الكريمة وشبه الكريمة ، وبعد أن ازدادت الصلة بشمال السودان

كان الاثاث يطعم بالعاج والآبنوس وتطورت أشكال موائد الطعام والاوانى . وظهرت أشكال كثيرة لقدور المشروبات وقواعدها وربما كانت هذه منقولة عن طرز آسيوية كما زينت صناديق حفظ الملابس بالنقوش والرسوم المختلفة التى تمثل مناظر الصيد والحروب وغيرها وما زال أثر ذلك يطالعنا فى العصور الحديثة حيث نجد مثل هذه الصناديق فى الريف المصرى الآن، وغالبا ما كانت جدران المنازل تغطى بستر من الحصير كذلك وجدت مواقد للفحم للتدفئة وكثر استعمال المصابيح وتعددت أشكالها وأشكال قواعدها كما وجدت أدوات للاغتسال ولسائر الاغراض الاخرى .

وكانت هذه الدور تزود بأماكن مخصصة للطبخ وأماكن لمختلف الصناعات والاعمال المنزلية ، وهذه الاعمال لا تقتصر على الاعمال البسيطة التى نزاولها فى منازلنا فى الوقت الحاضر بل كانت متعددة ومعقدة فكانت كل دار أشبه بمصانع صغيرة متعددة تجتمع تحت سقف واحد ولكل من هذه عماله المختصين والى جانب هؤلاء موظفين اداريين وعمال للشئون المنزلية مثل البستانيين والطباخين والخدم والكتاب والحرس . أما طوائف الصناع الذين كانوا يعملون فى المنازل فمن أهمهم صناع الجعة والخبازين وصناع الأوانى الفخارية والنجارين وغيرهم ، ولايفوتنا أن نذكر هنا بأن المائدة المصرية كانت معقدة تعددت فيها أنواع الأطعمة بل وتعددت أنواع الصنف الواحد منها مثل الخبز وكانت الحفلات والمآدب غاية فى البذخ والإسراف مما يدل على اهتمام المصرى بطعامه اهتماما بالغا كما كان يميل إلى التأنق فيه والعناية به فى معظم أطوار حياته فلا تكاد تخلو مناظر الحفلات والموائد من تمثيل الزهور وكثيرا ما كانت ترتب فى شكل بهيج .

ودراسة المنازل المصرية تدل على أن المصرى عامة وصل الى أقصى ما يمكن الوصول اليه فى سبيل تهيئة مسكنه لراحته وراحة عائلته كما كان يتوخى فى تصميمه أن يحقق أغراضه الصحية والاجتماعية .

« الملابس والزينه »

يبدو أن الإنسان فى البداية كان يتخذ من الجلد رداء يغطى جسمه وفى ذلك كان يستوى الرجال والنساء - وقد ظل الجلد مستعملا بعد ذلك فى عصر الدولة القديمة ولكنه أصبح قاصرا على فئة خاصة هى فئة الكهنة التى استعملت جلد الفهد كزى تقليدى دينى فوق نقبة بسيطة فى كل العصور الفرعونيه .

وأقدم لباس للرجال كان عبارة عن حزام حول الوسط يشد إليه مايشبه الجعبة أو الكيس لستر العورة - بعد ذلك ظهرت النقبة القصيرة البسيطة وهى تشبه قطعة القماش (الفوطة) التى يلفها بعض الصيادين أحيانا فى بحيرة المنزلة حول وسطهم وتصل إلى الركبة تقريبا وهى تعرف فى مصر القديمة باسم « شنديت » (شكل ٧) - وتكاد تكون هذه من أول ما استعمل من الملابس فهى من عصر مبكر جدا ، بل ويخيل إلينا أنها أستعملت منذ أن عرف الانسان النسيج وهى تعد الأساس الذى قامت عليه جميع الأزياء الخاصة بالرجال فى العصور التالية وأقدم الرسوم الدالة عليها تصورها فى هيئة خطوط تتدلى من الحزام وتتعامد عليه أى أنها فى هذا تذكر بألياف النخيل أو السمار أى أنها تشبه زى السكان الأصليين فى جزر هاواى .

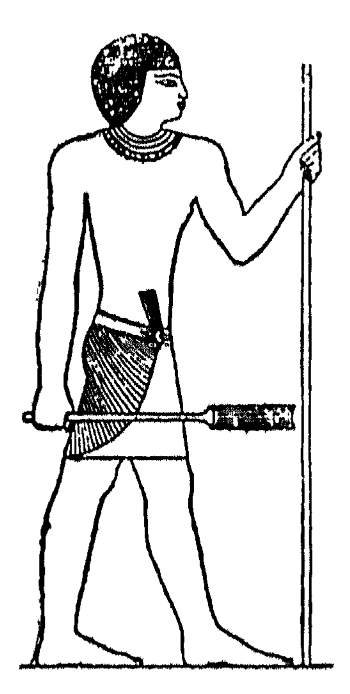
ثم أصبحت هذه النقبة بيضاء مستطيلة الشكل تثبت حول الوسط

بحزام وتترك الركبة عارية غير مغطاه وقد أصبحت جعبة العورة غير ضرورية ولكنها ظلت لباسا تقليديا يتزى به الملك وظلت كذلك حتى نهاية العصور الفرعونية تقريبا ـ كذلك كان هذا الكيس يمثل فى تماثيل بعض الآلهة ونقوشها ، وربما كان هذا الزى (أى الجعبة) من أصل أفريقى فبعض القبائل ما زالت تستعمله حتى زمننا هذا ـ وعند الصيد كان يضاف إلى الإزار القصير (الشنديت) ذيل حيوان ، وقد انقرض هذا هو الآخر إلا من ملابس الملك .

وظلت النقبة الضيقة الكتانية هى القطعة الرئيسية فى لباس المصرى فى الأسرة الأولى والدولة القديمة وكان يلبسها أفراد من ذوى المراكز السامية حتى عهد الأسرة الرابعة ثم اقتصر استعمالها بعد ذلك على الكتبه والخدم والفلاحين ـ فالمعروف أن التطور يبدأ أولا فى البيت الملكى ثم يقلده النبلاء وهؤلاء يقلدهم من يتلوهم من الطبقات بعد أن يفقد الشكل الجديد رونقه عند الطبقة الخاصة وبعد ذلك يصبح شائعا فى الطبقات الدنيا بينما يتخذ العظماء زيا جديداً آخر وهكذا ـ ولم يخرج المصرى عما جرى به العرف أيضا من مراعاة لظروف السن فما كان ملائما للمسنين لم يكن مناسبا لحديثى السن .

ومنذ عهد خفرع اتخذ النبلاء نقبة أوسع وأطول عن ذى قبل وتغالوا فى ذلك من أواخر الأسرة الخامسة وأصبحت النقبة بارزة من الأمام ثم قصروا فى شكلها فى عصر الأسرة السادسة ولكنها كانت أحيانا تزخرف بخرز منظوم ، إلا أن ذلك لم يدم طويلا إذ بطل إستعمال الخرز بانتهاء عصر الدولة القديمة ـ وفى نفس الوقت تقريبا أى فى نهاية عصر الدولة القديمة

بدأ الخدم والفلاحون يستعملون نقبة أوسع مقلدين بذلك خدم العظماء الذين كانوا قد بدأوا محاكاة أسيادهم ـ وفى أحوال نادرة استعمل الرجال ملابس طويلة سابغة تشبه القميص وتصل إلى قرب القدمين وغالبا ماكان يظهر بها الموتى الممثلين أمام موائد القرابين ، ويبدو أن هذا الزى كان يستعمله المسنون فى نهاية حياتهم أى فى الفترة التى تسبق وفاتهم ـ وكان هناك رداء للاحتفالات يلبسه العظماء وهو من النوع القديم القصير وربما كان أوسع منه قليلا ويتميز عنه بشكله الأنيق المستدير من الأمام وفيه يبرز طرف رفيع من النقبة من تحت الحزام مرتفعا إلى أعلى أو شريط خاص ويزين بمشبك أنيق أو أنشوطة جميلة يكتب عليه أحيانا إسم صاحبه ويزخرف الجزء الخلفى من الإزار بقطعة من القماش الذهبى ذى الثنايا (شكل ١١)



شكل (١١) : الزى التقليدى فى الدولة القديمة

وفى حالات خاصة من الدولة القديمة والوسطى (الكهنة فقط) كان رداء الحفلات يكمل بجلد فهد يضعونه على أكتافهم بحيث تنحدر رأس ومخالب الحيوان الأمامية إلى أسفل وتربط المخالب الخلفية بشرائط فوق الكتف - وقد ظلت هذه الملابس دون تغيير فى عهد الفوضى الأول اللهم إلا أن النقبة استطالت إلى منتصف الساق .

وفى الدولة الوسطى زخرف الطرف الأعلى للنقبة بحاشية مطرزة أو بعمل ثنايا أنيقة فى الجزء الأمامى منها - وكان النبلاء يتخذون نقبة خفيفة شفافة فلبسوا تحتها نقبة داخلية ، أما العامة فقد اقتصروا على نقبة سميكة - وقد عاصر النقبة المزدوجة التى كان يرتديها النبلاء معطف قصير أو ثوب ضيق محبوك مخطط يغطى الجسم من الرأس إلى القدمين .

ولم يطرأ على ذلك تغيير يذكر فيما بين الدولتين الوسطى والحديثة غير أن الأشكال الفاخرة أخذت تطغى على الأشكال البسيطة ولم يحتفظ بالنقبة البسيطة إلا الكهنة . وفى عهد الدولة الحديثة بالذات أدى احتكاك مصر بالبلاد الآسيوية فى الشمال إلى تغيرات سريعة فى الزى ، فمنذ عهد حتشبسوت غطى الجزء الأعلى من الجسم بقميص قصير فضفاض ولكنها تغيرت من جيل لآخر - ففى بداية النصف الثانى من الأسرة الثامنة عشرة استطالت النقبة الخارجية من الخلف وقصرت من الامام وفى نهاية الأسرة كانت النقبة الداخلية طويلة فضفاضة أما الخارجية فكانت ترفع وهى منتفخة فتظهر من تحتها النقبة الداخلية وكان الجزء الأمامى منها ينتهى بثنايا سميكة وتتدلى أطراف الحزام كشرائط طويلة .

وقد أخذت النقبة الخارجية تقل فى الأهمية فى الاحتفالات حتى

أصبحت قطعة من القماش تلف حول الخصر بينما أصبحت النقبة الداخلية فضفاضة ذات ثنايا ، وتعددت أشكال هذه النقبة الداخلية فكانت أحيانا قصيرة من الامام وتغطى الساقين من الخلف وفى أحيان أخرى كانت تتخذ شكل النقبة القديمة أو كانت تلف حول الخصر مرتين أو ثلاث .

أما الجزء الذى يغطى الجسم من أعلى فظل ثابتا تقريبا ولكنه فى عصر الأسرة التاسعة عشر أصبح أكثر اتساعا ـ أما المعطف الذى كان يغطى الظهر ويربط من الأمام على الصدر فقد ظل مستعملا كذلك وظهر الملوك فيه كثيراً ولم يلبسه الأشخاص إلا فى الحفلات .

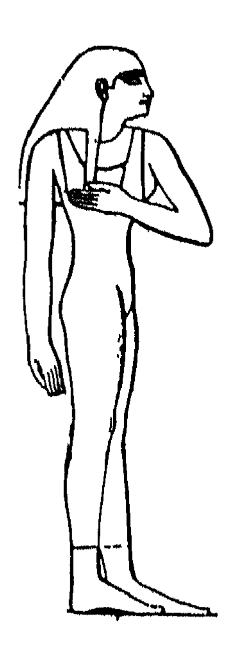
وقد وجدت ملابس خاصة ترتديها طبقات معينة من الشعب أو ملابس تدل على وظيفة لابسها وهذه وجدت فى جميع العصور فالملك مثلا كان يلبس فى الحفلات التذكارية قميصا قصيراً ونقبة ملكية لها ذيل حيوان ثم أصبحت هذه النقبة فى متناول طبقات عدة فيما بين الدولتين الوسطى والحديثة حتى أنها فى عهد الأسرة الثامنة عشرة أصبحت زيا شائعا بين المشرفين على كل أنواع الإدارات فى المناسبات الرسمية فقط وإن كانوا أحيانا يلبسون زيا مشابها ، ومع كل فحينما قضت ظروف التجديد باستعمال نقبة خارجية فإنهم كانوا يرفعون هذه ويربطونها حتى تظهر النقبة الداخلية من تحتها إشارة إلى مكانتهم ـ ومن علامات الشرف أيضا أن النبلاء فى الدولتين القديمة والوسطى كانوا يلفون قطعة من القماش الأبيض ، حول صدورهم أو يعلقونها متدلية فوق الكتف فى شكل شريط عريض، وقد أصبح هذا الشريط زيا مميزا للكاهن المرتل فى جميع العصور كما أن الشريط الضيق الذى كان يمسكه النبلاء بين أصابعهم ورؤساء الأعمال لم يقتصر استعماله على عصر من العصور .

وابتداء من أواخر الدولة الوسطى كان كبير القضاء والوزير يلبس ثوبا محبوكا ينحدر من الصدر حتى يبلغ القدمين يثبته شريط من الخلف عند الرقبة .

وفى عهـــد إخناتون زين الملك وزوجة أرديتهما بخرطوش - آتون أما ملابس صغار الموظفين فقد كانت متأخرة فى تطورها ، ففى عهد الدولة الوسطى لبس هؤلاء النقبة القصيرة التى كانت مستعملة فى الدولة القديمة وفى الدولة الحديثة لبسوا النقبة الأطول الخاصة بالدولة الوسطى - كذلك كان أفراد الطبقات الدنيا من الشعب كالفلاحين والرعاة والعمال يلبسون نقبة قصيرة عادية غير مضمومه الأطراف تكفى أية حركة لفتحها من الأمام وكانت من الكتان عادة وفى عهد الدوله الحديثة بالذات كان العمال يلبسون فوقها شبكة من الجلد وكثيراً ماكانت ترقع فى الأماكن المستهلكة فوق الساقين ، أما الرعاة والملاحين فكانوا يلبسون نقبة بدائية من الشرائط المضفورة وكان الصيادون ومن يعملون فى الماء يلبسون حزاما تتدلى منه أشرطة أو هدب من الأمام - وكثيراً ماكان الصياد والراعى والجزار يضطر إلى خلع زيه أثناء العمل فيعمل وهو عارى تماما .

« ملابس النساء »

كانت ملابس النساء بسيطة متماثلة منذ أقدم العصور حتى الأسرة الثامنة عشرة فلا فرق يذكر بين الفلاحة والإبنة الملكية إذ كان الثوب بسيطا خاليا من الثنايا وكان من الضيق بحيث يبرز تقاطيع الجسم بوضوح (شكل ١٢) ، وكان ينحدر من الثدى ويمتد حتى يبلغ العقبين ويثبت بشريطين يمران فوق الكتفين - وهذان الشريطان وحدهما هما اللذان خضعا



شكل (١٢) : الزى العادى للمرأة

للتطور فأحيانا كانا يمتدان فى وضع رأسى من القميص إلى الكتفين وأحيانا يتقاربان من بعضها فى ميل عن الاتجاه الرأسى وفى أحيان أخرى كانا يتقاطعان - وقديما كان هذان الشريطان يغطيان الثديين تماما ثم أصبحا يضيقان أو يختفيان تماما فيبرز الثديان .

وكان القميص عادة من لون واحد لا زخرف فيه إلا عند حافته العليا إذ كانت هذه تطرز أو تزخرف أحيانا ، وكانت الملابس المحلاة بالرسوم نادرة - وهذه الزخارف كانت عبارة عن خطوط أفقية أو رأسية أو تنحصر فى زخرف ريشى أو زهيرات تنتشر فوق الأثداء والاغلب أن تطرح شبكة من حبات الخرز فوق القميص البسيط الذى كان أحيانا يلبس

فوق الثوب العادى (كما هو ممثل فى تمثال نفرت زوجة كبير الكهنة رع حتب الموجود في المتحف المصري) .

وفى الأسرة الثامنة عشرة أى حوالى الوقت الذى تغير فيه زى الرجال تغير كذلك زى النساء وأصبح من قطعتين أيضا الأولى قميص ضيق يغطى الكتف اليسرى بينما تكون الكتف اليمنى عارية، أما الرداء الثانى وهو الخارجى فكان فضفاضا ويربط من الأمام فوق الثدى وكلاهما من الكتان الشفاف ترى تقاسيم الجسم خلالها وإن كان بعض الأثريين يرى بأن تمثيل تقاسيم الجسم لايرجع إلى شفافية الأثواب وإنما يرجع إلى غرض دينى يحتم اظهار سائر أعضاء الجسم ، أى لم يكن هذان الثوبان شفافان ـ وكان الرداء الخارجى يوشى عند حاشيته بتطريز وينسدل باستقامة عند الوقوف ، ثم تطور هذا اللباس كثيرا بحيث يصعب تتبع تفصيلاته وإن كان من المؤكد أن الرداء الخارجى فى عصرى الاسرتين التاسعة عشرة والعشرين قد تطور فأصبح ينسدل فوق الذراع اليسرى أما الذراع اليمنى فكانت طليقة . وحوالى نهاية الاسرة العشرين أضيف قميص سميك إلى الثوب الداخلى الذى كان على الارجح نصف شفاف علاوة على الرداء الخارجى المفتوح ـ كذلك وجد زى آخر مختلف عن الطراز المألوف وهو يتألف من ثوب طويل له أكمام ومعطف قصير مزركش بهداب يوضع فوق الاكتاف ومن الامام ينسدل رداء يشبه النقبة ولكنه يمتد من الرقبـــة الى القدمين .

أما الخادمات فقد كن يلبسن قميصا يصل إلى الرقبة وله كان قصيران أحيانا ولم يكن هناك فارق يذكر بين ملابس الخادمات والطبقات الدنيا

وبين السيدات من نفس العصر وهذه الثياب عموما لم تكن لتسمح إلا بحركات محدودة ولذا كن يحتفظن بنقبة صغيرة عند العمل ويتجردن عما عدا ذلك وهو ما كانت تفضله الراقصات اللائى كن يزين النقبة بكل ألوان الزخارف ، أما صغار الوصيفات فكن عاريات تماما إلا من حزام ضيق مطرز حول الخصر .

ونظراً لانتشار استخدام الكتان فى صنع الملابس حرص المصريون على نظافته وتفننوا فيها وأدى هذا إلى وجود فئة خاصة للقيام بهـــذا العمل، ومن الألقاب التى كان يفخر بها بعضهم لقب «رئيس الغسالين للملك» و«رئيس المبيضين للملابس الملكية» ولاندرى شيئا عن المادة التى استعملت لإزالة الاوساخ أو التى تعادل الصابون ولكننا نعرف من الرسوم والنقوش الأثرية أن المصرى كان يضرب ملابسه بعصى قصيره ويعصرها ويضمخها بالدهون والزيوت العطرية ـ ولا نعرف شيئا يذكر عن حياكة الثياب ولكن يبدو أن هذه المهنة كانت شاقة عسيرة كان يقوم بها الرجال فى الغالب وإن قامت النساء أحيانا بمثل هذا العمل كما يفهم ذلك من قصة الاخوين مثلا ولم يحدث هذا إلا فى نطاق محدود .

النعال :

كان المصريون كثيراً ما يمثلون حفاة لا فارق بين فلاح وملك، شيخ وشاب ، رجل وامرأة . وفى الدولة القديمة لم تستعمل المرأة النعال إلا نادراً كذلك كان الرجال لا يلبسونها إلا عند الضرورة القصوى أو للنزهة وكان الخدم والعمال الزراعيين يستعملون النعال فى الحقول للسير على الجذور

والقش - وكان العظماء يخلعون النعال كلما أمكن ذلك ويعطونهـا لحامل النعال -

وفى الدولة الوسطى كان عدم امتلاك النعال من علامات الفقر كما يتضح ذلك مما ورد فى تنبؤات الحكيم ايبو-ور . وفى الدولة الحديثة أصبح استعمالها عاما ومع ذلك ظل المعتاد أن يخلع النعل فى حضرة الشخص الأعلى مقاما .

والنعال عامة كانت فى جوهرها من شكل واحد فالجزء الأسفل كان من البردى أو سعف النخيل أو الجلد وفى هذه الحالة الأخيرة كان يخاط نعل آخر من سعف النخيل فوق الجلد - وللنعل سيران من المادة المصنوع منها أحدهما يمر على أعلى القدم والآخر يوضع بين الاصبع الكبير والاصبع التـالى له ويتصل بمنتصف السير الأول ، وأحيانا يمر سير ثالث حول القدم من الخلف يحكم تثبيت النعل . ومن نهاية الاسرة الثامنة عشرة فضلوا نوعا طرفه مدبب إلى أعلى أى أن هذه النعال كانت تشبه بعض الصنادل التى تلبس فى الصيف .

ب) الزينة :

١ ـ **الشعر :** لم يكن قص الشعر وحلاقة الذقن معروفين فى العصر الباكر وقد استمر عامة الشعب والرعاة والفلاحين أحيانا فى عدم قص الشعر والحلاقة خلال الدولة القديمة أيضا - ولا يدل ذلك على عدم اهتمام القوم بزينة الرأس بل إن ما عثر عليه فى مقابر العصور السحيقة ومن أوائل عصر الاسرات يدل على مدى اهتمامهم بهذه الزينة حيث وجدت الامشاط ودبابيس الشعر فى تلك المقابر .

ويبدو أن عادة قص الشعر بدأت عند الطبقات الراقية منذ الأسرة الاولى أى حوالى نفس العصر الذى وجدت فيه النقبة الكتانية التى حلت محل النقبة المضفورة ـ وفى بعض الاحيان كان الشعر يقص بحيث يبقى قصيراً فوق الرأس فلا تحتاج إلى غطاء ، وفى أحيان أخرى كان الشعر يزال ولذا كان لابد من لبس قلنسوة ضيقة محبوكة لحماية الرأس ضد أشعة الشمس ، كما كان من المعتاد كذلك استعمال شعر مستعار .

وفى الدولة القديمة تميز نوعان من الشعر المستعار : أحدهما يشبه الشعر المجعد القصير والآخر يشبه الجدائل الطويلة وكان الأول لا يترك من الجبهة ظاهراً إلا القليل فى أغلب الأحيان ويغطى الآذان ، وكان الثانى يمتد خلف العنق وخصلاته تتخذ أشكالا هندسية أى تكون فى هيئة المثلث أو المربع أو فى شكل مستدير ويكون قص الشعر على الجبهة فى هذه الحالة مستقيما أو مستديرا .

وفى الدولة الوسطى لم يظهر تغير يذكر أما فى الدولة الحديثة فقد حدثت تطورات كثيرة أهمها شكلين : الاول قصير مقصوص من الخلف باستدارة والثانى طويل مهدل من الامام على الكتفين ، وكان كلاهما يرسل أو يجعد بطريقة جذابة أو يكون فى جدائل صغيرة حول الوجه وتكون الجدائل حلزونيـــة فى الشعر الطـويل بحيث يبرز الفرق بين شعر الرأس المستقيم وبين تلك الجدائل ـ وقد استمر هذا حتى عصر الاسرة العشرين .

ولم يقتصر تزيين الشعر على الرجال وحدهم بل سارت النساء على هذا المنوال أيضا ففى عصر الدولة القديمة كانت تعلو رؤوسهن كسرة

كبيرة من الشعر المرسل الذى يتدلى حتى الثديين فى مجموعتين وهى فى الغالب من الشعر المستعار - وكانت كل الطبقات تتساوى فى هذا وإن كانت الخادمات والبنات أحيانا لايستعملن هذا الشعر المستعار ، وفى بعض الاحيان كانت السيدات العظيمات تستعملن شعراً مستعاراً قصيراً ينتهى عند الأكتاف ويظهر من تحته الشعر الطبيعى المفروق وهو يغطى الجبهة إلى قرب العينين .

وقد ظل الشعر المستعار فى الدولة الوسطى كما كان فى الدولة القديمة إلا أن هدابا جميلا أضيف فى نهاية مجموعتى الشعر ، وكانت بعض السيدات الراقيات يقصصن شعرهن الطبيعى القصير فى جدائل صغيرة تشبه الشعر المستعار الذى استعمله الرجال فى الدولة القديمه .

وفى الأسرة الثامنة عشرة ظهرت أشكال جديدة فى أغطية الرأس حيث أبطلت الغدائر الطويلة التى كانت من الأمام وأصبح الشعر طليقا مرسلا على الظهر والكتفين أو على الظهر فقط وكان ينسدل فى بساطة أو يضفر فى جدائل أو يجعد وتكون هذه الجدائل منمقة أو فى جدائل قصيرة وكانت أطراف الضفائر العديدة أو الجدائل تجمع أو تجدل معا بحيث يكون الشعر الثقيل بمثابة حاشية ذات هداب ، وقد وردت بعض النقوش التى تمثل عازفات للموسيقى وشعرهن المجعد يحيط بالوجه وتتدلى من خلف الرأس بضعة جدائل فى ضفيرة متصلة بها . وبعد الاسرة العشرين رجعت الطريقة القديمة وإن غالت السيدات فى طول الشعر المستعار وطرق تصفيفه .

ويبدو أن عملية التصفيف كانت تستغرق وقتا وجهدا كبيرين فمن

النقوش نرى بعض السيدات وأمامهن وصيفاتهن يقمن بتصفيف شعورهن بينما تقدم لهن المشروبات ليستعينوا بها على قضاء الوقت الطويل الذى تستغرقه هذه العملية (شكل ١٣) التى يمكن مقارنتهـــا بعملية تصفيف الشعر لدى سيدات شمال السودان الآن ، وقد عثر على عدد كبير من الأمشاط المختلفة الاشكال والاحجام من عصور مصر المختلفة وكانت هذه الامشاط تزخرف بمختلف النقوش .



شكل (١٣) : سيدة يصفف لها شعرها
وتتناول مشروبا

٢ — اللحية

حلقت اللحية من عصر الأسرات الاولى وربما كان حب المصرى للنظافة هو الدافع لذلك ، وفى الدولة القديمة ظل الشارب الرفيع ممثلا فى تماثيلها ونقوشها ولكنه اختفى بعد ذلك ولم تمثل اللحية المدببة إلا فى زى الملوك فقط

وهى لحية صناعية عبارة عن جديلة صغيرة مضفورة جيداً لتبدو كلحية طبيعية وقد قلد العظماء فى الدولة القديمة الملوك واستمر ذلك فى الدولة الوسطى . أما فى الدولة الحديثة فقد أصبحت اللحية نادرة وفى مناسبات معينة وكانت لحية الشخص العادى أصغر من لحية الملك ـ وكان للآلهة لحية خاصة وهى أطول من لحى البشر وتجدل على شكل ضفيرة تثنى عند طرفهـــا المدبب إلى أعلى .

٣ ـ الحلى

استعمل العقود الرجال والنساء على السواء وذلك منذ أقدم العصور، وكانت العقود من أحجار كريمة ونصف كريمة ومن القاشانى وتنظم فى خيوط بسيطة بها تميمة فى الوسط غير أن هنـاك عقوداً عريضة تتألف من عدة صفوف .تنتظم خرزاتها بأشكال بديعة وتنتهى خلف العنق بثقل على هيئة شرابة (شكل ١٠)، أما الأساور فكانت من القرن والعظم والعاج والنحاس ووجدت كذلك أساور من الصوان ولكنها كانت دقيقة فى أول الأمر ثم حلت محلها أساور أعرض ، وكان يلبسها الرجال والنساء على السواء حول الذراع والساعد ـ وكانت الخلاخيل شائعة بين النساء أما الأقراط فكانت إما فى هيئة حلقات تثبت فى الأذن وبها فجوة تضغط على شحمتها أو فى صورة معلقات تثبت بدبوس ينفذ فى شحمة الأذن ، ويبـــدو أن الحلقات جاءت إلى مصر من الجنوب أما المعلقات فجاءت من آسيا ـ وقد امتنع الرجال عن استعمالها (فيما عدا الملوك) ابتداء من عصر الأسرة التاسعة عشرة .

أما الخواتم فقد استعملت فى الحلى منذ أقدم العصور وتعددت أشكالها، وفى العصور المتأخرة أصبح ينقش عليها اسم صاحبها ولقبه أو تنقش عليها رسوم يقصد منها التوفيق والفأل الحسن وقد ينقش عليها أحيانا اسم الملك الحاكم .

ولم يستعمل المصريون (باستثناء الأسرة المالكة) غطاءً للرأس سوى القلنسوة الضيقة المحبوكة التى سبقت الاشارة اليها عند الكلام على الشعر المستعار وكان الملك يضع تيجانا مختلفة أو عصابة للرأس ذات ثنايا .

أما الملكات فكن منذ بدء الدولة الحديثة يضعن الحلية القديمة التى تتزى بها الآلهات وهى على شكل أنثى العقاب التى تنشر جناحيها على الرأس - وكانت نساء العامة فى الحفلات تكتفى بإكليل أو شريط مزركش فى أطرافه مشبك نفيس يشده ويربطه .

وكان الأولاد فى جميع العصور تقريبا لايمتازون بأى زى خاص للرأس ولكن ابتداء من الدولة الحديثة كانوا يضعون عصابة ذات ربطة عريضة حلت محل خصلة الشعر الجانبية، كذلك كانوا يضعون أحيانا بعض التيجان البسيطة إذا كانوا من الأمراء .

وقد امتاز الرجال على النساء بالعصى والصولجانات وكان لكل عصا ولكل صولجان اسم خاص ودلالة خاصة وتستخدم فى مناسبات معينة .
وقد أبطل استعمال الأصباغ والوشم منذ الدولة القديمة ، ولكن ظلت للعطور أهميتها البالغة حتى أن المصرى كان يرى ضرورة تزويد الميت بسبعة أنواع من العطور المقدسة ونوعين من الأصباغ - وكان الكحل يستخدم منذ

أقدم العصور وهو من نوعين أخضر وأسود ووجدت لوحات الصحن التى كان يسحق عليها فى المقابر منذ ما قبل الأسرات ، ولم يقتصر استعمال المساحيق على الكحل فقط بل كانت هناك مساحيق أخرى استعملت ابتداء من عهد الدولة الحديثة ربما كان استعمالهـــا قد نقل إلى مصر من الخارج . ومن رسوم الحفلات والمآدب نتبين مقدار عناية القوم بزينتهم ، وكثيرا ما تساءل الأثريون عن كنه المخروط الذى كان يمثل فوق رؤوس السيدات وقد اتضح أنه عبارة عن كومة من مواد عطرية دهنية . وكانت المرآة من أهم الأدوات التى عثر عليها فى المقابر حيث أعتنى المصرى باقتنائها وتعددت أشكالها وكانت تصنع من البرنز المصقول ، أما مقبضها فقد اختلفت المادة التى صنع منها وتعددت أشكاله .

الإدارة

من الملاحظ فى مصر القديمة أن إسناد المناصب الإدارية للأشخاص كان كثيراً ما يرتبط بوضعهم الإجتماعى ، على أنه كان من الممكن فى بعض الأحيان أن يرتقى بعض الأشخاص فى مكانتهم الاجتماعية عند توليهم بعض المهام الإدارية .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن الملك كان صاحب السلطة العليـــا فى البلاد ، وأنه مصدر السلطات جميعا وقصره المحور الذى تدور حوله كل شئون الدولة ـ كما بينا أنه كان يستعين ببعض من يتوسم فيهم القدرة والاخلاص من بين المحيطين به ، ولا يتأتى له أو لهؤلاء أن يهيمنوا

على كل صغيرة وكبيرة فى جميـــع أنحاء البلاد إلا إذا كان لهم أعوان يشرفون على مختلف الشئون فى أقصى البلاد ودانيها .

ومن البديهى أن كل بقعة من البلاد كانت تخضع لنفوذ أقوى الرجال فيها ، وهؤلاء بدورهم يخضعون لنفوذ أقوى رجال الاقليم الذى يتضمن بقعتهم وهكذا مما أدى إلى ظهور عدد من الموسرين ذوى النفوذ فى مختلف الأنحاء ، وانقسمت مصر منذ عصور سحيقة إلى ٤٢ إقليما : عشرين منهـا فى الشمال ، ٢٢ فى الجنوب ـ ونظراً لأن الملك كان من الناحية النظرية على الأقل يمتلك البلاد جميعها فإنه كان يمنح إمارة الأقاليم إلى المقربين من رجاله ، ولو أن الكثيرين كانوا من المنعة والنفوذ بحيث لا يمكن إحلال غيرهم فى مكانهم إلا أن هذا التقليد ظل متبعا واستمرت إدارة الاقليم تعد منحة من الملك ـ ولا شك فى أن بعض ذوى الخطوة استطاعوا أن يمنحوا إمارة الأقاليم التى كان يتولاها آباؤهم وما لبثت هذه أن أصبحت تنتقل فى أسرات معينة استقرت فى أقاليمها وعملت على زيادة نفوذها حتى أصبح حاكم الإقليم يعتبر نفسه « سيداً مستقـــلا » فى إقليمه .

ولذا أصبح من الضرورى أن يسند الملك مهمة الإشراف على حكام الأقاليم إلى من يثق فيهم ، ولذا نجد أن لقب « حاكم الوجه القبلى » أخذ يظهر منذ منتصف الأسرة الخامسة تقريبا أما لقب « حاكم الوجه البحرى » فلم يعثر على ما يثبت وجوده إلا من عصر الدولة الوسطى ـ ومن الملاحظ أن حاكم الوجه القبلى كان يعاونه « العظماء العشرة للجنوب » الذين لم يكونوا فى درجة واحدة من المكانة بل ولم يكن لبعضهم نصيب

فى الإدارة إلا إسميا فقط ، ولم يكن لهؤلاء نظراء فى الوجه البحرى[1] إذ يبدو أن الحاجة لم تكن لتدعو إلى وجود أمثالهم هناك ، ومع هذا كان هؤلاء (فى الوجه القبلى) يعدون فى نفس الوقت قضاة ورؤساء فى المناطق التابعة لهم كما أنهم كانوا بمثابة مساعدين للملك ، وبهذه الصفة حملوا ألقاب مختلفة منها « مستشار الأوامر الملكية » ، « المشرف على المهام الملكية » « المشرف على الكتبة الملكيين » إلى غير ذلك من الألقاب التى تدل على المهام التى كانوا يضطلعون بها ـ ومنذ عهد الأسرة الخامسة كان يرأس هؤلاء « حاكم الوجه القبلى » ، إلا أن هذا اللقب سرعان ما فقد قيمته العملية وأصبح من ألقاب الشرف ـ ولم يعثر على نظيره « حاكم الوجه البحرى » إلا فى عصر الدولة الوسطى وربما كان ذلك لأن إدارة الدلتا ظلت منذ أقدم العصور حتى الدولة القديمة على الأقل تختلف بعض الشىء عن إدارة الوجه القبلى .

ويلاحظ أن كل إقليم من الأقاليم التى انقسمت إليها البلاد كانت له محاكمه وجيشه ومخازن غلاله ـ أى أن الحكم فى عهد الدولة القديمة كان لامركزيا إلا فيما يختص بالخزينة العامة للدولة ، ففى كل إقليم أملاك للخزينة العامة يشرف عليها مندوبها فى الإقليم وإلى جانب هذه توجد فى العاصمة إدارة مالية مركزية للدولة ذات اختصاصات متعددة وينجز أعمالها طوائف مختلفة من الموظفين فمنهم الكتبة ورؤسائهم ومنهم المشرفون ومنهم أمناء الخزانة ، ويظهر أن هؤلاء الأخيرين كان يوكل إليهم أمر

---

(١) أرمان ـ رانكه ، المرجع السابق ص ٨٠ـ٨٢ .

الحصول على المعادن والأحجار الثمينة ولذا كان من بين اختصاصاتهم الإشراف على البعثات التى ترسل للحصول على هذه الموارد فكان منهم من يلقب «المشرف على المشاة» ، « المشرف على الأسلحة » ، « المشرف على حركات السفن »، « المشرف على عمال الإله » ، « المشرف على مهام الملك » ... الخ .

وإلى جانب هذه الإدارة المركزية وجدت إدارات أخرى مركزية تتولى شئون ذات أهمية خاصة ـ مثل الإدارة المركزية للاشراف على الأراضى الزراعية ومخازن الغلال والادارة العليا للقضاء ، وكان المشرف على كل من هذه الإدارات يحاول أن يوسع من اختصاصه بضم إدارات تحت إشرافه ، وفى كل من هذه الإدارات يوجد عدد من الكتبة يشرف عليهم « رؤساء كتبة » و « مشرفين » ـ وكانت بعض هذه الإدارات فى الدولة القديمة غالبا ما تتبع الوزير مباشرة .

وقد ازداد عدد الوظائف فى العاصمة وتنوعت ألقاب الموظفين إلى أن أصبح بعضها ذو طابع رنان يرضى غرور من يشغل مثل هذه الوظائف فمثلا أصبح قائد الجيش « مستشار جميع البلاد الأجنبية » ورئيس كهنة عين شمس « مستشار السماء » وهكذا .

وعندما يكون البيت المالك قويا كان حاكم الإقليم يعد موظفا إداريا تحت إشراف البلاط ولذا كان يدفن فى جبانة العاصمة على مقربة من مقبرة الملك شأنه فى ذلك شأن موظفى البلاط الآخرين ـ أما عند ضعف الملوك فإن حاكم الإقليم كان يشعر بالاستقلال ويعتبر إقليمه دويلة صغيرة تملكها أسرته، وكثيراً ما كان حاكم الإقليم يحاول توسيع رقعة إقليمه على حساب الأقاليم الأخرى ويبنى كل منهم مقبرته فى عاصمة إقليمه

ويؤرخ الحوادث بحسب تاريخ حكمه لإقليمه - أى أن حكومة الدولة أصبحت حكومة إقطاعية ، وما أن استقر الأمر لمؤسس الأسرة الثانية عشرة إلا وأخذ يثبت الحدود بين الأقاليم المختلفة ويقرب إليه الأمراء الأقوياء ويعزل غير المخلصين ويعين بدلا منهم حكاما يثق فيهم ، وهكذا أصبح أمراء الأقاليم فى الدولة الوسطى أمراء إقطاع مخلصين للملك - وكانت حكومة الإقليم صورة مصغرة لحكومة الدولة فكان الإقليم خزانته التى كان أمينها يشرف على كل من يعملون من أجل الأمير فى مختلف المهن والصناعات ، وإلى جانب هذا الموظف الكبير يوجد جيش من المشرفين والكتبة مثل « المشرف على الجند » ، « المشرف على مخازن الغلال » ، « المشرف على الماشية » ، « المشرف على الصحراء » ، وغيرهم ، كما كان حاكم الإقليم يتشبه بالفرعون فيحيط نفسه بحاشيته ويجعل بلاطه صورة مصغرة للبلاط الملكى - ومع هذا ظلت الإدارات المركزية التى عرفت منذ الدولة القديمة دون تغيير ولها فروعها الثابتة فى الأقاليم بل وزادت أهمية عما سبق ، ومن هذه « إدارة الخزينة » و « الأملاك الملكية » ... الخ .

وقد تغيرت الحال فى عهد الدولة الحديثة ، فقد بدأ الملوك منذ أن طردوا الهكسوس يسيطرون على البلاد واعتبروا كل ما حرروه بقوة السلاح ملكا خاصا - وانتهى أمر معظم أمراء الأقاليم والنبلاء وأصبحت كل الأملاك ملكا للفرعون فيما عدا أملاك الكهنة ، ونظراً للدور العظيم الذى قام به الجيش فى حرب الاستقلال فقد ازدادت مكانة أفراده حتى أصبحت له القوة الرئيسية فى الدولة وأصبح يتدخل فى كثير من شئونها ، ولكن ما لبثت قوة الكهنة أن أخذت فى الازدياد هى الأخرى

حتى فازوا بقدر كبير من السلطة أيضا ـ وهكذا نجد أن كبار رجال الجيش من جهة وكبار الكهنة من جهة أخرى قد تمكنوا تدريجيا من انتزاع الكثير من الامتيازات التي كان يتمتع بها الأمراء والنبلاء من قبل .

ونظراً لتوسع الدولة الحديثة وكثرة فتوحاتها زاد عدد الاجانب فى مصر سواء جاءوا كأسرى حرب أو كرقيق أو كجنود مرتزقة ـ وقد استخدم هؤلاء فى مختلف الأعمال وارتفع شأن الكثير منهم وزاد نفوذهم وأصبح منهم عدد وفير من كبار موظفى الدولة ووصل بعضهم إلى مكانة سامية فى بلاط الفرعون نفسه .

وقد أدى هذا التوسع أيضا ـ إلى جانب ما حدث من تطور اجتماعى ـ إلى تنوع الإدارات وضخامة عدد الموظفين وكان أكثر هؤلاء عــــدداً بالطبع هم الكتبة الذين كانوا يسجلون كل شيء ، فما من وارد إلى المخازن وما من منصرف يمكن إثباته إلا إذا كان مسجلا ـ كما كانت كل العقود والمعاملات الرسمية تسجل فى وثائق تحفظ فى إدارة السجلات وقد تعمل منها بعض النسخ أيضا ـ وكان كل موظف يحرص على مرضاة رؤسائه وعلى حسن معاملة زملائه له وإلا تعرض للكثير من المتاعب .

وكما هو الحال فى كل عصر كان بعض كبار الموظفين يميلون إلى جمع الكثير من الاختصاصات فى أيديهم ، وقد أدى ذلك إلى تمتعهم بالعديد من الألقاب بينما عجزوا عن الاضطلاع بمهام وظائفهم فاكتفوا بمباشرة شئون أهم هذه الوظائف تاركين بقية اختصاصاتهم لصغار الموظفين ، وبالتدريج فقدت هذه الألقاب دلالتها وأصبحت ألقابا جوفاء .

وكان يتبع كل إدارة من الإدارات عدد من العمال والصناع وهؤلاء كانوا ينقسمون إلى فرق لكل منها رئيس ، وقد وردت إشارات كثيرة يفهم منها أن العمال لم يكونوا دائما طائفة بائسة بل كانوا يحصلون على

مخصصات تسمح لهم بحياة غير عسيرة ، فكان منهم المتزوجون ومنهم من كان له بيته ومقبرته الخاصتين به وبعضهم كان على شيء من الثقافة . غير أننا نجد من بعض الإشارات الأخرى ما يفيد إلى أنهم كثيراً ما كانوا يتعرضون للاستغلال أو الأزمات بسبب تأخير صرف أجورهم ومخصصاتهم حتى أنهم كانوا يثورون فى بعض الأحيان ويضربون عن عملهم إلا إذا أجيبت مطالبهم كما حدث بين عمال المقابر فى عهد رعمسيس الثالث ، ومن هذا نرى أن هؤلاء العمال كانوا يتمتعون بقسط من الحرية لا يتوافر للأرقاء الذين كانوا غالبا من الأسرى والعبيد .

الـــديانـة

ليس من المغالاة فى شيء القول بأن دراسة الديانة المصرية تشمل فى الواقع نحو نصف علم المصريات ، وهى تستمد عناصرها الأولى من البيئة المصرية ، فالشعور بالولاء والحب أو الخوف والرهبة تجاه عنصر من عناصرها جعل المصرى يعتقد بقدرة ذلك العنصر ويقدر صفاته وبدأ يتصرف إزاءه بما يتخيل أنه يرضى ذلك العنصر أو يتجنب أذاه . وبالطبع كانت بعض هذه العناصر شائعة معروفة للجميع مثل الظواهر الطبيعية ، وهناك عناصر أخرى كانت تؤثر فى حياة الانسان اليومية وهى تختلف من إقليم إلى آخر وبين جماعة وأخرى . وقد وجد الإنسان أن العناصر الطبيعية كالشمس والقمر وغيرها بعيدة عنه ولم يعرف كيف يتقرب لها تقربا ماديا بينما كانت العناصر الأخرى المحيطة به أقرب منالا فتقرب منها ونسب نفسه إليها ومن ذلك نشأت الطواطم ، إذ كانت بعض الجماعات مثلا تقدر بعض مميزات حيوان أو نبات معين فتتخذه لها رمزاً وطوطما .

كذلك وجدت هذه الجماعات أن بعض الكائنات لها قدرة خارقة أو أنها كانت تتصف بالقدرة على الخلق أو الثبوت والدوام أو القضاء على غيرها من كائنات ، فرأت إحدى الجماعات أن الثور مثلا قادر على الإخصاب وإنتاج الذرية فقدسوه كما وجدت جماعة أخرى أن نوعا من الأشجار له صفة الثبوت والاستقرار فقدسوا هذا النوع من الشجر ورأت جماعة ثالثة بأن اللبؤة تمثل البطش والقوة فقدسوها وهكذا .

تطور التفكير الديني :

وجد المصرى القديم فى الكائنات المحلية صفات الخالق ولكنه لم يفكر فى كيفية الخلق بعــــد ـ ولم يكن هناك ما يمنع من تقديس الظواهر الطبيعية جنبا إلى جنب مع الكائنات المحلية كما أن انتصار جماعة من الجماعات على ما جاورها كان يعد بالتالى إنتصارا لمعبودها على معبود الجماعة المغلوبة ومع هذا كان يسمح لمعبود الجماعة المغلوبة بالبقاء كمظهر آخر للمعبود الأقوى أو كممثل لصفة من صفاته .

ويعد الانتقال من تمثيل المعبودات المحليـــــة فى صورة الحيوان أو بعض الكائنات الأخرى إلى تمثيلها فى صورة إنسانية تطورا كبيرا لم يصل إليه المصرى إلا بعد أن بلغ مرحلة معينة من الحضارة ، فبداية تحكم الإنسان وسيطرته على الحيوان والعالم المادى من حوله من جهة وبداية التقليل من شأن القوة الجسمانية من جهة أخرى جعل الانسان يقدر ما للبشر من مزايا فتخيل آلهته فى صورة إنسانية . ولكنه للتمييز بينها صار يصورها على هيئة الإنسان برأس يمثل رأس المعبود الأصلى أو برأس أضيفت اليه علامة مميزة لذلك المعبود ، فمثلا صور الإله آمون

فى هيئة آدمية برأس كبش وصور الإلهة حتحور برأس آدمية ولها قرون بقرة وهكذا .

وبالطبع كان تمثيل الآلهة فى هذه الهيئة الإنسانية مما ساعد على التفكير بأن هذه الآلهة لها من المشاعر ما يحاكى مشاعر البشر من حب وبغض ، وأن هذه الآلهة تحمى وتعطى وتعاقب وتأخذ وهكذا مما لايمكن التعبير عنه عند الحيوان أو الجماد . ومن جهة أخرى أعطيت لهذه الآلهة صفات تتعلق بالإنتاج والتناسل وبالخلق والموت ودفن الموتى ... الخ .

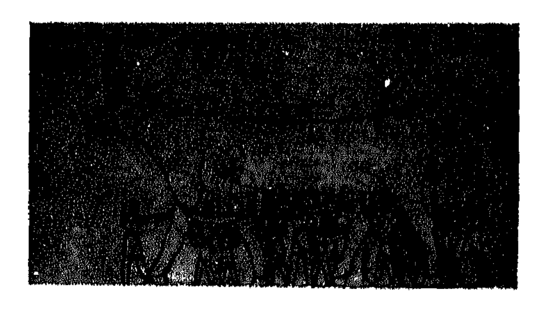
ولذا كانت بعض الآلهة من الذكور وبعضها من الإناث .. كذلك أعطيت الآلهة بعض المهام والأعمال الخاصة التى ظن المصرى أنها تقوم بها فضلا عن صفاتها الأصلية ، فمثلا كان الإله خنوم فضلا عن اعتباره الإله الذى يصور الأجنة فى الأرحام أو الإله الخالق كان يعتبر كذلك إله الماء النقى أو إله منابع النيل وكان أبو منجل رمز إله القمر تحوت يعد كذلك الإله العالم وكاتب الآلهة .

وقد تطورت الديانة من وقت لآخر وظهرت معتقدات جديدة ولكن (كما سبقت الاشارة) لم تختف المعبودات القديمة وكانت النتيجة أن تعقدت الديانة المصرية تعقيداً شديداً لاشتراك كثير من الآلهة فى صفات واحدة وإن اختلفت مدلولاتها .

وكان المصرى مسالما بطبعه وقد أثر ذلك فى ديانته فلم تتسم آلهته بصفات العنف أو حب سفك الدماء كما هو الحال بين آلهة الممالك الأخرى .

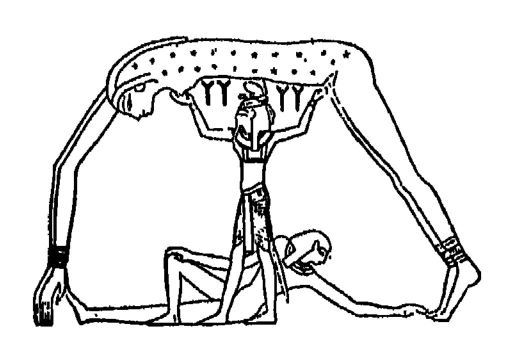
نشأة الأساطير :

سبقت الاشارة إلى أن المصرى قد تأثر فى ديانته بمظاهر البيئة التى عاش فيها واتخذ من عناصر هذه البيئة آلهة تميزت بصفات معينة، وكان يتخذ لهذه الآلهة نموذجا من الحيوان أو الجماد أو يقيم له التماثيل التى تقرب المعبود لإدراكه ـ أما فى حالة التفكير فى المعبودات التى يصعب عليه إدراكها فانه كثيراً ما كان يلجأ إلى الخيال ، فحينما قدس السماء مثلا تصورها على هيئة بطن بقرة عظيمة شكل (١٤) أو امرأة ترتكز بزوج



شكل (١٤) : إلهة السماء فى هيئة بقرة

من طرفيها على الأفق الشرقى بينما ترتكز بالزوج الآخر على الأفـــق الغربى ـ كما كان يتصور أحيانا أن أركانهـا قائمة فوق أربعة جبـال أو محمولة على أربعـــة أعمدة ، كذلك تصور الأرض فى هيئة رجل مستلق على ظهره (شكل ١٥) ، وهـكذا ذهب به الخيال بعيداً ـ ولـكنه فى خياله هذا كان يحاول تفسير الظاهرات الطبيعية بتفسيرات تتمشى مع ما يلمسه ويقع تحت حسه فى بيئته ـ ولذا فإنه حينما أراد تفسير ظهور الشمس يوميا ثم اختفائهـا تصور إله الشمس فى هيئة جعل (جعران) يدفع



شكل (١٥) : إلهة السماء فى هيئة امرأة
وإله الأرض كرجل مستلق على ظهره

أمامه ببيضته حيث ظن أن الجعل حيوان خنثى يضع بيضه بنفسه ، أى أنه كإله الشمس خالق نفسه بنفسه ـ وعلى هذا تصور إله الشمس كجعل كبير يخلق نفسه بنفسه لأنه يولد يوميا كل صباح فى الأفق الشرقى ويختفى مساء فى الأفق الغربى .

ولم يترك المصرى مظهراً من مظاهر الطبيعة التى أحاطت به دون أن يفكر فيه ويحاول تفسيره فلعب خياله دوراً خطيراً فى تفسير ما عجز عن إدراكه وتعقدت الصور التى نتجت عن هذا الخيال وتعددت التفسيرات واختلفت باختلاف المذاهب أو المفكرين ونشأت أساطير مشوهة عن كثير من الآلهة مما زاد فى صعوبة إدراك كنه الديانة المصرية .

كذلك أشرنا إلى أن المصرى قد اعتقد بأن من الآلهة ما هو مذكر ومنها ما هو مؤنث فأدى به ذلك إلى إدماج الآلهة فى أسر إلهية بتزاوج بعض تلك الآلهة التى ترتبط معا ببعض الروابط وهداه تفكيره إلى إلى إيجاد مجموعات أسرية تمثل الإله الأب والإلهة الزوجة والإله الابن، كذلك ربط هذه الآلهة بعضها بالبعض بعلاقات حسب الدور الذى يقوم

به الإله أو حسب وظيفته أو خصائصه، فمثلا كان الإله أوزوريس إلها خيراً تزوج من أخته إيزيس وكان شقيقه ست إلها شريراً وكان زوجا لشقيقتهما نفتيس وقد كاد لأخيه أزوريس وقتله واستطاعت شقيقتاه ايزيس ونفتيس (زوجة ست) أن تجمعا أشلاء أزوريس كما أمكن أن تعيد ايزيس الحياة إلى زوجها أزوريس فأنجب منها ولداً هو حورس، ولكنه فضل أن يترك هذا العالم ويعيش فى العالم الآخر ويحكمه بينما طالب ابنه حورس بحقه فى ملك مصر الذى اغتصبه عمه ست فكان الإله تحوت خير معين له على استرجاع حقه المسلوب منه .

ومن الآلهة من كانوا يعتبرون حماة لطوائف معينة من الناس اعتماداً على الخصائص التى امتازوا بها ولشهرتهم فى نواحى معينة ، فمثلا كان الإله تحوت يعتبر حاميا لطائفة الكتاب لما له من شهرة فى العلم والحكمة كما أن بتاح كان يعد حاميا للفنانين أما الأطباء فكانت الإلهة سخمت إلهة منف التى فى شكل اللبؤة راعية لهم ثم فى العصور المتأخرة حينما أله «امحتب» أصبح هذا إلها للاطباء وكانت سخمت فى نظرهم أما له كذلك كانت الإلهة ماعت التى تمثل الحق والصدق والعدالة تعد راعية للوزراء والقضاء وهكذا اتخذت كل طائفة من الطوائف المهنية حاميا أو راعيا من الآلهة كما كان عامة الشعب يتخذون فى الغالب معبودهم المحلى راعيا لهم .

ولا شك أن طائفة من العقلاء على الأقل اعتقدوا فى وجود إله خالق يسيطر على الكون بدليل أن بعض النصوص تشير إلى أن الإله كتعبير عام أو كإله واحد، ومن ذلك مثلا ما جاء فى بعضها بأن «ما يحدث هو أمر الله» ، ولكن كان لابد من تقريب صفات هذا الإله

العامة فاتخذت له صورة ترمز إلى أكثر صفـــاته وضوحا كما سبقت الاشارة إلى ذلك، وعلى هذا لم تكن الحيوانات أو التماثيل التى قدست لتقدس على أنها المعبود نفسه وإنما كانت كرمز لصفة معينة فى المعبود إلا أن العامة قد أخطأوا فهم المقصود من تلك الرموز وتعبدوا لها . والواقع أنه لا توجد عقلية مهما كانت بدائية تعتبر الحيوان أو الجماد أو حتى الانسان إلا صورة أو موضعا للقوة المقدسة أو الظـاهرة المقدسة التى تمثلهـا ، والمصرى شأنه فى ذلك شأن الشعوب الأخرى أراد أن يتقرب إلى تلك القوى المقدسة ووجد أن أحسن وسيلة هى اختيار ما يمثل تلك القـوة فى عالمه المادى، ولكن مع الأسف حدث ـ كما يحدث فى كل العصور ـ أن اتخذت الطوائف الدنيا من الشعب تلك التشبيهات بحرفيتها فعبدت الصورة المختارة نفسها من هذا العالم المادى .

وبالطبع كان كل إقليم يحاول جاهداً أن يجعل لإلهه المحلى دوراً هاما فحاك حوله الأساطير التى تبرز هذه الأهمية وعوملت الآلهة فى هذه الأساطير كالانسان فصارت محببة لدى الشعب ، وخضع الدين الرسمى لهذه الأساطير لما لها من سيطرة على النفوس .

ولا ريب فى أن المصرى كان يتساءل عن كنه المخلوقات والظواهر الطبيعية التى من حوله وعن كيفية نشأتها ووجودها وبهـذا تدرج إلى التفكير فى مشكلة الخلق ـ ثم تساءل عن المشكلة الكبرى وهى مشكلة نشأة العالم المحيط به ، ولم يطل به التفكير كثيراً حتى اهتدى بخياله إلى تكوين فكرة اتخذ عناصرها من البيئة المحيطه به فتمثل فى الفيضان ماء أزليـا أطلق عليه اسم «نون» ، وقد دعاه إلى هذا التفكير أن الفيضان تستمر مياهه

فترة من الوقت ثم تبرز من تحتها الأرض تدريجيا وفى هذه ينبت الزرع وتدب الحياة ، وعلى ذلك ظن بأن العالم فى بدء تكوينه نشأ من ماء أزلى برزت فيه قمة تل مزدهر ثم ظهرت المعالم الأولى للحياة فوق هذا التل ، أو أن زهرة من اللوتس ظهرت فوق سطح هذا الماء وعلى هذه برز الكائن الأول فى هيئــة طائر أو كائن هو الذى خلق السموات والأرض والآلهة الأخرى - وقد اختلفت الأساطير المتصلة بنشأة الخليقة وبالطبع كان كل إقليم يحاول أن يجعل من إلهه المحلى الإله المهم فى نشأة هذه الخليقة أو خالقها - وكانت أشهر المدارس التى اتجهت إلى ذلك هى مدارس هليوبوليس ومنف والأشمونين.

مدرسة هليوبوليس :

تذكر هذه المدرسة أن الإله آتوم تكون فى المياه الأزلية نون قبل أن تتكون السماء والأرض أو الدودة والعلقة ولم يجد مكانا يقف فيه فوقف فوق تل ثم صعد فوق حجر « بن بن » فى هليوبوليس - ووجد نفسه وحيداً ففكر فى خلق زملاء له وحمل من نفسه ثم تفل أو أمنى وأنجب شو وتفنوت اللذان أنجبا جب ونوت وأنجب هذان الأخيران بدورهما أزوريس وست ونفتيس وأيزيس ، وقد عرف هؤلاء الآلهة التسعة باسم التاسوع الكبير - وعلى حسب هذه النظرية لم يكن حوريس وتحوت ومعات وأنوبيس ضمن هذا التاسوع وإن كان لهم دور هام فى الأساطير المتعلقة به .

وقد تغالت المدن الكبيرة فى محاكاتها لهليوبوليس وكونت مجموعة إلهية على رأسها إلهها المحلى فكانت هذه المجاميع تتجاوز التسعة فى

كثير من الأحيان فمثلا كانت مجموعة طيبة الإلهية تتألف من ١٥ إلها، كما أن بعض المدن الأخرى لم تجد من الالهة ما يناسبها فجعلت مجموعاتها تتكون من آلهة تتكرر أسماؤها فمثلا كانت مجموعة أبيدوس تتألف من إلهين باسم خنوم وإله باسم تحوت وإلهين باسم أوب وات وهكذا .

والغريب أن كل مجموعـــة من هذه المجاميع كانت تعامل كإله واحد .

مدرسة منف :

أعتبرت منف إلهها بتاح أجدر من آتوم كما أنها ذكرت بأن بتاح خلق من نفسه ثمانية آلهة أخرى سميت كلها باسم بتاح (وإن كان البشر قد أطلقوا عليها أسماء أخرى) وذلك لتكون مع بتاح الأصلى تاسوعا يعادل تاسوع هليوبوليس وقد أرجعت هذه المدرسة كل آلهة مصر إلى بتاح والإله الثانى بتاح نون والإلهة الثالثة (بتاح نونيت) فى هذا التاسوع هما اللذان أنجبا آتوم أى أن آتوم وهو أعظم آلهة هليوبوليس قد اعتبر فى هذه المدرسة أقل شأنا من الإله بتاح كما أن شفتى آتوم وأسنانه التى تفل بها شو وتفنوت قد استعارهما من بتاح، كذلك اعتبر القلب واللسان من أطياف بتاح وهذان كانا يمثلان تحوت وحورس وقد خلق اللسان ، (أى تحوت) كل شىء بواسطة الكلمة .

وقد تأثرت المعابد المختلفة بتعاليم منف فاعتبرت الآلهة التى قدست فيها أعضاء للإله الرئيس فى المعبد .

ولما كان لأوزير مركز خطير فى اللاهوت المصرى فإن تعاليم منف جعلت منه تابعا من أتباع بتاح وجعلت منف الميدان الذى جرت فيه

أم الأحداث التى تعرض لها هذا الإله ففيها توجه أزوريس إلى العالم السفلى بعد أن انتشلته إيزيس ونفتيس وفيها حاول جب (والد أزوريس) أن يصلح بين حورس وست وهكذا ...

مدرسة الاشمونين

سميت هذه المدينة كذلك لأن مجموعة الآلهة فيها تتكون من ثمانية لاتسعة كالمعتاد ، وتعتبر هذه المدرسة . من تخريج منف لأن أول الكائنات فيها هو الإله تاتنن خالق الآلهة الثمانية وخالق البيضة التى خرج منها إله الشمس فهو جد (والد آباء) الآلهة جميعا ـ أما الآلهة الثمانية فكانوا عبارة عن آلهة تمثل أربعة ذكور فى هيئة الضفادع وأربعة أناث فى هيئة الحيات وكل زوج منها يمثل مظهرا من المظاهر التى كانت تسود العالم فى البداية ، فالزوج الأول نون ونونيت يمثل الفراغ اللانهائى والزوج الثانى هو حوح وحوحيت ويمثل الماء الأزلى والزوج الثالث كوك وكوكيت يمثل الظلمة والزوج الرابع نياو وزوجته نيات أو آمون وأمونيت ويمثل الخفاء .

ولانعرف الكثير عن دقائق تعاليم الأشمونين لقلة ما تخلف عنها ولكننا نعلم الكثير عن أثر هذه التعاليم فى مدينة أخرى نقلت عنها فى عصور تالية ، وهذه المدينة هى طيبة التى تشير الأساطير إلى أن بعض آلهة الأشمونين تسربت إليها ، ومن هذه الآلهة آمون كما استقرت تعاليم كثيرة من تعاليم الأشمونين فى هذه المدينة أيضا إلا أن طيبة لم تكتف بآلهة ثمانية بل إن محاكاتها لمدرسة منف جعلتها تضع إلها قبل هؤلاء الثمانية ولم يكن هناك بد من أن يكون آمون هو ذلك الإله الذى خلق

بقية التاسوع مع أنه أحد الآلهة الثمانية فى الأصل ، وعلى ذلك تخيلوا إلها فى هيئة ثعبان أطلقوا عليه إسم (كم ات اف) أى ، ذلك الذى أكمل زمانه ، أو بمعنى آخر هو الذى انتهى أمره ، وهذا الإله أنجب إلها آخر اسمه « إير ـ تا » أى (خالق الأرض) وهذا بدوره خلق الثمانية آلهة الأولى التى منها نشأت الخليقة ـ ومع كل فقد كان « كم ات اف » فى نظرهم هو « آمون العظيم » معبود الأقصر وخالق الأرض وإله التناسل .

طبيعة الآلهة

نظر المصرى لآلهته على أنها كائنات أعلى قدرا من الانسان ولاتختلف عنه كثيراً ـ والواقع أن المصرى قسم سكان العالم إلى ثلاثة أقسام هى الناس والآلهة والموتى . فالأسطورة التى قيلت عن نشأة الخليقة تبعا لتعاليم طيبة أى التى تأثرت بمدرسة الأشمونين تذكر أن الدنيا كانت (حينما خلقت الآلهة الثمانية) لاتزال فى ظلام وأن هذه الآلهة الثمانية اندفعت مع تيار المياه الأزلى إلى الأشمونين (أو وصلت إلى منــف أو إلى هليوبوليس) وهناك خلقت الشمس ثم رجعت إلى طيبة ولما أتمت صنعها بخلق العالم انتهى أمرها ولحقت بالثعبان « كم ات اف » فى عالم الموتى بطيبة حيث استراحوا فى مكان معبد صغير بمدينة هابو وكان آمون يزورهم كل عشرة أيام . فلم تكن فكرة موت الإله غريبة لدى المصرى بل كانت شيئا مألوفا فى تفكيره وعلى ذلك اختلط أزوريس « بكم ات اف » كما أصبح آمون هو روح أزوريس أى أن جسد آمون فى الدنيا السفلى كان أزوريس وكان آمون هو الروح الذى يزور هذا الجسد ، أى أنه كان كإله الشمس عند تجواله فى الدنيا السفلى أثناء الليل حيث يزور جسده أزوريس .

واعتبار آمون روح أزوريس يجعلنا نتعرض لعقيدة المصرى بأن الانسان كانت له روح « با » وقرين « كا » وبالطبع كان للإله ما كان للبشر وكانت روح الإله تسكن تمثاله الذى فى معبده ولكنها كانت كذلك طليقة تتجول فى أماكن أخرى وخاصة فى السماء - كما أنها كانت تسكن الحيوان المقدس فى معبده ، فكان أبيس مثلا روح بتاح كذلك كان فى عصر متأخر روح أزوريس أيضا ، وكان الطائر الخرافى « فينكس » روح « سبك » أما « تيس منديس » فكان يمثل أرواح أربعة آلهة هى « رع وأزوريس وجب وشو » - ثم تطور الأمر فأصبح للإله الواحد أرواح مختلفة وقرائن متعددة فللإله رع مثلا سبعة أرواح و ١٤ قرين ولم يمكن التعرف على هذه الأرواح السبعة وإنما عرفت الأربعة عشر ١٤ قرينا التى كانت من الذكور ولها ما يماثلها من الأناث وهذه القرائن هى التى تتمثل فى قوى السحر والبهاء والنصر والقوة والنمو والطعام والاستمرار والنظر والسمع والشبع . . . . الخ . كذلك تشير بعض الأساطير إلى أن إله الشمس كانت له أربعة رؤوس على هيئة رأس الكبش وتقوم كلها على عنق واحد وكانت له ٧٧٧ أذن ومئات الألوف من القرون ، ورؤوس الكباش الأربعة كانت تمثل آلهة الرياح الأربعة إلى آخر ما جاء فى تلك الخرافات - كذلك كانت القرائن الأربعة عشر مع إناثها تنشر الخير مثل النيل والحقل ... الخ . وبما أن الملك كان ذو صفات إلهية فقد كانت له أرواح كثيرة كذلك كانت له قرائن مختلفة، وبعض الأفراد كانت لهم أيضا أكثر من قرين فى حالات خاصة - وكان يكنى عن عزيمة الملك أو سلطته القوية بتعبير « أرواح الملك » اذا ما ترجمنا هذا التعبير حرفيا، كما كان يكنى عن آلهة المدينة بأرواح المدينة .

ولما كثر الخلط وأصبح عدد من الآلهة يسمى باسم واحد فقد حاول المصرى أن يميز بينها فمثلا كانت هناك سخمت محبوبة بتاح وسخمت سيدة الصحراء العربية وسخمت فى بيت باسقت - ولم يتسنى ذلك فى كثير من الحالات إذ أننا نطالع فى النصوص ما يفيد وجود مئات من الآلهات حتحور كما أن الآلهة ذات الاسم الواحد كثيراً ما اختلطت بعضها ببعض فمثلا حدث الخلط بين حورس أدفو « قرص الشمس المجنح » وبين حورس ابن إيزيس . ويستدل من أسطورة حورس ادفو على أنه كان يصحب الإله رع هو وتحوت فى سفره من الحدود النوبية إلى مصر وقد انتصر على أعداء رع ، وكان تحوت يسمى الأماكن والبلدان التى مروا بها - كذلك تدل الأساطير على أن الآلهة كانوا ملوكا على مصر العليا والسفلى وعرف الناس مدة حكمهم ، وقد ذكرتهم بردية تورين مبتدئة بالاله جب ثم أوزير وست وحورس ثم تحوت ومعات ومن بعدهم آلهة أقل شأنا وفى آخر القائمة ذكر « خدم حورس » وكانوا عشرة وهم الملوك الذين حكموا فى العصور الأولى .

الحوادث التاريخية وأثرها

لاشك فى أن الأحداث التاريخية كانت ذات أثر كبير فى تطور الديانة المصرية فإذا مانظرنا إلى ألقاب الملوك وإلى القصص الدينى والاساطير المختلفة فإننا نجد مايشير إلى ذلك إذ يذكر مانيثون بأن مصر كان يحكمها قبل العصور التاريخية حكام من الآلهة أى أسرة الهية « بتاح ورع وشو وجب وأوزير وست وحوريس » وبعد ذلك حكمت أسرة من أشباه الآلهة ثم عشرة ملوك من الارواح أو من أتباع حوريس حكموا قبل

مينا ، وتشير بردية تورين إلى نفس الترتيب تقريبا .

وتدل الشواهد الأثرية على أن اتباع حوريس وصلوا إلى وادى النيل عن طريق وادى الحامات واستقروا بالقرب من قفط حيث كان إلهها المحلى مين ، وكان المعبود الوطنى فى مصر كلها هو الإله ست — وكان حوريس وأتباعه محـــاربين متفوقين بما لديهم من أسلحة فلم يمكثوا طويلا فى قفط أو ما جاورها فتحركوا شمالا حتى استقروا فى غرب الدلتا، ثم وفدت عليهم أقوام من شرق الدلتا يدينون بنفس الدين ويعرفون الأسلحة المعدنية وقد أطلق عليهم أصحاب الرمح فاتصلوا بأتباع الاله حوريس الذين كانوا فى غرب الدلتا حتى أصبح هذا الاله الها لغرب الدلتا كله .

ثم جاءت بعد ذلك هجرة من غرب آسيا تحت قيادة أوزير الذى كان على مايحتمل ملكا عبد ثم أله فيما بعد وقد استقر هؤلاء فى شرق الدلتا، ولم يكونوا من المحاربين بل كانوا رعاة ورجال سلم وسرعان ما اندمجوا فى أهل البلاد الذين رأوا فى أوزيريس صورة للاله الطيب وأخا لإلههم ست ، كما أن أوزيريس وقومه كانوا يميلون إلى أهل شمال الدلتا وإلهته إيزيس — وفى نفس الوقت جاءت كذلك مجموعة أخرى من المهاجرين اخترقت الدلتا واستقرت عند رأسها فى هليوبوليس — وكان رع هو قائدهم وإلههم ويحتمل أنهم جاءوا من الشمال الشرقى للبحر المتوسط أو من جزره وكانوا على جانب من الثقافة والفهم ومعظمهم من التجار وأصحاب الحرف .

وقد وجد حوريس وأتباعه أمورا مشتركة بينهم وبين أوزير وأتباعه وقد نتج عن ذلك أن غرب الدلتا تحت قيادة حوريس وشمال الدلتا تحت قيادة إيزيس ارتبطوا برباط ود وسلام مع أوزير وأتباعه وكذلك مع

ست ، ورأى المتعبدون فى إيزيس زوجة لأوزير وحوريس ابن لها وست شقيق لأوزير : وبما أن حوريس الذى اعتبر إلها للسماء كان يعترف بالإله ست فإن أتباع رع كذلك اعترفوا بالإله الوطنى ست ولكنهم لم يعترفوا لأوزير فى أول الامر، وبعد أن استقرت الامور بين رع وأوزير وأخذت وحدتها فى الظهور بدأ يظهر لون من التنافس بين ست وأوزير - » فبفضل النشاط الحربى لحوريس وطرق أوزير السلبية وثقافة رع تكونت مملكة فى مصر السفلى بقيادة حوريس وكانت عاصمتها بوتو ، وكان طابع هذه المملكة سلبيا وفقا لما تميز به أوزير الذى نشط أتباعه فى التبشير له حتى امتد نفوذه إلى أبيدوس أو ما بعدها ويعد هذا أول اتحاد بين الدلتا والصعيد .

ولكن سرعان ما غضب ست وأتباعه ولم يكن أوزير قائداً حربيا فتراجع إلى بوزيريس موطنه فى الدلتا وذبح هناك، ولكن أتباعه اعتقدوا أنه بعث ليحكم العالم السفلى وأصبحت إيزيس وحيدة ، أما رع فقد وقف موقف المحايد - إلا أن هذه الامور استثارت حوريس الذى كان قائداً وملكا على مصر السفلى فأراد أن ينتقم لأبيه ونشب صراع جديد بين حوريس وست وفى هذه المرة تغلب حوريس وغزا الصعيد فاضطر ست وأتباعه إلى التراجع أعلى النهر ثم إلى الواحات والصحارى، وقد يدل هذا على التوحيد الثانى الذى حدث من الدلتا أيضا قبل التوحيد الذى قام به مينا ويعد بداية عصر الأسرات .

وفي نفس الوقت جاء وافدون جدد من الصعيد شقوا طريقهم إلى الدلتا وكانوا يحملون أفكاراً جديدة ، ولم يكن رع ليعني كثيراً بالصعيد أو بأعمال

حوريس ولكنه كان يميل إلى ست ويفضله، وسرعان ماحدث احتكاك بين الصعيد والدلتا ـ وظل أتباع حوريس الأوفياء على ارتباطهم به وكان معظمهم من الجنوبيين، وأصبحت العداوة صريحة بين أتباع حوريس فى الصعيد وأتباعه الشماليين الذين تأثروا بالأفكار الجديدة ولكن أهل الجنوب انتصروا آخر الأمر تحت قيادة أحد أتباع حوريس وهو الملك مينا الذى أعاد توحيد مصر، وهذا هو التوحيد الثالث الذى بدأت على إثره العصور التاريخية وقد أصبح اتخاذ اللقب الحوريسى لدى الملوك تقليداً طوال العصور الفرعونية باستثناء الملك «بر ـ اب ـ سن» الذى اتخذ لقب ست بدلا منه، وربما كان ذلك لأنه كان يدين بهذا المعبود ولا ينتمى لأتباع حوريس.

ومنذ عهد الأسرة الرابعة يبدأ نفوذ رع فى الازدياد حتى أن ملوكها اتخذوا أسماء تتضمن اسم رع فى نهايتها، وبعد ذلك انتقل الملك إلى بيت ينتمى إلى كهنة هذا الاله مؤسسا الأسرة الخامسة ـ وعلى ذلك يمكننا أن نستنتج أن نفوذ هليوبوليس وكهنتها قد أصبح مسيطرا وازداد هذا النفوذ قوة فتقربت الآلهة الأخرى إلى الإله رع ووحدت معه ولم يستثنى من ذلك إلا الإله بتاح.

ولما عظم شأن طيبه فى الأسرة الحادية عشرة ازداد مركز آمون الذى يحتمل أنه كان إله الأسرة الحاكمة لأننا نعلم بأن الإلهين «مين ومنتو» كانا يعبدان فى طيبه قبل ذلك، ولكن آمون صارت له الصدارة منذ عهد تلك الأسرة.

ولما جاء الهكسوس إلى مصر واستوطنوا شرق الدلتا وجدوا أن

الإله ست الذى كان يعبد فى ذلك المكان قريب الشبه من إلههم سوتخ فعبدوه واتخذوه إلها رسميا .

ولما طردت الأسرة السابعة عشرة الطيبية الهكسوس من مصر عاد آمون إلى سابق سيطرته وأصبح الإله الرسمى للدولة فى عهد الامبراطورية الحديثة ، وقد أصبح عظيم الخطر لأنه إله الاسرة التى أسست هـــذه الامبراطورية وإليه يعزى انتصارها ـ وقد وحدت معه آلهة كثيرة حتى أن رع وحور وحدا معه أيضـا ، وظلت الهبات والأوقاف تتوالى على هـذا المعبود من ملوك الامبراطورية حتى أصبح ذهب بلاد النوبة وقفا عليه وسميت بلاد النوبة تبعا لذلك باسم «بلاد الذهب الخاص لآمون» وصيغت فى مدحه الأناشيد ، ومنها أناشيد أطلقت عليه اسم رع وأخرى أطلقت عليه اسم آتون وذلك فى عصر اخناتون .

ومنذ عهد امنحتب الثالث أو قبله بقليل يبدأ اسم آتون فى الظهور ، وربما كان ذلك لأن الملوك وجدوا فى نفوذ آمون خطراً يهدد الملكية فأرادوا أن يضعفوا من مركز هذا الإله بإيجـــاد منافسين له ممن يحظون بتأييد عام فعبدوا آتون كصورة لرع. الذى ظل طوال العصور الفرعونية ذو مكانة مرموقة . كذلك لجأ امنحتب الثالث إلى إدخال عبادة الملك الحى أو صورته الحية على الأرض ، ولكنه لم يشأ أن يبدأ هذه الخطوة فى مصر بل بدأهـا بعيدا فى السودان حيث بنى معابد لعبادته هو وزوجته هناك كما أنه فى نهاية عهده بنى معبداً للشمس فى الكرنك .

ولما جاء اخناتون أحدث ثورة عامة وقد صور إله الشمس فى شكل

يقرب إلى أذهان العامة (قرص الشمس تخرج منه الأشعة وهذه تنتهى بأيدى تتدلى منها علامة الحياة) بخلاف التصوير القديم الذى كان يغلق على أفهام العامة إذ أنه كان يصور إله الشمس فى هيئة إنسان برأس صقر - وربما كان اخناتون لا يعتقد بأنه ارتكب إثما نحو معبود أجداده آمون لأن هذا الأخير كان موحداً مع إله الشمس فى صورة «آمون رع» إلا أن كهنة آمون وجدوا فى فكرته الجديدة هرطقة حاولوا القضاء عليها فحدثت الثورة المعروفة، وتغالى أخناتون فى صب حام غضبه على آمون ونقل هـــذا الغضب إلى كل المعبودات الأخرى وخرج اخناتون على كل التقاليـــد وظهر أثر ذلك فى الفن خاصة - ولم تذكر ديانة اخناتون مملكة الموتى كما أن التوريات المعهودة عن الوفاة مثل «الطيران إلى السماء» أو «الرسو» لم تذكر كذلك. بل ذكر الموت والدفن ببساطة، ويظهر أن أتبـــاع اخناتون أحبوا الحياة ففضلوا التفكير فيها بدلا من الموت - ومع ذلك ظلت العقيدة القديمة التى تذكر بأن الموتى يسكنون العالم السفلى وأن الروح تستطيع الخروج من المقبرة والعودة اليها كما كانت ولم تتغير وظلت الروح كذلك تمثل فى هيئة طائر يجثم فوق الجثة كما ظل الاعتقـاد بأن الميت يتقبل القرابين سائداً - أما محاكمة أوزير فلم تذكر ولكن كلمة «مبرر» أو «مرحوم» كانت تذكر أحيانا، وكان الجعل يوضع على المومياء ولكن كان ينقش عليه دعاء لآتون كما أن تماثيل الأوشابتى (المجيبين) ظلت تستعمل كذلك. ولكن الدعاء عليها كان لآتون أيضـا وبدلا من تمثيل الآلهة إيزيس ونفتيس وغيرها من الآلهات مجتمعة على أركان التابوت مثلت الملكة بدلا منها.

ويرى بعض الأثريين أن عدم وجود الناحية التصوفية وناحية ما وراء الطبيعة هو سبب فشل هذه الديانة ولذلك فضل الشعب العقيدة القديمة ، ولكن يبدو أن محافظة المصريين على التقاليد وضعف قوة المملكة فى الخارج ووفاة الملك سريعا دون أن تستقر هذه الديانة الجديدة وعدم وجود خلف له من الذكور ، كل ذلك أدى إلى التحول ثانية إلى الديانة القديمة بل والرجوع إلى العاصمة القديمة أيضا - وكانت النقمة شديدة على اخناتون إذ أطلق عليه بعد وفاته اسم مجرم أخيتاتون .

وبعودة الحياة الطبيعية بعد هذه الثورة عادت عقيدة آمون بصورة لا تماثل قوتها من قبل فقد استعادت آلهة المدن المختلفة حقوقها مثل رع وبتاح - ومن جهة أخرى لما كان لطيبة شرف القضاء على الهرطقة فإنها صارت أعظم الأماكن قداسة . وقد ازدادت ثروة آمون زيادة لا مثيل لها فحقوله أصبحت خمسة أضعاف حقول رع وتسعين ضعفا لحقول بتاح وقد شيدت له المعابد الفخمة فى الأسرة التاسعة عشرة ولما عظمت فخامة هذه المعابد لم يكن يسمح لعامة الشعب بدخولها فأصبح دين آمون دين الخاصة وأصبح غريبا على أبناء الشعب الذين فكروا فى آلهة أكثر شعبية ومنها إله الشمس كما عادت الحياة إلى كثير من الآلهة القديمة التى حاول الملوك إرضاءها ببناء معابد لها ، فمثلا بنى رعمسيس الرابع معبداً فى أبيدوس للإله أزوريس الذى كان يعد فى نظر الملك من أكثر الآلهة غموضا وخفاء وأنه هو القمر وهو النيل وهو الذى يحكم فى العالم الآخر ... كذلك احتل الإله ست مركزاً ضخما فى عصر الأسرة التاسعة عشرة .

ورغم أن عامة الشعب لم يكن من الميسور دخولهم إلى المعابد الفخمة

التى بناها ملوكهم إلا أن ذلك لم يحل دون تقواهم وقد نقشوا الصلوات تعبداً لآلهتهم ولجأوا فى حالات كثيرة إلى آلهة تكون أقرب منالا ، بل وتطور الأمر حتى أصبح كل فرد يقدس من الكائنات ما يقـــع تحت نظره وما يصادفه فمثلا عبدوا الآثار القديمة وعبدوا بعض الحيـوانات والجمادات فى بيئتهم المحلية كما تصوروا آلهة أخرى خرافيه تجمع فى صفاتها وتكوينها مميزات كائنات متعددة مثل تويرس وبس[1] وبعـل وغيرهما وكذلك صور لهم الوهم عبادة بعض المعالم الجغرافية مثل قمـة الجبـــل فى البر الغربى لطيبة ـ وازدادت عبادة العامة والسذج للحيوان وانتشرت حتى أصبحت شائعة ، وقد تغالى الرومان فى هذا بعد ذلك إلى درجة أن أحد شعرائهم واسمه جوفنال[2] تهكم من ذلك بقوله مخاطباً رجال عصره « أيها الأطهار الذين تولد لهم تلك الآلهة فى الحدائق » .

ويبدو أن الآلهة التى تمثل النواحى الأخلاقية كانت آخر العبـادات ظهوراً ومن أمثلة ذلك ماعت وبس وغيرها ...

ولأهمية المعايير الأخلاقية توقف مصير الميت على مسلكه فى الحياة وأصبح الموت من أهم المشاكل التى شغل المصريون أنفسهم بهـا ، ولذلك أصبحت أسطورة أزوريس من أوسع الأساطير انتشاراً وصارت عبادته أقرب العبادات إلى القلوب .

---

(١) تويرس معبودة تجمع بين رأس التمساح وأنثى فرس النهر ، بس معبود يجمـــع فى شكله بين رأس الهر وجسم القزم .

(٢) شاعر رومانى عاش حوالى (٤٢ — ١٢٠ م) وقد اشتهر بسخريته اللاذعة من معاصريه .

العقائد الجنزيـة :

لا نعرف كثيراً عن العقائد الجنزية فى أقدم العصور الفرعونية وأول ما يطالعنا عن تلك العقائد هو ما ورد فى متون الأهرام التى دونت فى الأهرام ابتداء من عهد أوناس آخر ملوك الأسرة الخامسة ، وهي لا شك ترجع إلى أصول قديمة لأننا نعلم بأن المصري منذ أقدم العصور كان يعني بموتاه عناية فائقة ولا يدخر وسعا في سبيل المحافظة عليهم ـ كما أن الميت كان يزود في مقبرته بما يلزمه من متاع يحمل على الظن بأن اعتقاد المصري في حياة ثانية كان اعتقادا راسخا وأن هذه الحياة تشبه حياته الأولى .

ومع أن متون الاهرام تدور فى معظمها حول الملك وواجب الآلهة نحو العناية بشخصه المقدس فقد وجدت بها أوراد تدل على أن الميت لم يذنب فى حق الملك مما يدل على أن هذه الأوراد فى أصلها كانت تستخدم لعامة الشعب أيضا أو أنها كانت شائعة ـ ومن الأوراد ما يدل كذلك على مصير متواضع إذ تشير إلى الرقاد فى التراب أو الرمل .

ومما نلاحظه فى نصوص الأهرام أن الإله أزوريس الذى كان يعد إله الموتى اتخذ فى بعض الأوراد مكان إله الشمس أو مكان إلهة السماء .

ومما تجدر الإشارة إليـــه أن المصرى كان يعتقد بأن الإنسان يتألف من ثلاثة عناصر : هى الجسم والكا (القرين) والبا (الروح) ، وكان يفسر الموت بأنه هجر الكا للموتى علما بأن الكا كان يستقبلها عند ولادته بأمر رع وهى تشبه صاحبها تماما كما اعتبر القبر ،دار للكا وأن القرابين تقدم إليها ، كذلك كانت الكا فى نظر المصرى هى الملاك الحارس

الذى يهتم بالإنسان وهى التى تنجب له الابناء ولكنها ظلت مع ذلك كائنا إلهيا غامضا بالنسبة له كما يفهم ذلك من النصوص المختلفة التى تشير اليها . أما البا فهى الروح التى تترك الجسد عند الموت وقد صورها المصرى فى أشكال مختلفة فهى أحيانا كطير ولذلك كان من المحتمل فى نظره أن تكون روح الميت طائرا بين طيور الاشجار التى غرسها بنفسه، وأحيانا تكون فى هيئة زهرة اللوتس أو فى هيئة الثعبان الذى يندفع من جحره أو التمساح الذى يزحف من الماء إلى الأرض . وقد تساءل المصرى كذلك عن مقدرة الروح وظن أنها تستطيع اتخاذ تلك الاشكال جميعا وغيرها من أشكال كثيرة لا حصر لها كما أنها كانت فى نظره تستطيع الاستقرار فى أى مكان تشاء .

ولما رأى الشمس تغرب يوميا فى الغرب وتعود إلى الشروق فى الشرق اعتقد بأنها كانت تجوب ليلا عالما سفليا ، وهذا العالم لايدخله الاحياء بل هو عالم الموتى الذين يهبطون إليه فى الغرب ويعيشون فى عالم مظلم إلا إذا مضت من فوقهم الشمس فى رحلتها بالليل ، ولذا أطلق على عالم الموتى اسم « عالم الغرب » كما أن الموتى كانوا يسمون « أهل الغرب » واعتبر « سكر » اله الموتى فى منف « أول أهل الغرب ».

وكما يختلف الناس فى حياتهم كذلك لا يمكن أن تكون هناك مساواة بعد الموت أى لابد من وجود أماكن أفضل ومقر أحسن « للأرواح الممتازة » ـ هذا المقر كان فى السماء ، أى أصبح هناك عالم ثان للموتى وقد أطلق عليه إسم « دوات » ثم تطور هذا الاسم فأصبح يطلق فيما بعد على عالم الموتى السفلى كذلك ـ وقد ظن المصـــرى بأن نجوم الليل

هم موتى أو أرواح سعيدة ظلت فى سناء دائم مع الآلهة إذ مد اليوم رع يده أو أخذتهم إليها آلهـــة السماء ونظمتهم بين ما لا يفنى من نجوم جسدها .

وقد ظهر أثر التضارب فى التفكير الدينى فى متون الأهرام نفسهـا إذ نجد فيها ما يشير إلى أن الميت يطير فى شكل طائر إلى السماء إلى جانب إخوته الآلهة حيث تمد إليه إلهة السماء يديها وتقيمه عليهـا نجما لا يفنى ، وهو يولد منها فى الصباح وينتسب إلى الذين يقفون من وراء رع والذين يقفون أمام نجمة الصباح ، يبحر إلى الجانب الشرقى من السماء حيث تولد الآلهة فيولد معهم متجـــدد القوة والشباب . ومن أمثلة التضارب فى النصوص أن الملك (ليس إنسانا وليس آباءه من البشر... إنه تحوت أقوى الآلهة أعظم من رع وهو ابنه) ، كما تصور النصوص الميت كصائد يتصيد نجوم السماء ويلتهم الآلهة يعيش على آبائه ويتغذى بأمهـاته .

أما مقر الأبرار فقد تخيله المصرى كمجموعة من الجزر تمثل « حقل الاطعمة » و « حقل يارو » أو « مقر الممجدين » ـ هاتان الجنتان تخيلهما المصرى على شكل البلاد المصرية يغمرها الفيضان ويزدهر فيهمـــا الزرع وتقوم آلهة السماء فيها بإطعام الميت طعـاما طاهراً بريئا ، ترضعه نوت أو الحية التى تحمى الشمس ولا تفطمانه أبداً أو يتلقى نصيبه من شونة الإله العظيم ويلبس ما لا يفنى وله من الخبز والجعة ما يبقى أبدا طعامه بين الآلهة وشرابه النبيذ على نحو شرب رع . ويعطيه رع مما يأكل ويشرب .

وكان الوصول إلى حقول الأبرار هذه صعبا عسيرا فكان الميت

يرجو عطف حورس (الصقر) وتحوت (أبو منجل) لينقلانه إلى هذه الحقول أو يرجو إله الشمس ليعبر به فى سفينته أو يرجو ملاح (نوتى) حقول يارو الذى لا ينقل غير الرجل القويم الذى لا قارب له .

وتبدو مبادىء الأخلاق فى نصوص الأهرام من كثير من العبارات التى منها « ما من شر ارتكبه » و«لم يتقول السوء على الملك» و« لم يحتقر الآلهة » و « طاهر الجسد » ، ومن ذلك يتبين أن معاملة الفرد مع الناس والآلهة كانت تعتمد على مكارم الأخلاق واحترام الملك والآلهة .

وبانتشار عقيدة أوزيريس تأثر الأدب الجنزى وأصبح خليطا مشوها أكثر من ذى قبل ، ولا نجد إلا القليل من السحر فى متون الأهرام . ولما تطورت الحياة الاجتماعية فى مصر الفرعونية أصبح للافراد حق كتابة نصوص جنزية على توابيتهم منذ عهد الدولة الوسطى تقريبا وهذه النصوص عرفت باسم « نصوص التوابيت » وهى عبارة عن مختارات من نصوص الأهرام (التى كانت وقفا على الملوك) صيغت فى صورة جديدة وأضيفت اليها مواد أخرى ـ وقد تطورت هذه فى عهد الدولة الحديثة إلى ما يعرف باسم « كتاب الموتى » وهو عبارة عن النصوص الجنزية التى دونت فى المقابر أو فى البرديات ابتداء من عهد الدولة الجديثة حتى العصر الرومانى ـ وكتاب الموتى هذا يرجع فى تكوينه إلى مجموعتى متون الأهرام ونصوص التوابيت وقد أطلق المصريون عليه اسم « تعريفات للخروج نهارا » أى أن الغرض من كتاب الموتى هو تمكين المتوفى من الخروج من ظلمة القبر إلى ضوء الشمس وتمكينه من الحركة بعد الموت ، وكثير من تعزيمات هذا الكتاب يفهم منها توفير

السعادة فى العالم الآخر والتهرب من الأخطار التى تصادف الميت - وهذه كانت تتمثل فى هيئة آلهة شريرة أو شياطين أو ماينتاب المرء من جوع وعطش . . . الخ »

وابتداء من عهد الأسرة الثامنة عشر ظهر كتابان آخران لأول مرة وهما « ايم دوات » (ما فى العالم السفلى) و « كتـــاب الابواب » « وهذان الكتابان يدوران حول موضوع واحد هو رحلة الشمس ليلا فى العالم السفلى - وكان المعتقد أن اله الشمس يواصل السفر ليلا من الغرب إلى الشرق فى أسفل الأرض وفى هذه الرحلة يزور ممالك الأموات ويضفى عليهم من ضوئه وكان عليـــه أثناءهـا أن يناضل أنواعا من المردة تسعى لوقف تسياره ولمنعه من الشروق على الأرض ثانية - وكان العالم السفلى فى نظر المصرى مقسما إلى أثنى عشر قسما طبقا لساعات الليل يجتاز إله الشمس كلا منها فى ساعة معينة وفى صورة تختلف عن صورته فى النهار - وكان المتوفى يأمل أن يلحق بموكب إله الشمس فاستعان على ذلك بالنصوص التى أطلق عليها « كتاب ما فى العالم السفلى » حتى يتمكن من تخطى الأخطار التى تكتنف طريقه ليلا .

أما كتاب الأبواب فيتحدث عن نفس الموضوع أى رحلة الشمس خلال أقسام العالم السفلى الأثنى عشر، ولكنه يقتصر على وصف الأبواب والبوابات التى تؤدى إلى هذه الأقسام والكائنات التى تحرسها .

وكان الميت دائما يأمل أن تكون روحه ضيفا يرحب به فى بيته عند زيارتها للدنيا لاضيفا غير مرغوب فيه ، كما اعتقد المصرى بأن روح المتوفى فى إمكانها أن تتدخل فى شئون الأحياء - وقد وردت الينا نصوص

كثيرة تبين هذه العقيدة ، ومن ذلك مثلا أن أحد الناس كتب خطابا إلى روح زوجته المتوفاة يرجوها فيه أن تكف عن أذاه ويذكرها بما كان يبذله من أجلها أثناء حياتها ـ كذلك اعتقد المصرى بأن الميت كان يبرر موقفه أمام أزوريس الذى كان قاضيا وحاكما فى العالم السفلى فيتقـــدم بسلسلة من الإعترافات الإنكارية أو السلبيـة حتى يقبـله فى مملكته التى يعيش فيها المبرئين المرحومين ، ومن هذه الاعترافات مثلا « أنا لم أسرق ولم امتهن أرملة ولم أكذب . . . الخ .

وكانت قاعة المحاكمة يمثل فيها أوزريس كرئيس للمحكمة ومن حوله اثنان وأربعين قاضيا وفيها يشرف تحوت على الميزان الذى يوزن فيه قلب المتوفى فى مقابل ريشة العدل التى توضع فى الكفة الأخرى من الميزان ، فمن كان قلبه أثقل منها ثبتت براءته واعتبر فى عداد الأبرار الذين لهم الحق فى الوصول إلى حقول يارو ـ أما من تثبت إدانته فيلقى قلبه إلى حيوان خرافى متوحش مخيف ليلتهمه ويلقى الميت جـــزاءه فى النار ولا يصحب اله الشمس فى رحلته ولا ينتظم بين الأرواح السعيدة التى تتلألأ فى السماء .

ومن ذلك يتبين أن الدين كان يحض على مكارم الأخلاق وأن تلك المعايير الأخلاقية لاشك فى أنها كانت فى أول الأمر عادات اجتماعية فرضها المجتمع وأصبح لها من القوة ماجعلها من التعاليم الدينية .

ولما كان المصرى لايشك إطلاقا فى البعث فإنه حرص على المحافظة على جسده حتى تتعرف عليه الروح وتعود إليه بسهولة كما كان يحرص على بقاء هذا الجسد سليما حتى لا يبعث فى حالة غير التى كان عليها ،

وقد احتاط كذلك بعمل تماثيل له حتى إذا ما أصيب الجسد أمكن الروح أن تحل فى تمثال له ولكن نلاحظ فى هذه الحالة أن التمثال كان يمثله وهو فى ريعان شبابه طمعا فى أن يبعث وهو فى خير هيئة له .

وبالطبع كانت المحافظة على الجثة تتطلب أن يكون الدفن فى مكان أمين بعيد عن المؤثرات الجوية والحيوانات الضارية ، وكانت المقبرة فى أول أمرها عبارة عن حفرة بسيطة يوضع فيها الميت ثم يهال عليه الرديم ، ثم أمكن تسقيف هذه الحفرة بالبوص ثم بالخشب ـ ولاشك فى أن أهل المتوفى كانوا يميزون مقبرته من غيرها بكومة من الرمال أو الحصى، وهذا الجزء الذى يعلو سطح الأرض أصبح جزءا متمما للمقبرة وخضع لتيار التطور . ومنذ عصر ما قبل الأسرات أصبح الجزء الذى تحت سطح الأرض مستطيل الشكل لأن تسقيف حفرة الدفن واختراع اللبن الذى استخدم فى تبطين هذه الحفرة كان يحتم ذلك أو ييسره على الاقل . وفى أواخر هذا العصر تقريبا قسمت حفرة الدفن إلى حجرات كما أن الجزء الذى يعلو سطح الارض فوق هذه الحفرة Super - structure أصبح عبارة عن بناء من اللبن مستطيل الشكل مائل الجوانب إلى الداخل قليلا وهو الذى عرف باسم «المصطبة» وكثيرا ما أصبحت كلمة المصطبة تطلق على المقبرة بأكملها أى على الجزئين معا . وكانت جدران المصاطب تبنى بحيث تكون ذات تعرجات (مداخل ومخارج) أشبه بأسوار الحصون ثم اقتصر على فجوتين فقط فى جدارها الشرقى منذ عهد الأسرة الثانية وكانت الفجوة الجنوبية منهما أكبر من الشمالية ، وقد وضعت لوحة حجرية لصاحب المقبرة

فى الفجوة الجنوبية ـ وهذه اللوحة هى التى تطورت فيما بعد إلى ما يعرف باسم الباب الوهمى .

ومنذ عهد زوسر أمكن بناء مقبرة بأكملها من الحجر وفى عهد الدولة القديمة ظل الجزء الذى تحت سطح الأرض ينحت فى الصخر فى هيئة حجرة للدفن يؤدى اليها طريق منحدر أو بئر عمودى مع اختلافات بسيطة فى أهرام الملوك . أما الجزء الذى يعلو سطح الأرض فقد ظل الأشراف والشعب يبنونه فى هيئة المصاطب ولكن الحجر استعمل فى هذا البناء ـ بينما تدرج الملوك ابتداء من عهد زوسر من الهرم المدرج إلى الشكل الهرمى فى بناء هذا الجزء الظاهر من المقبرة ـ وقد ظل هذا الشكل محببا لدى الملوك إلى عهد الدولة الوسطى وإن كان بعض هؤلاء لم يستطيعوا إلا بناء أهرام صغيرة من اللبن .

وكانت القرابين تقدم إلى روح المتوفى أمام اللوحة الجنزية ولما عظم اتساع الفجوة التى بها اللوحة حولت إلى حجرة لتقديم القرابين وللقيام بالطقوس الدينية نحو المتوفى ـ أما بالنسبة للاهرام فكان كل ملك يبنى فى الجهة الشرقية من هرمه معبداً جنزيا يصله بالوادى طريق منحدر ينتهى إلى بناء صغير للاستقبال على حافة الوادى .

وحينما عظم نفوذ الأشراف فى عهد الاقطاع الأول والدولة الوسطى نحتوا مقابرهم فى الصخر فى مناطق أقاليمهم .

ومنذ عهد الدولة الحديثة أخذ الملوك والاشراف فى نحت مقابرهم فى الصخر خشية سطو اللصوص عليها وفصل الملوك بين مقابرهم وبين المعابد الجنزية التى شيدوها بعيدا عنها حتى لايهتدى اللصوص إلى مكان دفنهم ـ أما الاشراف فكانت حجرات تقديم القرابين جزءاً من صميم المقبرة نفسها .

وقد تبين المصرى منذ أقدم العصور أن الدفن وحده لايكفى للمحافظة على الجثة فلجأ إلى التحنيط ولا نعرف على وجه الدقة متى بدأ رغم العثور على جثث من الأسرة الثانية كفنت بعناية ودقة وكان كل عضو فيها ملفف على حدة مما يشعر بوجود نوع من التحنيط - ومنذ عصر الأسرة الرابعة عثر على جثث محنطة تحنيطا تاما وما زال صندوق حتب حرس يحوى صرة كانت بها الأحشاء محفوظة فى النطرون غير أن الجثة لم يعثر عليها - وأقدم مومياء معروفة ترجع للاسرة الخامسة فى المتحف الملكى لكلية الجراحة بلندن، وقد استمر التحنيط مستخدما حتى أوائل العهد المسيحى.

ومعظم مواد التحنيط وطرقه أصبحت معروفة إلا من بعض التفاصيل وأقدم وصف للتحنيط وصل الينا من هيرودت ثم من ديودور . وقد روى هيرودوت بأن المصرى كان يستعمل ثلاثة طرق مختلفة :-

(١) وهي تكلف وزنة من الفضة ذات قيمة كبيرة - وفيها يستخرج نخاع المخ من الخياشيم بآلة خاصة وما يتبقى منه يزال بعقاقير لم يذكر اسمها كما كانت محتويات الجوف والصدر (ما عدا القلب والكليتين) تستخرج عن طريق فتحة فى الجانب الأيسر ثم ينظف مكانها بنبيذ البلح والتوابل ويملؤ بعد ذلك بالمر وبعض المواد العطرية والكتان والراتنج والنشاره والنطرون وقشر البصل وغير ذلك . ثم تخاط الفتحة ويعالج كل الجسم بالنطرون لمدة ٧٠ يوما ثم يغسل ويلف فى لفائف من الكتان تلصق بالصمغ.

(٢) كان زيت خشب الأرز يستخدم فى هذه الطريقة حيث كان الجسم

يحقن به ولا يسمح بتسربه إلا بعد أن يعالج الجسم بالنطرون.

(٣) أرخص الطرق وكانت للفقراء وتتلخص فى تنظيف الأحشاء بأنواع من السوائل (ماء أو شربه) ثم يعالج الجسم بعد ذلك بالنطرون لمدة ٧٠ يوما .

ويعطينا ديودور بعض تفاصيل لم يذكرها هيرودوت إلا أنه لم يذكر سوى طريقة واحدة للتحنيط تتلخص فى إزالة الأحشاء ما عدا القلب والكليتين وتنظيفها بنبيذ البلح وتوابل مختلفة لم يعين أسماءها ويدلك الجسم بزيت خشب الأرز ثم يمسح بالمر والقرفة ومواد مماثلة بالاضافة إلى قار البحر الميت (حيث أشار في إحدى المناسبات عند وصف قار « البحر الميت » أنه كان يحمل إلى مصر ليباع فيها لتحنيط الموتى) لأن الأجسام لا يمكن أن تحفظ مدة طويلة دون تعفن إلا إذا خلطت بالتوابل العطرية المستعملة بهذه المناسبة .

وربما كان الاختلاف بين الطريقة التى ذكرها ديودور وطرق هيرودت راجـــع إلى أن فن التحنيط قد تطور فى الأربعة قرون التى تفصل بين هذين المؤرخين .

وبعض الجثث لم تنزع منها الأحشاء مثل مومياء «عاشيت» من الدولة الوسطى أما الأحشاء التى تنزع فكانت تعالج بمخلوط من الرمل والقار وتدفن فى صندوق خاص قد يكون مقسما إلى أربعة أقسام ثم أصبحت توضع فى أربعة أوانى إلى جوار الجثة ، وهذه الاوانى تعرف باسم أوانى الاحشاء .

وأحدها كانت توضع به الأمعاء الغليظة والمعدة والثانى توضع به

الأمعاء الدقيقة والثالث توضع به الرئتين والرابع يوضع به الكبد ـ وأغطية هذه الأوانى على هيئة أحد أبناء الإله حورس الأربعة التى كانت تعتبر حامية للأحشاء .

والظاهر أن التحنيط اكتشف مصادفة حينما تبين المصرى أن بعض الاجساد التى دفنت فى تربة ملحية كانت تحفظ من التعفن ، ويذكرهيرودوت أن الاثيوبيين كانوا يجففون الأجسام لتحنيطها ويدلكونها بالحصى ثم يضعونها فى أوعية شفافة .

هذا وقد كانت عملية التحنيط تجريها فئة خاصة يبدو أنها كانت فئة غير محبوبة .

القضاء

كان الوزير فى أقدم العصور على رأس القضاء فكان بحكم وظيفته كبيراً للقضاة ، ومنذ عهد الأسرة الخامسة أصبحت هذه الوظيفة وراثية فى أسرة نبيلة ـ وقد وجدت فى الوجه القبلى ستة محاكم كبيرة يحتمل أن كلا منها كانت تختص بقسم من أقسام ستة رئيسية يرجح أن العرف جرى على تقسيم الوجه القبلى إليها فى بعض الشئون العامة ، وكان كل من عظماء الوجة القبلى العشرة يعتبر مستشاراً فى إحدى هذه المحاكم ، أما رئيس هؤلاء العظماء فكان يعتبر مستشاراً فيها جميعا ، وبالطبع كان لكل محكمة قضاتها ـ وإلى جانب هؤلاء كان هناك قضاة لاينتمون إلى أى محـــكمة وهؤلاء كانوا يعملون كمساعدين لكبير القضاة عندما تعقد جلسات ذات سرية أو ذات أهمية خاصة ، ومثل هؤلاء القاضى الذى كان

يلقب بلقب « فم نخن » ولما كانت الإلهة « ماعت » تعد إلهة للعدالة فإن القضاة كانوا يعدون من كهنتها .

ويبدو أن هذا النظام قد تعرض للتبديل ، ففى عصر الدولة الوسطى تغير تشكيل هذه المحاكم وأصبح منصب كبير القضاة - وإن ظل مرتبطا بمنصب الوزير - لقبا تقليديا ولم تعد له نفس الاختصاصات السابقة كما أن لقب « فم نخن » أصبح هو الآخر لقبا شرفيا يمنح لبعض أمراء الأقاليم - أما فى الدولة الحديثة فإن ماورد من إشارات يدل على أن أعضاء المحاكم كانوا عرضة للتغيير والتنقلات، وكانوا عادة من الموظفين والكهنة الضالعين فى القانون غير أن كاتب المحكمة كان غالبا ثابتا فى وظيفته - ولهذا الأمر أهميته بالطبع لأنه كان يكلف بحفظ محاضر الجلسات باعتبارها الوثائق الحاسمة فى المحاكمات .

ولم تصل إلينا القوانين التى كانت المحاكم تسترشد بها ولكن هناك ما يشير إلى وجود مجموعة للقوانين الرسمية كانت مدونة على ملفات من الرق وجدت ضمن مناظر المحكمة التى كانت تعقد فى قاعة الوزير « رخ مى رع » (من عهد الأسرة الثامنة عشرة) كما تظهرها نقوش مقبرته فى البر الغربى للأقصر - ومعظم هذه القوانين ترجع فى أصولها إلى عصـــور سحيقة إلا أن الحاجة كانت تدعو بعض الملوك إلى سن المزيد من سن القوانين كما حدث فى عهدى سنوسرت الأول (الأسرة الثانية عشرة) وحور محب (مستهل الأسرة التاسعة عشرة) .

وكانت ظروف بعض القضايا توجب الخروج على الإجراءات القضائية المعتادة فمن ذلك القضية التى اتهمت فيها زوجة الملك ببي الأول حيث جرت

المحاكمة فيها بسرية ولم يشترك فيها سوى عدد محدود من القضاة وعلى رأسهم « أونى » الذى كان مقربا للملك - كما أن قضية المؤامرة التى دبرت لاغتيال رعمسيس الثالث لم تنظر أمام محكمة عادية بل شكلت لها هيئة محاكمة خاصة منحت سلطات مطلقة وقد جرت المحاكمة فى سرية وسرعة إذ أن غالبية المشتركين فى المؤامرة كانوا من حريم الملك ومن كبار موظفى البلاط والضباط .

وكانت الدعاوى المدنية تقدم أمام المحاكم الدائمة وكان على الشاكى أن يثبت حقه بما لديه من وثائق رسمية أو شهادة الشهود أو بهما معا ، وكان على المدعى عليه أن يقسم بأن ينفذ قرار المحكمة كما كان على الشهود أن يقسموا على قول الصدق .

أما أهم الوثائق التى كان يعتد بها فهى الوصايا التى يوصى فيها السلف إلى المدعى بما يدعى ملكيته ، وقوائم الضرائب الرسمية التى تثبت حقه فيما يدعى أنه حقه ، وعقود الشراء إلى جانب الوثائق التى تنص على الهبات والأوقاف والإعفاء من الضرائب وغيرها

العسكرية

لم يكن فى مصر فى أقدم عصورها جيشا موحدا بل كانت لكل مقاطعة قوتها العسكرية الخاصة ولكل من المعابد الكبيرة ولإدارة بيت المـــال فرقها الخاصة ، وهذه كلها كانت تجمع عند الحاجة كما حدث عندما هاجم الآسيويون مصر فى عصر الأسرة السادسة - وقد ظل الحال كذلك إلى عهد الدولة الوسطى حيث ظل كل أمير يحتفظ فى إقليمه بجيشه الصغير الخاص به ، ولم يكن هذا الجيش يستخدم دائما فى الحروب بل كان يقوم بأعمال أخرى وقت السلم ، فإلى جانب حماية البعثات التجارية وبعثات استغلال المناجم والمحاجر فى الصحراء كان الكثيرون من الجنود يستخدمون كعمال وخاصة فى هذه البعثات الأخيرة لجر ونقل الاحجار - وقد تنبه ملوك الدولة الوسطى إلى أن فرقا كهذه لايمكن أن تكون لها فاعلية الجيوش الموحدة المنظمة فأنشأوا لهم حرسا خاصا ثابتا استخدموه فى حروبهم، وقد عرف هذا الحرس باسم « أتباع الحاكم »

أما فى عهد الدولة الحديثة فقد أخذ الطابع الحربى يسود البلاد بعد أن نجحت فى طرد الهكسوس وذاقت طعم النصر فى القتال وأقبـــل المصريون على الانخراط فى سلك الجندية لما كانوا ينالونه فيها من شرف وفخار فضلا عن المكاسب المادية التى يحصلون عليهـــا فى انتصاراتهم ، وأصبح الجيش المصرى ثابتا يتألف من عـــدد من الفيالق أو الوحدات التى كانت على الأرجح تختلف فى ملابسها وأسلحتها - ويغلب على الظن أن الجيش المصرى لم يخل فى أى وقت من المرتزقة وخاصة من النوبيين الذين استمر استخدامهم منذ أقدم العصور ، ففى الدولة القديمة عمـــلوا

كحرس للجبانات والمناطق الصحراوية ، وفى عهـد الفوضى الأول كانوا يعملون فى جيوش المقاطعات وظلوا كذلك يستخدمون فى الجيش فى عهد الدولة الوسطى ، أما فى الدولة الحديثة فكانوا يؤلفون فرقا حربية تعمل فى حفظ الأمن إلى جانب بعض النواحى الإدارية الأخرى ـ وقد زادت العناصر الأجنبية فى الجيش ابتداء من عصر الأسرة التاسعة عشرة حتى أصبحوا فى العصر المتأخر يشكلون غالبية الجيش المصرى ، وكان يرأسهم رؤساء من بنى جلدتهم ـ ومما يلاحظ فى هذا الصدد أن جماعات الشردان والليبيين أخذت تسود فى أواخر عصر الدولة الحديثة بينما أفسحت مكانها فى عصر النهضة (الأسرة ٢٦) وما بعدها للعناصر اليونانية .

وكما تطور الجيش فى تكوينه تطورت كذلك الأسلحة التى استخدمها ، ففى فجر التاريخ كان السلاح الشائع الاستعمال هو الهراوة (دبوس القتال) ذات الرأس الحجرى التى ظلت تبين فى النقوش حتى أواخر العصور الفرعونية كسلاح تقليدى يستخدمه الفرعون فى تحطيم رؤس أعدائه ، وفى عصر الدولة القديمة كان الجنود يسلحون بفئوس للقتال وبالقسى والسهام ـ وفى عهد الفوضى الأول ظل إستخدام القسى والسهام إلى جانب استخدام الحراب الطويلة والتروس فى حالة الالتحام عن قرب ، ولم يزد تسليح الجنود فى عهد الدولة الوسطى عن ذلك كثيرا غير أن بعض الجنود كانوا يكتفون بالتسلح بمجرد مقلاع فقط . ومن المحتمل أن الخنجر استعمل فى مختلف العصور ولكنه لم يمثل مع الجنود فى صورهم إلا نادراً . وقد تغـير شكل الفأس النحاسية فى الـدوله الوسطى حتى أصبحت تبدو كأنها السلاح الذى تطور إلى السيـف المنحنى

الذى كان يحمـــلة ملوك الدولة الحديثة ، وهو على شكل المنجـل .

وفى عهد الدولة الحديثة كان الجنود يتسلحون بالحراب مع الخناجر أو السيوف التى على شكل المنجل وترس ثقيل ، وقد يتسلح البعض بحربة خفيفة وترس أو رماح طويلة وسيوف أو القسى والسهام ، وكان بعض الجنود يلبسون الدرع (قميص الحرب) - هذا إلى جانب استحـداث العجلات الحربية كأداة فعالة فى الحروب منذ طرد الهكسوس من مصر، وهذه كان يركب فيها عادة محاربان أحدهما لقيادة الخيل والآخر يرمى بالسهام من قوسه أو يقـذف بزارق كانت توضع فى جعبتين عند حافة المركبة فى متناول يده ، وقد أصبح هؤلاء الفرسان يشكلون قسما هاما فى الجيش المصرى .

وفى بلد كمصر عرضة للإغارة عليها من بدو الصحارى المتاخمة ومن النوبيين فى الجنوب كان لابد من وجود عدد من الحصون والثكنات عند مناطق الخطر، وتدل البقايا الأثرية على وجود مثل هذه الحصون عند الحدود الجنوبية فى عهد الدولة القديمة - وفى عهد الدولة الوسطى وجدت حصون على حدود الدلتـا الشرقية وفى جنوب مصر كما بنيت سلسلة من القلاع فى النوبة السفلى للسيطرة عليها وحماية الممتلكات المصرية بها - أمـا فى عهد الدولة الحديثة فـلم تكن الحاجة تدعو فى أول الأمر لإنشـاء مثل هذه الحصون وربما استعاضوا عنها بإنشاء مدن عسكرية فى الدلتا .

ويبدو أن المصريين لخبرتهم بمثل هذه التحصينات قد أكتسبوا مهارة فى طرق حصارها وتحطيمها منذ عصر الدولة القديمة على الأقل حيث يبدو ذلك واضحا من منظر يمثل اغتصابهم لحصن آسيوى بالمراق وقضبان الهدم

جاء فى نقش بإحدى مقـــابر دشاشة[١] ، وفى إحدى مقابر بنى حسن مناظر تمثل حصار أحد الحصون حيث يتقدم إليه المهاجمون تحت مظلة واقية وهم يدفعون فى جداره قضيبا طويلا للهدم ويرمـون المدافعين عنه بوابل من السهام[٢] .

الحياة الاقتصادية

الزراعة وتربية الحيوان

لابد عند الكلام عن الزراعة أن نتخيل البيئة المصرية فى بداية العصور الفرعونية . فالمعروف أن النهـــر كان متسع المجرى قليل الغور لأنه لم يكن قد عمق هذا المجرى تماما فكانت مياة الفيضان تغمر الجانبين إلى مسافات بعيدة ونتج عن ذلك أن المستنقعات والغابات كانت شائعة وخاصة فى الدلتا ـ أى أن هذه البيئة المصرية كانت فى أول الأمر بيئة صياد بطبيعتها، ثم عرف الإنسان استئناس الحيوان ـ وحينما تعددت مطالبه وعجز عن الاكتفاء بهاتين الحرفتين وتوصل إلى الزراعة بدأ حيـاة الاستقرار فأخذ يقتلع الغابات ويزرع مكانها ، وقد أدى ذلك إلى الإفادة من مياه النيل وأخذ ينظم جهوده المشتركة ليستطيع التغلب على مياة النهر والتحكم فيها لفائدته ، ولذا كان النيل من أهم البواعث التى أدت إلى ظهور المجتمعات المنظمة ـ وكان ظهور المجتمعات الصغيرة بعضها إلى جوار بعض سببا فى اشتداد المنافسة بينها ومجالا لنشأة الصراع فى سبيل فرض النفوذ ونشر

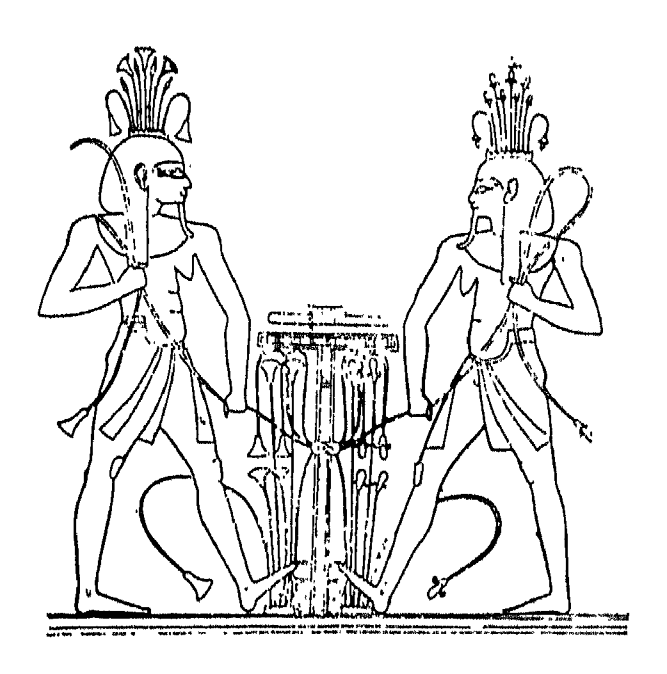
---

(١) Petrie, Deshasheh, pp. 5; ff; pl. 4.

(٢) Newberry, Beni Hassan I, 14: II, 15,

السلطان فكان الإقليم الأقوى يحاول بسط سيادته على الأقاليم المجاورة .

ولا يكاد يوجد فى العالم نهر اعتمد سكان واديه عليه فى حياتهم مثل اعتماد المصرى على نهر النيل بل وإلى هذا النهر يرجع الفضل فى وجود الإنسان فى هذه البقعة من العالم وعلى ذلك ليس من المستغرب أن اعتبره المصريون إلها وتخيلوه فى هيئة إنسان عظيم الثديين كبير البطن ممتلىء الجسم كناية عن الخير والبركة ويقوم بحزم وربط رمزى الوجه القبلى والوجه البحرى شكل (١٦) وكثيراً ما وجد مع غيره



شكل (١٦) : إله النيل يمثل رجلا ممتلىء الجسم
وهنا تمثيل لرمزين للنيل يوحدان رمزى الوجهين
القبلى والبحرى

من الآلهة مثل أوزوريس كما أطلق على هذا الاله الموحد اسم أوزر - ابيس في العصر اليوناني .

وقد يصبح النيل خطيراً أحيانا ، ولا يتمثل هذا الخطـــر في شدة الفيضان فقط وإنما يتمثل أيضا في قلة ما يجيء به من مياه في بعض السنوات مما يؤدى إلى هلاك الزرع وانتشار المجاعات ، وإذا ما انخفض منسوب المياه فإن الفلاح يلجأ إلى وسائل تعينه على رفع الماء إلى حقله - وقد توصل إلى هذه الوسائل منذ أقدم العصور وظل يستعملها حتى يومنا هذا ، ومن أهم هذه الوسائل الشادوف - كذلك مازال الفلاح يمهد أرضه بالمحراث أو الفأس لإعدادها للزراعة .

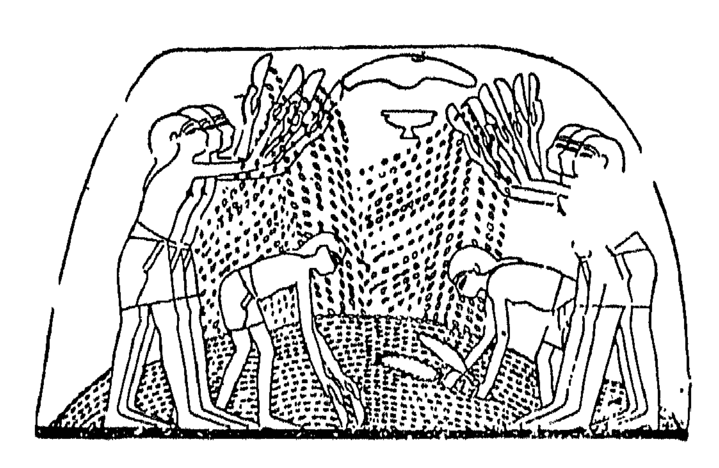
وكان الجو المصرى يساعد على أعمال الزراعة المختلفة فالجو صحو في معظم أيام السنة وأتاح ذلك المصرى أن يؤدى أعمـــاله بنظام ونشاط ، وكان المحراث الذى استعمله المصرى القديم عبارة عن سكين خشبى تثبت اليها يدان أو مقبضان وعريش طويل ينتهى بنير (ناف) - وكانت الثيران هى التى تجر المحراث في الدولة القديمة أما في الدولة الحديثة فقد استعملت البغال أيضا .

وطريقة بذر البـــذور هى نفسها التى ما زالت مستعملة حتى اليوم إذ يمسك الفلاح بسلة مصنوعة من البوص أو القش أو البردى ويلقى بيده البذور ثم يسير الخراف في الحقل لتغرز هـذه البذور في التربة ، وقـد تمرر الخراف عدة مرات لكى يضمن الفلاح تغريز معظم الحبوب .

أما الحصاد فكان يتم بمنجل قصير ويستعين الفلاح على العمـــل في الحقل بعازف للناى أو أحد المنشدين الذى يشجع العمال بألحانه ، وكثيراً

ما نرى فى النقوش مناظر الحقول أثناء فترة الحصاد وفيها نشاهد مناظر تمثل العمال أحيانا فى راحتهم يتناولون طعامهم بالقرب من مكان جمع المحصول حيث نرى حزم النبات مكومة فى قطعة أرض فضاء فى أحد أركان الحقل أو بالقرب منه ، ثم تنقل هذه الحزم إلى مكان الدرس – وكان الحمار هو المستعمل فى النقل أما الدرس فكان يتم بواسطة إمرار الحيوانات ذوات الحوافر على تلك الحزم مثل الحمير والثيران ، ثم أصبح الأمر قاصراً على استعمال الثيران فقط .

وكانت التذرية بمذراة ذات ثلاثة أسنان أو كانت الحبوب وما يختلط بها ترفع على لوحات خشب قليلة التقوس (شكل ١٧) – وهذه الطريقة الأخيرة كانت تستعملها نساء معصوبات الرؤوس ، وربما كان الغرض من ذلك حفظ شعورهن من الأتربة المتصاعدة عن هذه العملية إذ كانت الحبوب ترفع على اللوحات الخشبية إلى أعلى ثم تترك لتسقط فتهبط الحبوب فى مكانها بينما تتطاير الأتربة والتبن والقش بعيداً فى الهواء .



شكل (١٧) : يمثل نساء يقمن بتذرية القمح

وتقدم من باكورة الحصاد قرابين مختلفة كما أن صاحب المزرعة كان يأخذ شيئا من هذا المحصول المبكر، أى تقدم له كذلك باكورة الحصاد الجديد لتجربتها والاطمئنان على نوع المحصول . وكثيراً ما نجد فى مناظر الدولة القديمة منظراً يمثل المذبح المعد لتقديم القرابين بين أكوام القمح ، وكانت إلهة الحصاد التى تقدم لها القرابين عادة هى (رننوت) .

أما حفظ المحصول فكان يتم بعد أن يقوم كاتب الصوامع والكيال بعملها حيث كان الكيال يكيل المحصول بينما كان الكاتب يسجل عدد الكيل، وبعد ذلك كان ينقل إلى أهراء كبيرة لحفظه . وكانت الصوامع على أنواع فبعضها من الفخار وبعضها من الخشب وبعضها كبير إلى درجة أنه كان يكفى لاستعمال مدينة أو قرية بأكملها ، وهى عموما ذات شكل مخروطى وبها فتحة فى القمــــة وباب من أسفل . وكان التخزين يتم عن طريق الفتحـة العليـــا أما الاستهلاك فـكان عن طريق البـاب السفـلى .

وقد عرف المصرى من الحبوب القمح ونوعا من الشوفان وكان كل منها يختلف فى نوعه فى مصر العليا عنه فى مصر السفلى . وهناك بعض أنواع من الحبوب لم يمكن تحديدها فمثلا كان هناك نوع اسمه « سخت » كذلك كان من الحبوب ما هو أبيض ومنها ما هو أخضر ، وربمـا كان هذا الأخير نوعا من البازلاء . أو ما شابهها من البقول . أما الخضروات فكانت متعددة .

وكان المصرى يحب حيواناته الأليفة ويتعلق بها وخاصه تلك التى تساعده فى أعماله ، واشتدت عنايته بالأنواع الحسنة من الثيران فكان يتفنن

فى تزيينها بأغطية جميلة وجلاجل وقد وصل به الأمر إلى تقديس الثور والبقرة وكذلك قدس الكبش . وقد نقش كثيراً من المناظر التى تمثل تلك الحيوانات ومن بينها مناظر تمثل قيام الثيران بالعمل فى الحقول ، كما أحب مناظر مناطحة الثيران وغيرها .

وكانت ثروة المصرى من الثيران ضخمة وهى تنقسم عموما من ناحية خصائصها الحيوانية إلى ثلاثة أنواع: الأول ذو قرون طويلة تشبه القيثارة أو هلالية الشكل، والثانى قصير القرون، والثالث بدون قرون . وكثيراً ما كان يتحكم فى شكل قرون ثيرانه بأن يجعلها تنمو فى اتجاهات خاصة وما زالت هذه العادة معروفة فى أواسط أفريقيا . وتتبين العناية بغذاء الحيوان من كثير من المناظر ومن بعض مخلفات الأدب المصرى .

كذلك كان يعنى بتربية السلالات الأصيلة والاكثار منها ، وعند جمع الجزية من بلاد النوبة مثلا كانت الأصناف الممتازة من هذا الحيوان تزين وترسل إلى بيت الملك . أما الحيوانات الأخرى فى الجزية فكان الموظفون المصريون فى تلك البلاد يحتفظون بها للاستهلاك المحلى ، وكان غذاء التسمين المفضل هو عبارة عن عجين الخبز يصنع فى خيوط ويطعم للحيوان . وكانت عملية حلب البقر من الأمور الصعبة فلم تقم بها النساء بل كان يقوم بها الرجال .

وكان الرعاة خشنو المظهر يظهرون وكأنهم أنصاف متوحشين لبعدهم عن المدينة ، وكانوا يمثلون عراة أو بنقبة غريبة الشكل من النوع القديم المصنوع من القش المضغوط . وكانوا معروفين بالمهارة فى أعمال خاصة بالفلاحة ومتعلقة بها مثل صنع القوارب والحصر من الخوص وصيد

الطيور والأسماك ، ولم يكن متاع الراعى ليتعدى قدر كبير من الفخار وسلة تحوى أوانى صغيرة وبضعة حصر من البردى يصنعها بيده وهى فى نفس الوقت الغطاء الذى يلتحف به ليقيه الرياح العاتية والجو البارد . وكانوا ينتقلون بالقطعان من مكان إلى آخر فى مهارة غريبة وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى حمل الحيوان الرضيع فتتبعه الأم ويتبع هذه بقية القطيع - وكان أصحاب الضياع يمتلكون قطعانا كبيرة ولكنهم لم يفخروا إلا بالحيوانات الكبيرة فقط ولم يعنوا كثيراً بغيرها كالماعز والحمير والخراف - ولا تجد فى نقوش العصور القديمة مناظر تمثل قطعان الخنازير ولم تذكر هذه الحيوانات فى النصوص إلا نادراً ولا نعرف هل كان هذا الحيوان كثير الوجود فى مصر أم لا - ولا ندرى هل وجد منذ أقدم العصور أو أن وجوده لم يتعدى الأنواع البرية منه فقط.

وإلى جانب الحيوانات المستأنسة كانت تكثر بمصر الحيوانات البرية مثل الظباء والتياتل والوعول والغزلان ، وكان الظبى السمين يعتبر من الأطعمة الشهية ويمثل كقربان دائما - أما الطيور فكانت عديدة ولكن لم تعرف الدواجن ، وقد احترف صيد الطيور صيادون مهرة وكانوا يسمنونها بخيوط العجين مثل الماشية إلى جانب بعض الحبوب التى تنثر لها .

وللتمييز بين حيوانات القطعان المختلفة كثيراً ما كان يعمد أصحابها إلى وشمها بعلامات مميزة ؛ وكانت الحيوانات تحفظ فى حظائر نظيفة ، وقد وجدت آثار للأحجار المثقوبة التى كانت تربط اليها هـــذه الحيوانات - ويستدل منها على أن الحيوانات كانت تربط فى الحظيرة فى صفين متقابلين

بحيث تكون رؤوسها إلى الخارج مواجهة للجدار بينما تكون مؤخرة كل حيوان أمام مؤخرة الحيوان الآخر المقابل له .

وكان للأوز مكانة خاصة واعتبر حيوانا مدللا فى كثير من الأحيان حتى أن زوجة أحد موظفى معبد آمون اتخذت أوزة كحيوان مدلل تتبعها أينما ذهبت .

ورغم ما كان يبذله الفلاح من جهد ورغم أنه كان عماد الثروة فى مصر القديمة إلا أنه كان يعتبر مخلوقا بائسا يستحق الرحمة والرثاء، ويبين لنا خطاب أحد الكتاب لتلميذه مقدار ما كان يعانيه الفلاح من مرارة العيش فقد جاء فيه أن المحصول كانت تأكله الدود وإذا ما وضع فى فى الأجران فإن الفئران والعصافير تأتى على معظمه وعند تسليم المحصول لا يجد الفلاح لديه ما يكفى لما هو مطلوب منه فيضرب ويعذب .

الصناعـــة :

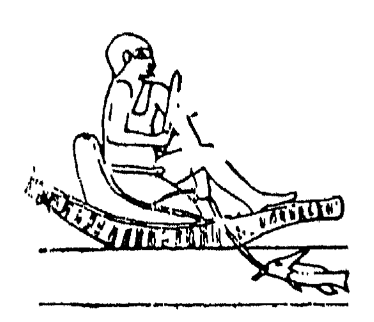
كان الاعتقاد السائد عند المصرى المثقف بأن الصانع كالفلاح كلاهما مخلوق بائس وأن حالة الصناع تدعو إلى السخرية فمن ذلك قول أحد شعراء الدولة الوسطى عن صناع المعادن بأن الحداد لايوفد كسفير لبلاده ولايؤدى الصانع رسالة، كذلك وصف الحداد بأنه يقف بجانب موقده وأصابعه مثل جـــلد التمساح ورائحته انتن من بيض السمك أما النجار فهو مرهق فى عمله دائم العناء - ولكن هذه النظرة لايمكن أن تكون عادلة لأن الصناع المصـــريين أخرجوا من آيات صناعاتهم مالايمكن أن ينتجه إلا كل شغوف بعمله أى أن إنتاجهم لم يكن مفروضا عليهم فى جميع الحالات وإن كانت بعض التقاليد

قد حتمت عليه قواعد خاصة ، إلا أن التفاوت فى الإتقان ووجود بعض النماذج التى يعجز عنها الصانع الحديث بإمكانياته الضخمة يجعلنا نعتقد أن الصانع المصرى كان يؤدى عمله برغبة واهتمام - وكثيراً ما كانت له فرصة للحرية فى اختيار بعض النماذج وابتكار ما يراه مناسبا عند إخراج قطعه فنية .

أما المواد الخام التى كان يتناولها الصانع فى صناعته فكانت مما تنتجه البيئة المحلية أو مما يستورده من البيئات المجاورة - وكانت العلاقات بين وادى النيل الأدنى ووادى النيل الأعلى (أى بين مصر والسودان) وبين وادى النيل وآسيا الغربية نشيطة منذ فجر التاريخ ، وقد تمثل التبادل التجارى بينها أو مايدل على هذا التبادل فى مقابر عصر ما قبل الأسرات إذ وجد بها العـاج وبعض المنتجات الصناعية التى تماثل ما وجد فى جنوب غربى آسيا ورغم أن الفيل كان يعيش فى غربى آسيا كما كان يعيش على حـدود الصحراء الغربية لمصر نفسها فإن من المسلم به أن العاج كان يأتى من النوبة وإن كان من الممكن الحصول عليه من هذه المصادر الثلاثة جميعا أى أن التبادل التجارى بين مصر وجيرانها فى عصور ماقبل الأسرات لايمكن إنكاره .

وإذا ما تأملنا البيئة المصرية نجد أن أهم المواد الخام فيها هى :

(١) البردى - كان هذا النبات يمثل عنصراً هاما للغاية إذ أنه دخل فى صناعات كثيرة - وأول ما يتبادر إلى الذهن فى هذا الشأن أن سيقان البردى استخدمت فى بناء الأكواخ وعمل القوارب (شكل ١٨) والحصر والسلال والحبال ثم النعال - كذلك كانت سيقان البردى تجمع فى حزم لتقوم مقام الأعمدة عند تسقيف المنازل أو عند رفع تعريشاتها الخفيفة



شكل (١٨) : زورق من البردى يجلس به صائد بالشص

أو لتقوية الجدران ، وكان من أثر استخدام البردى فى المبانى القديمة أن ظل المصرى يمثل سيقانه فى المبانى الحجرية حتى نهاية العصور الفرعونية، كذلك مثلت زهوره أيضا فى العمارة المصرية ، ومما يدل على أثر هذا النبات فى حياة المصرى أن زهرة البردى كانت تعتبر رمزا للوجه البحرى (بينما كانت زهرة اللوتس ترمز للوجه القبلى) - ثم استخدم البردى كذلك فى عمل صحف الكتابة وبالطبع كانت الكلمة اليونانية **Papyrus** الدالة على هذا النبات هى الكلمة التى اشتقت منها الكلمة الدالة على الورق أو الصحف فى معظم اللغات الحديثة حيث تسمى بالانجليزية **Paper** وبالفرنسية **Papier** .. الخ - وكانت طريقة عمل الصحف منه تتلخص فى قطع سيقان البردى إلى شرائح تلصق بعضها إلى جوار بعض طولا وعرضا وتطرق بشدة ثم تجفف ويقوى طرفها وإذا ما أريد عمل قرطاس للكتابة فإن طرفى هذا القرطاس يقويان ، وكان القرطاس لايستعمل مرة واحدة فقط بل كان من الجائز استعماله عدة مرات بعد أن تمحى الكتابة السابقة منه فى كل مرة - وكان البردى سلعة رئيسية فى الصادرات المصرية فى العهد اليونانى الرومانى .

(٢) الكتان — وهو يلي البردى فى الأهمية وقد وجد فى مصر منذ أقدم العصور بالنسبة لكثرة وجود المستنقعات بها . وجادت زراعته لوفرة الميـــاه — وقد استعمل فى أنواع مختلفة من النسيج منها الخشن والرقيق الشفاف حيث نهضت صناعة الغزل والنسيج منذ أقدم العصور ، وكان يحترفها الرجال فى معظم الأحوال — وكانت الأنوال المستعملة تتطور بتطور الزمن : ففى الدولة الوسطى كانت ساذجة والعمل عليها مرهقا لأنها كانت تحتم على النساج الجلوس فى هيئة القرفصاء ، أما فى الدولة الحديثة فكانت الأنـــوال من النوع المركب التى أباحت شيئا من الراحة للصانع الذى يقوم بالعمل عليها — وقد أشرنا فيما سبق إلى دهشة هيرودوت حينما وجد أن النساج المصرى كان يدفع بلحمة النسيج إلى الاتجاه المضاد للاتجاه المستعمل فى النسيج عند الشعوب الأخرى .

وكانت الطريقة التى يتبعهـــا المصرى فى صناعة الكتان تبدأ بجمع سيقـان هذا النبات ثم تمشيطهـا بعد التجفيف ثم تغلى السيقـان ليلين لحاؤها وتطرق بعد ذلك لإزالة هذا اللحاء وبعدئذ تندى الألياف بالماء ثم تفتل بمغزل — وقد اشتهرت الغزالات فى الدولة الوسطى بالبراعة ، وكان فتل الحبال من الصناعات المشهورة التى لقيت رواجا كبيرا — وبعد غزل الكتان كانت تؤخذ خيوطه للأنوال لنسجه حسب الطلب .

(٣) — الجلود — استخدمت الجلود فى الصناعة منذ أقدم العصور وكانت الجلود المستعملة لاينزع عنها شعرها الجميل مثل جلود الفهود أو الحيوانات التى كان جلدها أقرب إلى الفراء واستخدمت هذه الجلود فى عمل الملابس وظل استعمالها تقليديا بالنسبة لجلد الفهد ، إذ ظل مستعملا

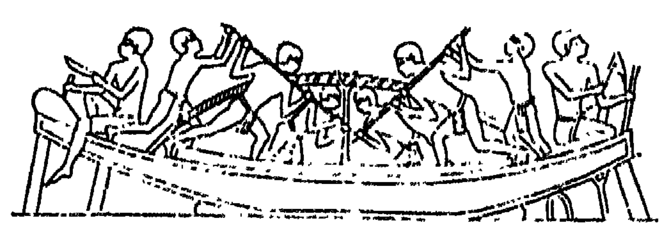
كزى للكهنة فى كل العصور الفرعونية تقريبا ـ كذلك استخدم الجلد فى الصناعات المختلفة مثل صناعة التروس والجعاب وعلب المرايا وفى صناعة أغطية الرأس وفى النعـــال والأحزمة ، وقد ظلت النقبة المصنوعة من الجلد لباساً للصيادين والرعاة ـ والجلد كمادة خام كان له تقديره الخاص فى نظر المصرى فاستخدم فى الكتابة ليدل على مدلولات خاصة : فالرمز الذى يصور عنزة بدون رأس أو جلد الحيوان بأكمله استعمل فى كلمات كثيرة وبمعانى مختلفة ، كما استخدم الرمز الدال على جزء من جلد الحيوان كمخصص فى كثير من الحالات وقد استعمل الرق الأبيض فى ملفات الكتابة كذلك .

(٤) الأخشاب : لم تعرف مصر الأنواع الجيدة من الأخشاب حتى أن بعض الأنواع المتوسطة كان يحافظ عليها بشدة ، ولعل هذا قد انتقل إلى المعاصرين فى الوقت الحاضر إذ كثيراً ما نجد أن الفـــلاح يتشاءم من قطع بعض الأشجار مثل التوت والجميز . وأهم الأنواع التى كانت شائعة فى مصر هى الجميز والنخيل والدوم والإثل والسنط وكلها أنواع غير جيدة ـ أما الأخشاب الجيدة فكانت تستورد من الخارج مثل الأرز الذى كان يجلب من لبنان ، وكثيرا ماكان المصرى يلجأ إلى محاكاة الخشب الثمين بتغطية الأخشاب المحلية بطبقة من الألوان أو بطبقـة من الجص الملون .

وكان النجار وهو من أهم الصناع فى مصر يستعمل أدوات بسيطة من النحاس أو البرنز يستعين فى تثبيت أجزائها بسيور من الجلد ـ وبهذه الآلات (رغم بساطتها) أمكن للنجار أن ينتج كثيراً من روائع فنه وصناعاته الدقيقة

والضخمة فقد تمكن من عمل المراكب والمركبات وأجزاء المنازل والأثاث والأسلحة والتوابيت وغيرها .

وبالطبع لم يكن فى استطاعة المصرى الحصول على ألواح كبيرة عظيمة الطول سواء من بيئته المحلية أو من الأخشاب المستوردة فكان يتحايل على ذلك بلصق الألواح الصغيرة جنبا إلى جنب ، وكثيراً ما كان يزخرف صناعته فيحفر الخشب ويطعمه بالعاج أو بالابنوس أو أن يملأ الحفر بمادة ملونة . وإذا ما تأملنا المراكب المصرية فإننا نجد أنها تتقوس من الطرفين وقد توصل المصرى إلى تقويس الخشب بطريقة بسيطة للغاية تتلخص فى أنه كان يضع عاموداً اسطوانيا فى وسط القارب ينتهى من أعلى بفرعين يثبت بينهما حبل ويوصل طرف كل فرع بطرف القارب المقابل له ثم توضع عصا فى الحبل الموصل بين الطرفين وبإدارة العصا تضيق المسافة بين الفرعين وبالتالى يشد طرفاهما طرفى القارب نحو الداخل (شكل١٩) .



شكل (١٩) : طريقة بناء السفن

وكان العاج والابنوس من المواد التى كثر استخدامها فى صناعة الأثاث ولكنهما كانا يعتبران من المواد الثمينة وفى العصور المتأخرة وخاصة فى العصر اليونانى الرومانى كان نوع من الكرتون يستخدم فى صناعة الأقنعة التى كانت توضع على وجه المومياء وتزود بعيون صناعية من الأحجار

الثمينة فكانت تحاكى وجه الميت تماما، بعد أن كانت هذه الأقنعة تصنع أولا من قطع من الكتان وتلصق بعضها فوق بعض ثم تغطى هـذه بطبقة من الجص .

(ه) الفخار - عرفت خامات الفخار فى مصر منذ أقدم العصور وكان لهذه الصناعات أثر بالغ فى الحضارة المصرية إذ أن حياة الاستقرار تطلبت أن يقوم الانسان بحفظ حاجياته ، وكان المصرى محظوظا فى بيئته لأن النيل كان يجلب الطمى فى كل عام فصنع منه الأوانى اللازمة لحفظ أطعمته، ولابد أنه فى أول الأمر كان يصنع تلك الأوانى من الطمى دون حرقه، أى أنه لم يعرف الفخار دفعة واحدة - وربما كان الجفاف الذى تتعرض له تلك الأوانى سببا فى معرفة المصرى بأنها تزداد صلابة وتماسكا كلما تعرضت لإرتفاع درجة الحرارة إلى أن توصل إلى أن الحرق يزيد من صلابتها وتماسكها ، ومازالت صناعة الفخار حتى الآن تجد سوقا رائجة فى البلاد .

ويبدو أن صناعة الفخار فى مصر لم تتأثر بمؤثرات خارجية كثيرة فى أوائل الأمر بل ولم تستخدم آلات لصناعتها إذ لم تكن هذه معروفة بعد ، ومع أنها كانت تصنع باليد فإن الفخار الذى وجد من حضارة البدارى وهو يمثل تلك الصناعة اليدوية يعد من أعظم الأوانى التى عرفت فى تاريخ مصر بأكمله من حيث الجودة والاتقان . وبعد ذلك عرفت العجلة وكثر إنتاج الفخار فأصبح تجاريا وبدأ يفقد الدرجة الرفيعة التي وصل إليها من قبل في الدقة والاتقان .

وقد نشأت تبعا لهذه الصناعة صناعات بسيطة فمثلا وجدت قواعد خشبية لهذه الأوانى أو كانت تصنع حلقات من الفخار لترتكز عليها،

كما أن تلوين الأوانى الفخارية وزخرفتها قد أوجدت مجالا لصناعة فنية فمن الأوانى ماكان يكتفى فيها برسم خطوط محفورة تجعلها تحاكى السلال ومنها ماكان يلون بألوان تجعلها تحاكى الأوانى الحجرية - ومن الأوانى الفخارية كذلك ماصنع فى هيئة الحيوانات أو فى أشكال خيالية ، كما كانت صناعة الترجيج أو القاشانى معروفة منذ فجر التاريخ - وقد نشأت هذه الصناعة فى مصر ولكن لايعرف كيف توصل لها المصرى بل ولا نعرف المواد التى بدأ بها المصرى هذه الصناعة ، ونجد أمثلة لصناعة الزجاج نفسها فى العصور التاريخية - وكان هذا الزجاج ينفخ بأنابيب من الفخار يحمى طرفها من الاحتراق غشاء من طمى النيل .

(٦) صهر المعادن - لم يعثر على نماذج للكور فى الدولة القديمة أو الوسطى ولكنه وجد فى الدولة الحديثة ، وقد عرف النحاس والبرنز منذ أقدم العصور - وكانت سيناء هى المورد الذى جاء منه النحاس الذى استخدم بكثرة منذ أقدم العصور ، وكان البرنز أكثر استعمالا منه بالطبع فلصلابته استغل فى صناعة كثير من الآلات ، أى أن المصرى عرف خلط المعادن منذ أقدم العصور وكان أغلى مايستخدمه منها هو مزيج من الذهب والفضة بنسبة ٢ : ٣ يعرف باسم الالكترون - وكان الذهب مستعملا فى الحلى منذ الدولة القديمة وكانت قيمته كبيرة وبلغ الصانع فى صناعته درجة كبيرة من المهارة - ولقيمة هؤلاء الصناع فى الأوساط المصرية اعتبر المشرف على الصياغ مشرفا على الفنانين فى مصر العليا والسفلى ولقب كذلك بأنه هو الذى يعرف الأسرار فى بيوت الذهب - كذلك عرف المصرى صناعة الميناء ، أى خيوط الذهب المغطاة بطبقة زجاجية كما عرف التمويه بالذهب ، ومع هذا كانت الفضة أغلى من الذهب وذلك لندرتها

نسبيا مع أنها عرفت قبل الذهب وكان المصري يقسم الذهب إلى أنواع حسب المورد الذي يؤخذ منه : فهناك ذهب مياه وذهب جبال وذهب بلاد النوبة ، وكان غسيل الذهب والعمل في المناجم من أشق الأعمال ولذا كان الأسرى أو العبيد يقومون بها ويشرف عليهم الجنود ورؤساء البعثات ـ وقد لاقى المعدنون الكثير من الأهوال دون شك وأخطر هذه كانت ندرة المياه فى الطرق المؤدية إلى المناجم ، وكثيرا ما كانوا يستنفدون الجزء الأكبر من طاقة الحمل عند الدواب فى حمل المياه اللازمة لهم ولذلك نجد رعمسيس الثانى يفتخر بأنه نجح فى حفر بئر فى الصحراء حيث أخفق والده سيتى الاول فى مثل هـذا العمل ، كذلك بلغ الاهتمام بالذهب أن عملت التخطيطات والرسوم التى تبين موقع مناجمه فقد عثر على بردية من عهد سيتى الأول رسم بها تخطيط لموقع مناجم الذهب فى وادى مياه ، وتعد هذه أقدم خريطة فى العالم .

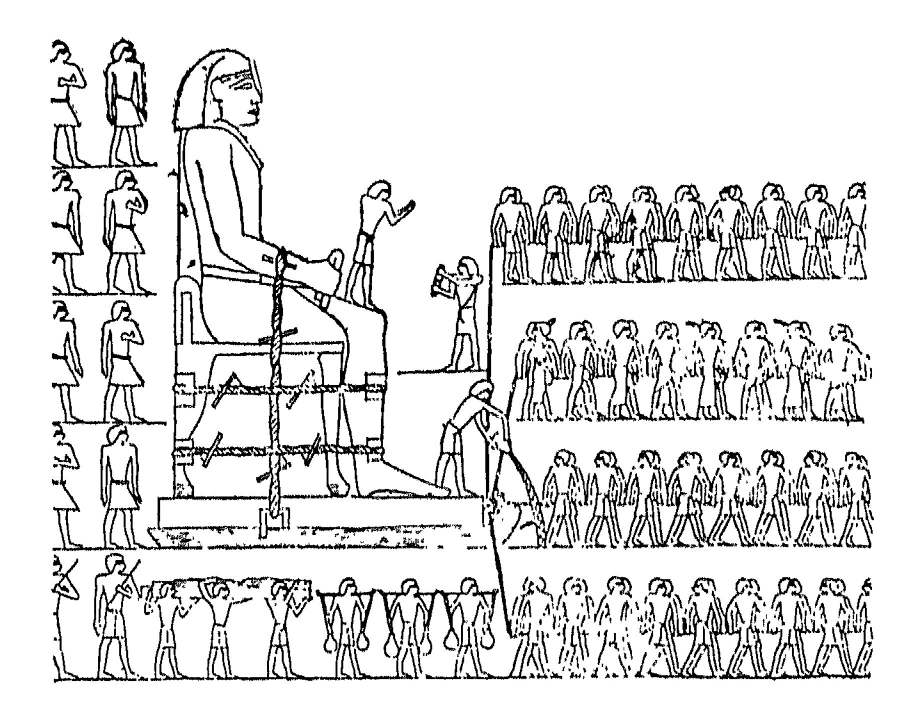
وقد عرف الحديد منذ العصر الباكر ولكنه لم يستعمل فى الصناعة إلا فى عهد الدولة الحديثة وربما كانت صعوبة الحصول عليه هى السبب التى جعلت استخدامه عسيرا ـ وقد قصر استعماله على رؤوس السهام وبعض أدوات القتال .

(٧) الاحجار ـ كانت الأحجار التى استخدمها المصرى كثيرة متعددة ، ويعد الحجر الجيرى الحجر الخالد فى حياة المصرى إذ بنيت منه المعابد والمقابر والهياكل المختلفة كما نحتت منه التماثيل وصنعت منه الاوانى واللوحات وغيرها ـ واستخدم الصوان منذ أقدم العصور فى صنع الادوات والاسلحة ، أما المرمر فقد استخدم فى البناء وصناعة الأوانى واستخدم الحجر

الرملي فى البناء، ولشدة صلابته استخدم كذلك فى صناعة التماثيل ـ وكان الجرانيت من الاحجار العظيمة الاهمية لأنه كان الحجر الفخم الذى زينت به المعابد وعملت منه المسلات والتماثيل والأوانى، وكثيرا ماكان يستخدم فى تكسية الجدران فى المبانى الهامة .

وقد استغلت المحاجر الموجودة فى أماكن متعددة من القطر مثل طره وسلسلة وحمامات وأسوان وحتنوب ـ وكان نقل الاحجار من هذه المحاجر يتطلب جهداً وعناية فائقتين، وكان الموظفون المنوط بهم نقل هذه الاحجار يصلون إلى مراتب رفيعة ويعتبرون الاشراف على نقل الاحجار من الألقاب الشرف الكبيرة التى يعتزون بها ـ وكانت البعثات المكلفة بنقل الاحجار ضخمة العدد، فمثلا نعلم أن بعثة قامت لهذا الغرض فى عهد رعمسيس الرابع كانت تتألف من ١١٠ ضابط من مختلف الرتب و ٥٠ من الموظفين المدنيين و ١٣٠ من البنائين و مصوران و ٤ نقاشين و ٣ رؤساء مبانى ومشرف على الفنانين و ٥٠٠ جندى عادى و ٢٠٠ جندى من صيادي السمك للبلاط و ٨٠٠ رجل من الفرق المساعدة السورية و ٢٠٠٠ من عبيد المعابد ويراقب سلوك هؤلاء ٥٠ من رجال الشرطة أى أن البعثة كانت حوالى ٨٠٠٠ رجل ـ وكان الأسرى الأجانب يقومون بعملية النقل وهى عملية شاقة عسيرة وخاصة عند نقل الأحجار الضخمة، وقد وضحتها بعض النقوش وخير مثال لذلك نقش فى إحدى مقابر من الدولة الوسطى يبين كيفية نقل تمثال تحوت حتب أمير البرشة (شكل ٢٠) .

وقد تفنن المصرى فى صناعه الأوانى من الحجر واستخدم فى ذلك الأحجار الصلبة الجميلة التكوينات ، وكثيرا ما كان المصرى يقوم بتقطيع



شكل (٢٠) : منظر فى مقبرة بالبرشة
يمثل نقل تمثال ضخم

الأحجار الثمينة ، الكريمة ونصف الكريمة ، مثل الزمرد والأماتيست وغيرها من محاجر خاصة .

المواصلات والتجارة :

أشرنا فيما سبق إلى أن النيل هو أهم مظهر فى الحياة المصرية فهو الذى يسر الاتصال بين أجزاء البلاد المختلفة وقد استخدم المصريون للتنقل فيه زوارق صغيرة من سيقان البردى تدفعها مرادى ذات شوكتين ،

وهذه الزوارق عبارة عن حزم من البردى شد بعضها إلى بعض توضع فى وسطها كتلة من الخشب أو تفرش بالحصير ـ أما السفن الكبيرة فكانت تصنع من الخشب وتزود بمجاديف ، وقد وجدت صورها منذ أقدم العصور على الأوانى الفخارية وعلى جدران إحدى المقابر فى هيراكونبوليس من عصر ما قبل الأسرات وكانت تزود بشراع مربع الشكل أو مستطيل يثبت إلى السارى بعوارض مستقيمة ـ وقد تقدمت صناعة السفن واختلفت أشكالها ولكنها كانت على العموم تزود بقمرتين ، وكان ارتفاعها فى مؤخرتها كارتفاعها فى مقدمتها وذلك لكى يسهل تزويد من يدفعها بالمرادى بسند جيد يدفعها منه أو ليكون كدعامة لتدعيم مكان المجداف الطويل الذى يقوم مكان السكان .

وإذا ما تأملنا خريطة القطر المصرى لوجدنا أن النيل يمتد من الجنوب إلى الشمال فى اتجاه مستقيم ـ وكان المصريون يلازمون النهر ، أى أنهم كانوا موزعين على جانبيه باستثناء الدلتا التى كثرت بها المستنقعات فكانت الحركة فى النهر من الشمال إلى الجنوب تتطلب استخدام الشراع الذى تدفعه الرياح التجارية الشمالية الشرقية السائدة بينما كان تيار النهر كافيا لدفع السفن من الجنوب إلى الشمال ، وفى هذه الحالة كان من الممكن إناخة السارى ونزع العوارض التى يثبت بها الشارع ثم يلف الشراع ويطوى .

وفى الدولة القديمة كانت السفن تختلف فى الأشكال والغرض التى تستعمل من أجله فمنها السفن العريضة وسفن تجر غيرها أو سفن يجرها غيرها ـ وكان للسفن الفاخرة قمرة كبيرة لايسمح معها بوجود الشراع ، كذلك لم تكن سفن الشحن مزودة بقمرات إذ كان كل فراغ يستغل

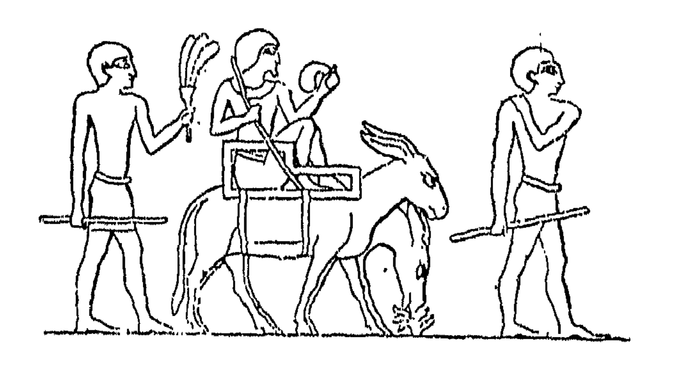
فيها للنقولات ـ وكانت هناك قوارب خفيفة للشحن يديرها ملاح واحد وهى لنقل الأثقال الخفيفة ، وكانت غالبا تتبع سفينة الشريف وحاشيته كقوارب الزاد مثلا ـ ومن الشائع جر السفن باللبان (الحبل) الذى كان يربط إلى قائم فى مقدمة المركب، وكانت مراكب الشحن الكبيرة التى تنقل الأثقال الضخمة لا تستعمل الشراع أو المجاديف بل كان يجرها الرجال أو تجرها سفن أخرى ومثل هذه السفن المعدة للنقل كانت تنقل الأحجار فى كافة عصور التاريخ .

وقد تطورت السفن فى أشكالها تطورا عظيما فى عهد الدولتين الوسطى والحديثة وزخرفت بكثير من الزخارف وخاصة سفن الرحلات والحملات البحرية التى تميزت عن سفن النيل فى بنائها نظراً لما كانت تتعرض له فى أسفارها الطويلة ـ وقد أشارت بعض الأساطير والقصص إلى ما كان يتعرض له المسافرين فى البحر من المخاطر ومن أمثلة ذلك قصة الملاح الغريق .

أما المواصلات البرية : فكانت أقل شأنا من مواصلات النهر وذلك لأنها لم تكن وسيلة مجدية أو اقتصادية فى نقل البضائع الكبيرة الحجم و العظيمة الوزن ولهذا ظلت دون تطور يذكر ـ وقد استخدم الأشراف فى تنقلاتهم محفات هى عبارة عن مقاعد يمكن حملها والشريف جالس فيها ، وكانت تزود أحيانا بمظلة وكثيرا ما نجد أن المحفة كانت توضع فوق حمارين متجاورين (شكل ٢١) ، او يحملها بعض الرجال ـ وكان الحمار أحسن وسائل النقل الشعبية ، ومع هذا لم يمثل المصرى وهو يركب الحمار ولكننا نشاهد هذا الحيوان فى النقوش وهو ينقل الحاصلات الزراعية وما شابهها ـ ولضخامة الدور الذى يقوم به هذا الحيوان فى مصر القديمة قال بعض العلماء أن الحضارة المصرية بأكلها قامت على ظهر الحمار

فهو الذى ساهم بجهوده فى كافة الأعمال التى هيأت هذه الحضارة.

وفى الدولة الحديثة أبطلت المحفة والحمار وإن ظلت المحفة تستخدم فى الحفلات فقط أو فى مناسبات خاصة ، وقد استعيض عن ذلك باستخدام



شكل (٢١) : نبيل على محفة يحملها حماران

المركبات ـ ولم يستعمل الحصان وحده إلا فى بعض الحالات الضرورية الملحة لأننا لم نعثر إلا على أمثلة نادرة لنقوش تصور إنسانا وهو يركب الحصان ، وربما كان ذلك فى حالة قهرية كفرار من معركة حربية أو لمهمة سريعة كطلب نجدة أو غيرها .

ويغلب على الظن أن عربات ضخمة تجرها الثيران كانت تستخدم لنقل الزاد والأمتعة لعمال المناجم ، أما المركبات فكانت غالبا للسفر والصيد والحرب .

ولا ينبغى أن يتبادر إلى الذهن بأن الاتصال كان ميسرا دائما ، ولا يصح أن نفهم بأن المصرى كان كثير التنقل إذ يبدو أن الرحلات كانت قاصرة على نطاق ضيق فكان كل إقليم يتصل بجيرانه مباشرة ولكن إلى جانب

ذلك كان البيت المالك يعمل على تيسير الاتصال بالأقطار المجـــاورة ويشجع هذا الاتصال كما أن الحاجة الملحة إلى بعض المواد الخام كانت تضطر فئات خاصة من السكان إلى القيام بدور الوسيط التجـــارى بين البيت المالك وبين الأقطار المجاورة لمصر وخاصة في الجنوب ، ومن أمثلة ذلك أمراء اليفانتين الذين قاموا برحلات محفوفة بالمخاطر لكى يتبادلوا التجارة مع أهل البلاد الجنوبيـة وليحصلوا للفراعنة على الحـاصلات التى يرغبونها ويقدرونها وكان من أثر هذا أن عظم شأن هؤلاء الأمراء وأصبحوا يتمتعون بنفوذ كبير فلم يخضعوا إلا للملك مباشرة ، وكانوا يذهبون إلى منف للاستماع إلى أوامر الملك قبل القيـام بأية رحلة أى أنهم كانوا يتلقون تعليماتهم منه مباشرة ـ كذلك كان أرز لبنان من العوامل التى شجعت المصريين على المخاطرة بالذهاب إلى شرق البحر المتوسط ، وقد شجع هذا على غزو تلك الأقطار فى الدولة الحديثة .

وإذا كنا قـــد ذكرنا بأن الاتصال لم يكن نشيطا إلا بين الأقاليم المتجاورة وأن المصرى لم يتصل بالاقطار الاجنبية إلا للحصول على سلعها المختلفة ، أى أن هذا الاتصال حددته عوامل سيـاسية واقتصادية مختلفة فإننا من جهة أخرى نرى بأن الاتصال بالرسائل والمكاتبات كان أكثر نشاطا ـ ويبدو أنه لبعد المسافات وجدت طائفة من الرسل الذين كانوا فى خدمة الخـاصة من الشعب حيث يشير أحـدهم فى رده لأحد زملائه بأن غلامه لم يصل بعد ، وتشير إحدى المكاتبات إلى أن الغلام اضطر لتخفيف حمله فألقى ببعض الحاجيات أو تخلص منها أى أنه كان هناك اتصال ثابت مستمر ورسل منتظمون ـ ولاندرى هل كان هؤلاء الرسل

موظفين أو أن مثل هذه الوظيفة لم يكن لها وجود ، وعلى أى حال إذا كانت هذه قد وجدت ضمن وظائف الدولة فإن ذلك لم يحدث إلا فى عصر متأخر ـ وكان الرسل عادة يحملون بعض الهدايا والسلع الخفيفة

ولما كانت البيئة المصرية تتشابه فى معظم جهاتها فإن الفرصة للتبادل التجارى على نطاق واسع لم تكن ميسورة ، وعلى هذا كانت التجارة الداخلية ضعيفة لتشابه الحاصلات بين إقليم وآخر وليس كما يظن بعض الأثريين بأن صعوبة المواصلات هى التى حالت دون ازدياد النشاط التجارى .

التجارة والتجار :

أخطأ بعض الأثريين ومن بينهم إرمان Erman فى الزعم بعدم وجود ذكر للتجار فى النصوص المصرية لأننا نعلم بأن الرحالة فى الدولة القديمة كانوا يذهبون إلى النوبة للتبادل التجارى ولا يغير قيامهم بهذا العمل لحساب الملك من حتمية أنهم كانوا تجاراً ، كذلك تشير قصة الملاح الغريق إلى أنه كان هو الآخر يقوم برحلته للتجارة ، وقصة الفلاح الفصيح تدل هى الأخرى على أنه كان يتاجر فى بعض سلع وادى النطرون ، ولا تخرج رحلة بونت التى حدثت فى عهد حتشبسوت عن كونها رحلة تجارية قامت بها بعثة ملكية ـ ولكن رغم هذا لم يكن للتجار كيان واضح فى النصوص المصرية .

والغريب أن التبادل التجارى فى الأسواق المحلية كان يتم عن طريق المقايضة وقد ظهرت له صور فى عهد الدولة القديمة أما فى الدولة الوسطى فلم توجد أمثال تلك الصور ، وفى الدولة الحديثة تعود صور المقايضات إلى الظهور ولكنها كانت تحدث فى الموانى الكبيرة بجوار مكان رسو السفن .

ومن الطبيعى أن المقـــايضة لم تحدث دون الاصطلاح على أساس وحدة للقيمة ، وهذه الوحدة وإن لم تكن موجودة من الناحية العملية فإن الأشياء كانت تقدر بالنسبة لها من الناحية النظرية ـ وعلى هذا يمكن القول بأن أساس (سعر) المقايضة كان ثابتا ، والوحدة التى شاع استعمالها عرفت باسم « دبن » وهى تساوى ٩١ جراما من النحاس فكان الثور مثلا يقدر بنحو ١٢٠ دبنا والحمار بنحو ٤٠ دبنا أى أنه كان من الممكن مقايضة الثور نظير ثلاثة حمير .

وكانت الحاصلات التى يرغب فيها المصرى من الأقطار الأجنبية هى القردة وخشب الأبنوس والعاج وجلود الفهود وهى تأتى من النوبة وهنا نلاحظ أن البفانتين التى كانت تمثل إحدى مدينتى الحدود بين مصر والنوبة كان يطلق عليها اسم « آبو » أى العاج أما المدينه الثانية فهى « سونت » أى « السوق » وهى أسوان الحالية ومن موارد النوبة الأخرى العبيد والذهب والحيوانات والخشب وريش النعام ـ وكان المصرى يأتى بالنحاس من مناجم سينا كما يجلب الأحجار من محاجر وادى حمامات والأحجار الثمينة ونصف الكريمة من الصحراء الشرقية ، أما بلاد بونت فكان يأتى منها البخور ـ ويأتى من البلاد الشمالية مثل لبنان بالأرز والأسلحة ، وكان بدو فلسطين يجلبون الكحل والعطور إلى مصر وكذلك الوعول ـ ومنذ عهد الدولة الحديثة وردت المنتجات السورية إلى مصر بكثرة كما كانت مصر ترسل الذهب إلى الملوك الموالين لها .

العلوم والآداب

عرف المصرى بحبه للعلوم وتقديره لها وكان ينظر إلى مركز العالم أو الكاتب نظرته إلى الشخص المحترم الذى يحكم بنفسه أما من عداه من الطبقات الأخرى فكان يحكمه غيره ، وربما كان هذا التقدير راجعا إلى عظم شأن الكتاب حيث كانوا يرتفعون سريعـــا ويتقلدون أعظم المناصب وأرفعها — ويقول أحد الكتاب فى ذلك أن الرجل المحظوظ هو الذى يضع العلم فى قلبه ، وعند مناقشته لمهنة الكتابة فضلها عن كل ما عداها من المهن الأخرى وذكر بأن الكاتب قد يصبح أمـــيراً حكيما — وكان المصرى يعتقد بأن الكاتب يصل إلى الإله تحوت الذى بيده العلم وينير له السبيل ولذا كان الكاتب إذا ما وصل إلى مرحلة حاسمة فى حياته يقوم بعمل تمثال لنفسه وهو يكتب أمام تمثال لهذا الاله .

وإذا ما أردنا أن نتعرف السبيل الذى كان يسلكه المصرى فى التعلم فإننا نلاحظ أن بيوت التعليم أوالمدارس كانت فى أول الأمر تلحق بالبلاط وكان يتعلم فيها الامراء والنبلاء ويندمج معهم بعض أفراد عامة الشعب أيضا — أما فى الدولة الحديثة فكانت المدارس تلحق بمختلف أقسام الحكومة، وعلى ذلك كان التلاميذ فى هذه الاقسام يتمثلون فى طائفتين : طائفة الصبية وطائفة المرؤوسين — وقد يغير التلميذ اتجاهه بعد أداء الخدمة العسكرية فمثلا كان «باك أن خنسو» رئيسا للاسطبلات الملكية قبل أن يصبح كبيراً للكهنة أى أنه فى سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة كان رئيسا للاسطبلات ثم تحول بعد ذلك لدراسة اللاهوت .

وكان النظام المدرسى عنيفا قاسيا والدراسة تنتهى فى منتصف النهار تقريبا وكان من المعتاد أن تذهب الأم بطعام ولدها إلى المدرسة ، وهو يتألف غالبا من إناءين من الجعة تحضرها الأم من المنزل ، ومن مبادىء التربية فى ذلك العهد أن « أذنا الطفل على ظهره لا يسمع إلا إذا قرع عليها » ، ومن هذه المبادىء أيضا أن « الإنسان استطاع أن يستأنس الحيوان ويخضعه فحيوان « كارورى » الذى استقدم من النوبة تعلم فهم اللغة والأسود أمكن تعليمها وترويضها والخيال استؤنست وذللت والصقور تعلمت فلماذا لا يتعلم الكاتب الشاب الصغير بنفس هذه الطريقة ؟ »أى أن العنف والشدة كانا يستخدمان فى التعليم وكثيراً ما نجد فى البرديات المختلفة تكراراً للتنبيهات التى يجب على الشباب مراعاتها فى مهنته ككاتب ، وفى الكراسات التى عثر عليها والتى كان يكتب فيها التلاميذ نسخت قواعد الحكمة والسلوك من نماذج قديمة وهى فى صورة توجيهات من حكيم قديم أو خطابات من أستاذ إلى تلميذه .

أما الأدوات المستعملة فى الكتابة فكانت عبارة عن أقلام من البوص تبرى أطرافها ، وكان لا بد للكاتب من أقلام احتياطية يضعها خلف أذنه أما الألواح فكانت عبارة عن ألواح من الخشب تغطى بطبقة رقيقة مصقولة من الجص يسهل محو الكتابة منها ـ ولم يستعمل البردى إلا الكتبة المتمرنين ، هذا وكان الكتاب يستعملون لوحة بها قدحان صغيران للحبر الأسود والأحمر وبقية اللوحة عبارة عن صندوق أنبوبى لوضع الأقلام ويضاف إلى ذلك قدح للماء ، وكان الكاتب المتدين يصب بعض هذا الماء كقربان للإله تحوت قبل البدء فى الكتابة .

وكان التلاميذ يهتمون اهتماما بالغا بكراساتهم وكانت تدفن معهم وقد احترم المصرى الكتابة وقدسها واعتبرها أساس كل تعليم وثقافة وأنها من اختراع الإله تحوت الذى علمها للمصريين .

وكانت الكتابة فى بداية أمرها تصويرية بحتة ، أى أن المصرى كان يعبر عن الأشياء المرئية بصورتها ، ولهذا كان من الصعب التعبير عن الأشياء غير المرئية أو عن الأفعال والحروف والظروف ـ ثم أمكن التعبير عن المعنى المراد برسم الرمز الذى يتفق فى النطق مع المعنى المقصود مع إضافة مخصص يبين نوع المعنى المراد ـ وتلى ذلك تطور آخر هو استعمال الرمز كجزء من الكلمة وبذلك ظهرت الكتابة المقطعية ، وهذا يدل على أن الكتابة بدأت تتخذ شكلا يقرب من الكمال حيث توصلوا من هذه الخطوة إلى إختراع الهجائية ـ ومع ذلك لم يستعمل المصريون الهجائية وحدها بل كانوا يكتبون بالرموز فى كل وظائفها السابقة ، بل وكان شكل الكتابة نفسها يختلف على حسب الحاجة وعلى حسب المادة التى كتبت عليها فكانت الهيروغليفية ـ وهى أول صورة للكتابة ـ تكتب على جدران المعابد والمقابر وفى اللوحات أى أنها كانت كتابة زخرفية وتتفق مع طابع الفن المصرى القديم الذى ظل مرتبطا بها حتى نهاية العصور الفرعونية فكانت أشكال الاشخاص والمخلوقات الأخرى يعبر عنها فى النقوش والتماثيل بصورة مماثلة لما تظهر به فى هذه الكتابة .

ومنذ الدولة القديمة وجد المصرى أن كتابة الهيروغليفية تستغرق وقتا وجهدا كبيرين كما أنها تشغل حيزا لايستهان به فلجأ إلى استعمال كتابة مختصرة ، أى أنه اختصر الرموز الهيروغليفية إلى أشكال أكثر بساطة ليوفر

الجهد والمساحة اللازمين واستعملت هذه الكتابة الجديدة المختصرة فى كتابة الأدبيات وفى الدواوين وفى المعاملات وما أشبه ذلك ، وتعرف هذه باسم الهيراطيقية — ولما تعقدت مطالب الحياة وانتشرت المعاملات التجارية وغيرها وازدهرت الحضارة وتطورت فى عهد الدولة الحديثة وما بعدها ظهرت كتابة أخرى مختصرة عن الهيراطيقية وهى شديدة الاختزال ، استعملها العامة فى معاملاتهم وكتبت بها بعض البرديات القانونية والأدبية ، وهذه هى الكتابة الديموطيقية التى ظهرت على الأرجح فى بداية العصر المتأخر من مصر الفرعونية — وفى نفس الوقت تقريبا أو بعده بقليل استعمل المصرى كتابة جديدة أخرى هى الكتابة القبطية ، وربما كان ذلك للرغبة فى التيسير على الجنود المرتزقة اليونانيين الذين وفدوا بكثرة على البلاد ، فقد كتبت هذه الكتابة بحروف يونانية مع إضافة سبعة أحرف لاستكمال الهجائية اليونانية بما يفى بنطق سائر الأصوات السامية — وبالطبع يعتبر إطلاق لفظ اللغة القبطية على هذه الكتابة تجاوزا ، فهى لغة مصرية كتبت بحروف يونانية وحروف أخرى أضيفت اليها مع إدخال بعض ألفاظ قليلة من اليونانية .

وعلى إثر ظهور الكتابة تقدمت العلوم والفنون بالطبع وظهرت النظريات الفلسفية العميقة فى اللاهوت وفى الديانة ، كما أن من المرجح أن الكتابة ساعدت أيضا على اختراع التقويم وإن كان من المحتمل جداً بأن المصرى قد توصل إلى تقسيم السنة إلى فصول قبل معرفته للكتابة ولكنه لم يضع الاسس الثابتة لهذا التقسيم إلا بعد أن عرفها — وكانت السنة المصرية تبدأ فى التاسع عشر من شهر يوليو أى أن هذا اليوم

كان يمثل رأس السنة بالنسبة للمصريين وقد عرف هذا بحلول الفيضان فى مثل هذا الموعد من كل عام وهو ما كان يتفق كثيرا مع ظهور نجم الشعرى اليمانية الذى يعاود ظهوره كل ٣٦٥ يوما، فقسم المصرى السنة إلى اثنى عشر شهراً كل منها ثلاثين يوما وأضاف اليها فى النهاية خمسة أيام أطلق عليها اسم الشهر الصغير؛ كما قسم السنة إلى ثلاثة فصول هى فصل الفيضان وفصل الزرع وفصل الحصاد (أو الجفاف)، وقسم اليوم إلى ساعات الليل وساعات النهار . وتوصل إلى معرفة ساعات النهار بقياس الظل على سطوح مستوية أى عرف ما يشبه المزولة ، كما وجدت لديه ساعات مائية لقياس الزمن فى الليل غالبا ، وهذه كانت عبارة عن أوانى مملوءة بالماء الذى ينظم تصريفه منها بحيث تفرغ محتويات الإناء فى اثنتى عشرة ساعة . كذلك قسم الليل إلى اثنتى عشرة ساعة ورصد الكواكب التى تظهر فى تلك الساعات وسمى بعض النجوم بأسمائها أو على العكس سمى الساعات بأسماء النجوم التى تظهر فيها . وقد اعتقد المصرى بوجود أيام سعيدة وأخرى منحوسة وأشار إلى ذلك كثيراً فى النصوص ، كما أنه كان يعتقد بأن من يولد فى أيام معينة يصاب بأمراض معينة وهكذا لجأ إلى السحر واعتقد فى قوته ونفعه ، وكان من أثر هذا أيضا أن اختلط السحر بالطب فلم يخل الطب من السحر فى معظم الأحيان حتى أصبح فى واقع الأمر مزيجا من التعاويذ والطب العملى .

وقد وردت لنا أسماء بعض مشاهير الأطباء ولكن إذا ما تأملنا وظائف هؤلاء نجد أنهم كانوا يجمعون بين البيطريين والبشريين والسحرة فى نفس الوقت، ومع كل كان الطب يسير على أساس سليم لأن المصرى اهتم كل الاهتمام بتشخيص المرض حيث كان يرى أن العلاج الناجح لا يمكن وصفه إلا بمعرفة الداء تماما . وقد وصل إلى درجة رفيعة فى علم التشريح وربما كانت معرفته للتحنيط

السبب في نجاحه الذى أحرزه فى هذا المضمار - أما العقاقير فكانت فى غالبيتها نباتية والقليل منها من أصل حيوانى، وكثيراً ما نجد من بين هذه العقاقير ما تعافه النفس وتشمئز منه ولا ندرى سببا لاختيار المواد التى كانت تركب منها العقاقير وربما كان معظم هذا الاختيار مبنى على على أصل خرافى إذ كثيرا ما نجد أن من بين هذه المواد مالا يمكن أن نتخيل استعماله لبشاعته.

أما فى الرياضيات فقد وصل المصرى إلى نتائج عظيمة فى المقاييس والمساحة والحساب وإن كان قد توصل إلى هذه النتائج بطريقة ساذجة فمثلا فى عمليات الضرب والقسمة كان يسير خطوة خطوة بطريقة بدائية فمثلا عند ضرب ٥ × ٨ يصل إلى النتيجة باحتساب تكرار العدد ثمانية من مرة واحدة إلى خمس مرات.

أما فى حالة القسمة فانه كان يتساءل عن المقدار الذى إذا ضرب فى المقسوم عليه ينتج العدد المقسوم، أى أنهم يصلون إلى خارج القسمة بضرب المقسوم عليه فى أعداد صغيرة محاولين الوصول إلى خارج القسمة من جمع الأرقام الصغيرة التى تقابل فى المجموع العدد المقسوم.

أما فى الأدب فإن من الممكن القول بأن الكثير من أدبنا الشعبى الحديث يرجع فى أصله إلى الأدب المصرى القديم، وكثيرا ما نجد أن التشابه شديد بين قصصنا الشعبى الحديث وبين القصص فى الدولة الوسطى فمثلا قصة الملاح الغريق التى تذكر بأن ملاحا كان راحلا فى بعثة تجارية كسر قاربه وتعلق بقطعة من الخشب ووصل إلى جزيرة خالية من السكان كانت تسكنها حية ضخمة حملته إلى المكان الذى تعيش فيه - وقد ذكر بأن

هذه الحية كانت إلهة الجزيرة وقد أخبرته بأنها هى الأخرى قد نجت وحدها من شهاب سقط على الجزيرة فأحرق كل أقاربها وإخوتها ، ويسترسل فى قصته فيذكر بأنه عاش فترة على هذه الجزيرة الى أن جاء قارب حمله الى مصر وهو يحمل بهدايا كثيرة من الجزيرة — وبعد أن صعد الى القارب الذى أخذه الى مصر اختفت الجـــزيرة ، فهذه القصة اذن تشبه إحدى قصص السندباد البحرى — ومن القصص فى الأدب المصرى القديم مايشير الى سوء الحالة السياسية فى بعض الأوقات أو إلى حدوث بعض أحداث تاريخية هامة مثل قصة الفلاح الفصيح التى تبين كيف أن بعض الحكام كانوا طغاة مستبدين وأن بعض الأمراء والملـــك نفسه كانوا يميلون إلى الأدب الجيد حتى أنهم تعمدوا إهمال هذا الفلاح ليكثر من شكواه فيتمتعوا بسماع الجيد من الكلام ، وبعد هذا جازاه الملك وأكرمه ورد اليه حقوقه — وتشير قصة سنوحى إلى فراره من مصر ولكنها لاتبين السبب الذى من أجله ترك البلاد ، إلا أنه يبدو من سياق القصة بأنه كان من عنصر مناوىء لسنوسرت الأول حينما كان وليا للعهد فلما تولى هذا على العرش خشى سنوحى على نفسه وفر الى فلسطين — ويبين ذلك مقدار ماكان يحدث فى البلاط من مؤامرات ودسائس ، كما أن إكرام بدو فلسطين لسنوحى يدل على أن البدو كانوا يكنون الاحترام للمصريين — وفى الدولة الحديثة نجد بعض القصص التى يظهر فيها الخيال بشكل واضح ويعكس صورة من أحداث التاريخ فى العصور القديمة ، فمثلا قصة خوفو والساحر ددى التى تشير إلى أن ملوكا من سلالة رع سيعتلون العرش بعد أن يحكم خوفو وولده وحفيده ، وهذه القصة تدل على أن الملك قد انتقل من الأسرة الرابعة إلى ملوك الأسرة الخامسة الذين كانوا من أصل ينتمى إلى الإله رع أو من الكهنة — ومن بين القصص المشهورة

أيضـا قصة الأمير ذو المصير المحتوم التى تذكر بأن ملـكا كان لاينجب أبناء فطلب إلى الآلهة أن تمنحه ولدا فاستجابت هذه لدعائه ولـكن كان مقدراً لهذا الأمير أن يموت بلدغة ثعبان أو يأكله تمساح أو يقضى عليه كلب وتبين القصة كيف أنه نجـــا من التمساح ولـكن القصة مع الأسف لم تكمل فلا ندرى هل لدغه ثعبـان أو قضى عليه كلب – وفى قصة أخرى يتمثل إخلاص شقيق لشقيقه وإفساد زوجة الشقيق الأكبر للعلاقة بين الشقيقين وهذه القصة المعروفة بقصة الأخوين وهى قصة من النوع الخرافى العميق ربما كانت قد تأثرت بقصة أوزوريس .

ولم يتناول الأدب المصرى القصص والأساطير فحسب وإنما نجـــد فيه الـكثير من المتنوعات ففيه النقد وفيه الحـكم وفيه الاغانى والأناشيد الدينية وغـير الدينية وأنـاشيد النصـر والملاحم وأغانى الشراب والحب وغير ذلك .

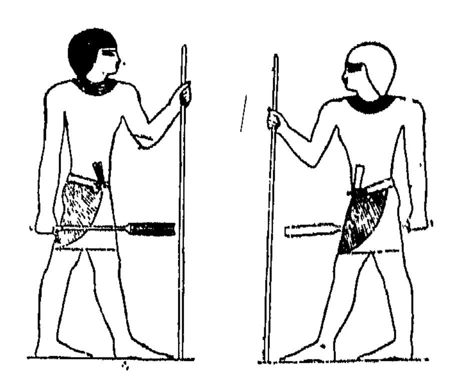
الفنون

وإذا ماتحدثنـا عن الفن عند المصرى القـديم فإن أبرز الفنون التى أبدعها تتمثل فى الرسم والنقش والتصوير والنحت . وهذه كلها خضعت لقانون الاتجاهات المستقيمة التى سبقت الإشارة إليه عند الحديث فى المقدمة عن أثر البيئة المصرية .

هذا وقد خضع الفن المصرى فى هذه الأمور إلى أصول وقواعد لم يحد عنها إلا قليلا طوال عصوره الفرعونية – ومهمـا قيل عن اختلاف المدارس الفنية فى مصر فإننا نلاحظ أنها جميعـا خضعت لتلك القواعد والتقاليد المرعية ، ففى النقش والرسم والتصوير نجـد أن صور الانسان

تتميز بانها تجعل الرأس ينظر من الجانب والكتفين من الامام أما بقية أجزاء الجسم فتنظر من الجانب كذلك. (أنظر أشكال الأشخاص التى وردت فى هذا الكتاب).

وفى المناظر التى تركها الفنان المصرى أخطاء كثيرة يبدو أنه تعمدها محافظة منه على التقاليد الموروثة أو لغرض دينى خاص إذ نجد أن الوجه وإن كان يرسم من الجانب فإن العين ترسم من الامام ، كذلك كان الكتفان يرسمان من الامام بينما يرسم الصدر من الجانب ـ أما الأيدى فترسم بعرضها الكامل من سطحها الخارجى فتبدو فى أمثلة كثيرة وكأن الكفين يمثلان كف اليد اليمنى أو اليسرى فقط . كذلك نجد أن الاقـــدام ترسم من الجانب بحيث يظهر إبهام أصابع القدم فى كل منها دون بقية الأصابع فكأن للشخص قدمان أيسران أو أيمنان مع أن الفنان كثيرا ما كان ينجح فى بيان اختلاف الساقين ـ ومن القواعد التى اتبعها الفنان المصرى كذلك أنه كان يرسم الشخص الذى يمد ساقه اليسرى إلى الامام مثلا بحيث تظهر ذراعه اليسرى ممتدة كذلك وعلى العكس إذا ما أريد تمثيل شخص ماداً ساقه اليمنى فإنه يمد الذراع اليمنى معها أيضا (أنظر شكل ١١) وهذا الوضع غير الطبيعى الذى يتنـــافى مع الحركة الانسانية قصد منه الفنان بالطبع أن يبرز أعضاء الجسم واضحة ـ وقد اعتاد المصرى كذلك أن يمثل الاشخاص وهم يتجهون إلى اليمين أى أن القدم اليسرى والذراع اليسرى إلى الامـــام فاذا مااضطرته الظروف إلى رسم شخص يتجه إلى اليسار فإنه يقع فى بعض الارتباكات الفنية كأن يقلب جانب الازار الذى يلبسه الشخص أو أن يجعل اليد اليمنى تقبض على العصا الطويلة بينما تقبض اليد اليسرى على العصا القصيرة (شكل ٢٢) ، كذلك كان

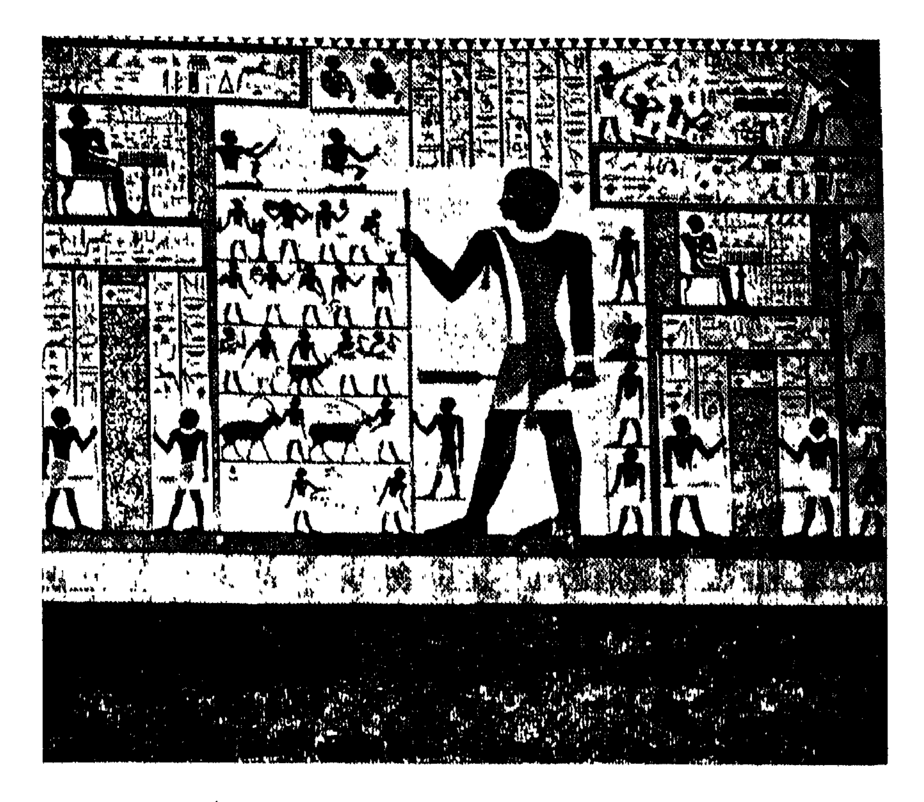


شكل (٢٢) : يبين خطأ الفنان (إلى اليمين) عند خروجه على الوضع التقليدى للرسم

الفنان يحرص على إبراز الاشكال من أخص مظاهرها المميزة وبذلك كان الشكل الواحد فى الصورة يرسم بحيث يبدو وكأنه أخذ من جهات نظر مختلفة لا كما تقتضى قواعد الرسم المنظور - فرائد الفنان فى هذا أن تكون الصورة واضحة تعطى فكرة تامة عن الشكل المراد رسمه ، أى يرسم الشخص كما قلنا ورأسه من الجانب والكتفين من الامام وهكذا - وإذا أريد رسم سمكة فإنها ترسم وكأنها واقفة على جانبها ، كما أن الفنان كان يعتنى بتنظيم أجزاء مناظره ومفرداتها بحيث يرى كل شكل من الأشكال وكأنه مستقل عن غيره فلا يخفى أحد تلك الاشكال شكلا آخر أو جزءا كبيراً منه . وإذا ما أريد ترتيب عدد من المناظر فإنها كانت تنظم فى صفوف متتالية بعضها فوق بعض وتفصلها خطوط مستقيمة سميكة يمثل كل منها مستوى الأرض - ورغم أن المصرى لم يتقيد فى صوره ونقوشه بقواعد المنظور إلا أنه بلغ الذروة فى طريقته الخاصة وأن الفنان رغم إدراكه بوضع الأشياء مما يجعل بعضها يخفى ما وراءه

كما أن الأشياء البعيدة تبدو أصغر حجما إلا أنه راعى فى نقوشه وصوره أن يمثل الأشياء على حقيقتها وعلى أوضح ماتكون دون اعتبار لما يظهر أو يختفى منها لعين الرائى وربما كان مرجع هذا إلى اهتمام المصرى بعقيدة البعث وبأن تلك الأشياء المرسومة تتحول إلى أشياء حقيقية عند تلاوة التعاويذ أو عند البعث ولذلك حتمت التقاليد أن تكون هذه الصور أقرب إلى أصلها الحقيقى ، فإذا أراد المصرى أن يرسم مثلا مائدة قرابين وعليها بعض المأكولات فإنه كان يمثل تلك المأكولات كاملة على المائدة ، وإذا ما كانت مما يوضع فى أوانى فإن الآنية كانت ترسم بحيث تظهر محتوياتها فوقها أو فى داخلها دون مراعاة لعدم شفافية الإناء ودون مراعاة لقواعد الرسم - كذلك كان من الأصول المرعية أن يكون أهم الأشكال فى المنظر أكبرها حجما ويتمثل هذا بصفة خاصة فى رسوم الأفراد إذ كان الشخص المهم يبين فى حجم أكبر ممن عداه من أشخاص آخرين فى نفس المنظر كصورة الملك أو النبيل مع أفراد عائلته أو بعض رجال حاشيته (شكل ٢٣)

وقد تنوعت موضوعات النقوش والرسوم وتناولت أغراضا شتى فرسم المصرى كل ما تمثله فى حياته وكان لكل عصر طراز فنى خاص رغم أن الفنانين التزموا قواعد الفن التى سبقت الاشارة إليها فى كل العصور . وكانت طريقة العمل فى النقش تماثل ذلك إلى حد كبير ففى الرسوم كانوا يبدأون برسم الأشكال بتفاصيلها ثم يلونونها بالألوان المختلفة ولكن النقش، كان يتميز عن الرسم بمرحلة متوسطة إذ كانت الأشكال المرسومة تحفر غائراً أو بارزاً قبل تلوينها أى أن النقش كان



شكل (٢٣) : منظر يمثل أحد النبلاء وحوله الأشخاص أصغر حجما

على نوعين النقش البارز وهو الذى تزال فيه الاجزاء الخلفية أو المحيطة بالرسم بحيث تبرز الاشكال عن السطح الخلفى بضعة ملليمترات ، والنقش الغائر الذى كان يكتفى فيه بحفر السطح الداخلى للشكل ونحته بتفاصيله .

ولا يختلف الغرض الذى توخاه المصرى من التماثيل عن الغرض من الصور والنقوش فكلاهما كان يهدف إلى أن تنقلب هذه التماثيل وتلك الصور إلى أشكال حقيقية عند البعث - وعلى ذلك حرص الفنان على أن يجعل منها صوراً صادقة لما تمثلها حتى أنه لجأ الى توضيح عيون التماثيل والنقوس بحيث تحاكى الطبيعة ، فبياض العين كان من حجر أبيض (مرو أو مرمر) والقرنية من حجر البلور الشفاف وفى وسطه تحفر

بؤرة صغيرة تملأ بمادة سوداء لتمثيل انسان العين ولم تختلف التماثيل عن النقوش فى خضوعها لقانون الاتجاهات المستقيمة ، أى أن التماثيل والنقوش المصرية كانت تعوزها الحـــركة بينما كانت التماثيـل اليونانية كأنها صور أخـذت من فيلم سينمائى ورغم هذا فإن المتـــأمل فى كلا الفنين المصرى واليونانى يجد أن الأول يشعر الانسان بالوقار والعظمة والخلود أما الثانى فيشعر الانسان بالحياة كما هى - ويمكن تلخيص هذا فى أن الفنان المصرى أراد تمثيل الحياة كما ينبغى أن تكون بينما أراد الفنان اليونانى أن يصور الحياة الطبيعية كما هى .

ولا شك أن الفنان فى مصر لم يصل إلى غاية فنه دفعة واحدة أى أن صناعته للتماثيل مثلا لم تكتمل منذ بداية العصور ، فالمحاولات الأولى تبين أن الفنان حتى عصر الأسرة الاولى لم يستطع أن يصور إنسانا خاصا بل صور مجـرد إنسـان يمكن تمييزه عن الكائنات الاخرى ، وفى عصر الاسرة الثانية تقدمت صناعة التماثيل ولـكن إذا ما نظرنا إلى أى تمثال منها فإننا نجد أن المادة المصنوع منها التمثال ، تسترعى انتباهنا أكثر من الانتباه الذى نوجهه الى الانسان المصنوع له التمثال ، أى أن المادة نفسها التى صنع منهـا التمثال كانت تتغلب على الفـكرة - وفى آخر عهد هذه ألاسرة قربت الفكرة أكثر من ذى قبل أى بدأ التمثال يسترعى انتباهنا كممثل لشخص معين - ومنذ ذلك الحين ارتقت صناعة التماثيل واكتملت الأصول الفنية ولـكن كان لكل عصر مميزاته الخاصة كما سبقت الاشارة إلى ذلك - فإذا ما أخـذنا تماثيل الملوك فإننا نجـدها فى الدولة القـديمة تتميز بالوقار والعظمة وتشعر الرائى بأنه أمام قطعة تمثل شخصية لهـا

بجدها، أما تماثيل الدولة الوسطى فتتبين فيها دلائل الصرامة والقوة ومضاء العزيمة وكان الجزء الأسفل منها لايعتنى به عناية تامة وخاصة فى أوائل ذلك العهد ، أما تماثيل الدولة الحديثة فتمتاز بالرشاقة وإبراز تقاطيع الجسم فى شيء من الليونة كما تمتاز باستطالة الوجه - ومما تجدر ملاحظته كذلك أن نسبة الرأس إلى الجسم كانت تختلف فهى فى الدولة القديمة ١ - ٩ وفى الوسطى ١ - ٨ وفى الحديثة ١ - ٧ تقريبا ، كذلك من الممكن الإشارة إلى بعض المميزات العامة التى تبين الاختلافات بين تماثيل كل عصر عن تماثيل العصور الأخرى - فى الدولة القديمة امتازت التماثيل باستقامة الخطوط وكان التمثال الواقف تمثل يداه مستقرة على الجانبين أما فى التماثيل الجالسة فكانت إحدى اليدين تستقران على الصدر والأخرى على الركبة ثم أصبحت اليدان تستقران على الركبتين منذ عهد خفرع - أما تماثيل الدولة الوسطى فأهم مايميزها ضخامة الجزء الأسفل وعدم مطابقته للواقع وخشونة المظهر وعدم تناسق الأعضاء تناسقا تاما أما تماثيل الدولة الحديثة فقد امتازت برشاقتها كما سبقت الإشارة ورقبة التمثال فى الدولة الوسطى عادة أكبر منها فى تماثيل الدولة القديمة والرأس أكبر وقمتها أقل تسطحا ، كذلك يمكن ملاحظة بعض مميزات خاصة فى زى التماثيل وطريقة تصفيف الشعر وغير ذلك مما يلاحظ المتخصصون .

وإذا ما تحدثنا عن الفن يجب ألا يفوتنا ذكر ما وصل اليه المصرى فى فن المعمار حيث ارتبطت به الفنون السابقة ارتباطا وثيقا - ومن المعروف أن المادة الطبيعية كانت فى أول الأمر تتمثل فى سيقان البردى وطمى النيل ، وقد بدأ البناء أولا بشكل دروة بسيطة من البردى أو البوص

أوما شاكلها من المواد الخفيفة ثم استعمل الطمى فى هيئة كتل غير منتظمة، وكان مما يساعد على تدعيم هذه الكتل واستقامتها حزم من البردى تثبت إلى الجدران وتحدد أشكالها وكان المصرى فى أول عهده بالبناء يضطر إلى جعل قواعد الجدران التى يبنيها بالطمى أضخم وأسمك من أطرافها العليا ويدعم أركانها بحزم البردى أو بقوائم خشبية مستديرة وكذلك يقوى الأطراف العليا للجدران بمثل هذه القوائم لتتحمل ثقل السقف، وعلى ذلك يمكن أن نتصور بأن الجدران كانت تميل إلى الداخل وقد ظل هذا الشكل يحافظ عليه حتى بعد اختراع اللبن الذى كان يصنع عادة من الطمى المخلوط ببعض التبن وأحجامه فى معظم الأحيان هى ٣٨ × ١٨ × ١٢ سنتيمترا ولما بدأ الإنسان يستعمل الحجر لم يتخل عن محاكاة المبانى القديمة فى الشكل والهيئة العامة إذ كثيراً ما كانت جدران المقابر والمعابد تميل إلى الداخل كما مثل شكل حزم البردى فى أركان هذه المبانى ومثل اسطوانات الخشب كذلك فى السقف . ولم يستعمل الإنسان الحجر فى بناء المنازل فيما عدا الأجزاء المحيطة بالأبواب والنوافذ أى أن إطارات هذه صنعت من الحجر بينما كانت بقية المنزل من اللبن .

وقد استعمل الحجر فى المبانى الجنزية وفى المعابد لأنها كانت هى المبانى الخالدة فى نظر المصرى القديم . فإذا ما أخذنا المقابر فإننا نجد أنها كانت فى أول الأمر عبارة عن حفرة يوضع فيها الميت ثم تهال عليه الرمال ، ثم أمكن تسقيف المقبرة بالبوص وبعدئذ استعمل الخشب فى هذا التسقيف وكنتيجة لذلك ولاختراع اللبن أصبحت المقبرة مستطيلة الشكل، وابتداء من أواخر عصر ما قبل الأسرات عمق الجزء المحفور فى باطن الأرض وقسم إلى عدة

حجرات بنى فوقها بناء مستطيل مائل الجوانب من اللبن يشبه المصطبة جدرانه تشبه جدران الحصون ذات المداخل والمخارج ثم فى عهد الأسرة الثانية خلت الجدران من هذه الفجوات إلا من فجوتين فى الناحية الشرقية والجنوبية من هاتين الفجوتين كانت أكبرهما وفيها كانت توضع لوحة جنازية

ومع أن الحجر استعمل فى بناء بعض أجزاء أو تبليط بعض حجرات من المقابر فى نطاق ضيق جداً فى عهد الاسرتين الاولى والثانية إلا أن بناء مقبرة بأكملها من الحجر لم يتم إلا فى عهد الاسرة الثالثة ، وأول المقابر الملكية التى بنيت من الحجر هى هرم زوسر المدرج ، ثم أصبح من المعتاد أن يتخذ الملوك أهراما كمقابر لهم ،أما الافراد فقد بنوا مصاطب حجرية ونحت أمراء الاقاليم فى عهد الاقطاع الاول مقابرهم فى الصخور وبنوا بعض أجزاء منها بالحجر وفي عهدالدولة الوسطى بنىالملوك أهراماصغيرة الحجم من اللبن، أما فى الدولة الحديثة فقد نحتت المقابر فى الصخور لإخفائها عن العيون خشية السرقة .

ولما كان من المعتاد فى الدولة القديمة أن تلحق بالاهرام معابد جنزية (شكل ٢٤) ،وكذلك كان الحال فى الدولة الوسطى فإن ملوك الدولة الحديثة استعاضوا عن ذلك ببناء معابدهم الجنزية فى أماكن منفصلة بعيدة عن مقابرهم .

أما معابد الآلهة فكانت فى أول الامر عبارة عن تعريشة أو دروة من البوص أمامها العلم الخاص بالمعبد ، ولانعرف على وجه التحديد شكل هذه المعابد فى الاسرتين الاولى والثانية وأغلب الظن أنها بنيت من اللبن كذلك - وأقدم ما وصلنا من المعابد هى المعابد المعروفة باسم معابد الشمس



شكل (٢٤) : منظر هرمى خفرع ومنقرع.
أمامهما معابدهما الجنزية

وتتمثل فى بناء على حافة النيل أشبه بمكان للاستقبال يخرج منه طريق صاعد إلى الهضبة وهذا الطريق مسقوف إلا من فتحة ضيقة تمتد بطول السقف، وفى وسطه، وهذا الطريق ينتهى إلى المعبد بالمعنى الصحيح ويبدأ بمدخل ثم حجرة للبواب أو حجرتين وهو صغير يتفرع منه فرعان أحدهما يتجه إلى اليمين حيث المخازن والحجرات الخاصة بالكهنة والآخر يتجه إلى اليسار وهو عبارة عن دهليز طويل مظلم ينتهى إلى سلم يصعد داخل قاعدة ضخمة تقوم عليها المسلة التى تقع فى فناء مكشوف، وأمام المسلة مائدة ضخمة للقرابين ومجارى طويلة تنتهى إلى أوانى تتجمع فيها دماء



شكل (٢٥ أ) : معبد الشمس

القرابين التى تقدم لإله الشمس ، كذلك توجد مجموعة أخرى من المجارى أصغر عدداً من السابقة فى الجانب الآخر من قاعدة المسلة المقابل للجانب الذى به بداية السلم وهذه المجموعة تنتهى بدورها إلى مجموعة من الأوانى (شكل ٢٥ أ) . أما معابد الدولة الوسطى فكانت تشبه الشرفة المرتفعة أو المنصة التى تحيطها جدران قليلة الارتفاع بينما تتخلل هذه الجدران أعمدة مربعة مرتفعة يقوم عليها السقف ، ويؤدى إلى المنصة سلمان فى جانبين متقابلين كما يتوسطها مذبح كبير الحجم (شكل ٢٥ ب) ، أما معابد الدولة الحديثة فكانت لا تخرج فى تصميمها عن بوابة ضخمة تؤدى إلى فناء مكشوف إلا من جوانبه حيث توجد بوائك مسقوفة ، وهذا الفناء يؤدى إلى صالة للأعمدة تنتهى إلى قدس الأقداس أو الهيكل - ويلاحظ أن البوابة والفناء وسائر أجزاء المعبد كلها تقع على محور مستقيم ، كما أن



شكل (٢٥ ب) معبد من الدولة الوسطى

البوابة يحيط بجانبيها برجان عظيمان بواجهتها تجاويف أعدت لوضع ساريات الأعلام وتثبيتها وقد يسبق البوابة أحيانا طريق للكباش كما أن بعض المسلات توضع أمام المعبد وفى بعض أفنيته ـ ومما تجدر ملاحظته هنا أن التأثير على المتعبدين فى معابد الدولة القديمة يأتى على أثر المسير فى الطريق الصاعد شبه المظلم ثم الدخول فى الممر الطويل المظلم وبعد ذلك يفاجأ المتعبد بسطوع الشمس على قمة المسلة أو بالخروج إلى النور التام فى وضح النهار ، أما فى معابد الدولة الحديثة فإننا نلاحظ أن التأثير يتم بدخول المتعبد من البوابة إلى الفناء المكشوف ثم صالة الأعمدة ثم قدس الأقداس الذى يكاد يكون مظلما إظلاما تاما مما يوحى بالرهبة فى النفس .

وإذا ما تحدثنا عن المسلات فإننا نجد أنها عبارة عن كتلة ضخمة

من الحجر تميل جوانبها تدريجيا إلى قرب نهايتها حيث نجد قمة مدببة تميل بزاوية ٦٠°م تقريبا، وكانت المسلة عادة توضع على قواعد مكعبة من درجة أو درجتين والشائع أنها كانت توضع فى أزواج أمام مداخل المعابد ولكن وجدت كذلك مسلات صغيرة فى مقابر الدولة القديمة

وأقدم مسلة لمعبد مازالت قائمة فى موضعها هى تلك التى أقامها سنوسرت الأول فى هليوبوليس وارتفاعها ٦٨ قدما ، وكانت أمام معبد الأقصر مسلتان إحداهما ما زالت فى مكانها والأخرى نقلت إلى باريس سنة ١٨٣١، وتوجد بعض المسلات الأخرى فى مصر ومن أمثلة ذلك مسلة لتحتمس الأول ومسلة لحتشبسوت وكلاهما بالكرنك. وقد أعجب الرومان بالمسلات المصرية ونقلوا كثيراً منها حتى أن روما وحدها بها ١٢ مسلة، وواحدة بالقسطنطينية ـ ومن المسلات التى أقامها تحتمس الثالث مسلتين كانتا فى هليوبوليس نقلها الامبراطور أغسطس إلى الاسكندرية ثم نقلت احداهما سنة ١٨٧٧ إلى لندن والأخرى نقلت سنة ١٨٧٩ إلى نيويورك ، وأكبر مسلة معروفة كانت هى الأخرى من عمل تحتمس الثالث وكان قد أقامها فى هليوبوليس أيضا وهى الآن موجودة فى ميدان القديس جون لاتيران فى روما ، وقد أقامها هناك البابا سكستوس الخامس .

ولا شك فى أن نحت المسلات وإقامتها كان يتطلب عملا ووقتاً كبيرين كما يتبين ذلك من النص الموجود على قاعدة مسلة حتشبسوت فى الكرنك والذى يفخر فيه مهندسها بأنه أتم قطع هذه المسلة فى سبعة شهور فقط وأن هذه كانت أقصر مدة عمل فيها مثل هذا العمل.

ويحتمل أن أصل المسلات هو الأحجار المقدسة أو الشواهد

التى كانت تقام تمجيداً للموتى والآلهة لأننا نعرف بأن لوحات منقوشة بأسماء الملوك كانت توضع فى أزواج فى مقابرهم بأبيدوس ، ويقال بأن أزواجا من المسلات الصغيرة كانت توجد فى مقابر الأشراف من الأسرة الرابعة.

ولم تكن هذه المسلات لمجرد الزينة أو لتسجيل بعض ذكريات الملوك وأعمالهم فحسب بل كانت بعض المسلات تغطى فى قمتها بمعدن الالكترون «مزيج الذهب والفضة» لتعكس أشعة الشمس إذ أن المسلة كانت ترمز لإله الشمس ، ولذلك نجد أنها كانت كثيرة فى هليوبوليس مقر عبادة هذا الإله ـ وقد رمز فى الكتابة الهيروغليفية لبعض معابد الشمس بقرص الشمس فوق قمة المسلة .

ثانيا : بلاد العرب

من المعروف أن بلاد العرب ظلت بيئة مقفلة أمام العالم المتحضر ، فلم تقم بها بحوث أثرية ولم يصل إليها من الرحالة الذين تركوا وصفا لمشاهدتهم فيها إلا فى القليل النادر .

وكان اهتمام أقدم من عرفناهم من هؤلاء منصبا بصفة خاصة على التعرف على مايجرى فى داخل الحجاز وخاصة فيما يتعلق بمراسيم الحج ، ومما زاد فى إثارة الرغبة عند هولاء تحريم دخول غير المسلمين إلى مدينتى مكة والمدينة .

وأقدم الرحلات التى سمعنا بها كانت فى أوائل القرن السادس عشر ، ولكن الرحلات التى جاءت عنها تفاصيل أكثر إسهابا ودقة هى تلك التى بدأت منذ أوائل القرن التاسع عشر .

ورغم أن مثل هذه الرحلات لم يكن الغرض منها وصف المعالم الأثرية إلا أن هناك رحلات أخرى كانت تهدف إلى مشاهدة بقايا ماكتب فى التوراة عن مملكة سبأ وغيرها من أماكن متعددة من بلاد العرب وما حوته من كنوز ونفائس . كما أن بعض المؤرخين اليونان والرومان وبعض كتاب العرب ذكروا قصصا عن بلاد اليمن وما فيها من قصور وحصون ألهبت خيال بعض الرحالة وحملتهم على التفكير فى السفر اليها .

وبالفعل قامت بعثة دنمركية أوفدها ملكها سنة ١٧٦١ مكونة من خمسة أعضاء مات رئيسها عند وصوله إلى المخا ميناء اليمن ومات إخصائى النبات بين المخا وصنعاء واستمر الثلاثة الباقون حتى عادوا إلى المخا متجهين إلى الهند فمات اثنان منهم ولم يرجع بعد إتمام الرحلة سوى واحد هو نيبور الذى كان مكلفا بعمل الخرائط فقط ولكنه أعد جميع الأبحاث والرسوم للنشر.

وكانت نتائج هذه البعثة من أحسن النتائج العلمية التى أمكن الوصول اليها.

وفى سنة ١٨٤٣ قام شاب فرنسى برحلة إلى مأرب ونقل كثيراً من من النقوش السبئية، نشرها القنصل الفرنسى فى جدة فى سنة ١٨٤٥.

ثم قامت رحلات أخرى بعد ذلك فى فترات متباعدة ولكنها جميعا لاتلقى ضوءاً كافيا على ما كان فى هذه المناطق من حضارة.

ومهما كان الأمر فان شبه جزيرة العرب لم يكن فيها من التيسيرات التى تسمح للرحالة والعلماء بالتجوال فيها أو الكتابة عنها، واقتصرت الجهود على مناطق محدودة منها، وإذا مانظرنا إلى الظروف المناخية وما نشاهده من أحوال الطبيعة فى الوقت الحاضر يمكننا أن نستنتج أن أهل شبه الجزيرة وإن اتحدوا فى صفاتهم الجنسية فإنهم كانوا يختلفون فى ظروف معيشتهم بين بقعة وأخرى، ويمكن القول إجمالا بأن المناطق التى سبقت إلى ميدان الحضارة هى تلك التى جمعت الاستقرار فيها ممكنا، وبعبارة أخرى فإن مناطق الحضارات القديمة يمكن تتبعها فى الأطراف الجنوبية والشمالية لشبه الجزيرة.

ومع كل فان مخلفات هذه الحضارات التى ظلت قائمة والتى أمكن الكشف عنها قليلة للغاية ولا تكفى لأن تكون فكرة كاملة عن مظاهر الحضارة المختلفة التى سادت فى تلك البقاع .

ومما يلاحظ على حضارات شبه الجزيرة بصفة عامة عدم وجود سلسلة متكاملة من المظاهر الحضارية فهناك فجوات كثيرة فى هذه السلسلة ، فالآثار التى كشف عنها فى مناطق محدودة من جنوب شبه الجزيرة والتى تمثل حضارات العصور قبل التاريخية لاتخرج عن كونها بعض آلات الصوان التى تشبه ما وجد فى شرق افريقيا من العصر الحجرى القديم مما أدى الى افتراض نظريتين : إحداهما تشير الى أن الحضارة انتقلت من شبه الجـــزيرة الى الساحل الافريقى ، بينها تشير النظرية الأخرى إلى العكس من ذلك حيث تفترض وجود مركز إشعاع حضارى فى شرق افريقيا انتقلت منه ثقـــافة صناعة الصوان إلى جنوب شبه الجزيرة وغيرها. ولا نكاد نجد من المخلفات الأثرية مايبين مظاهر حضارات تالية للعصر الحجرى القديم بل إن كل ماعثر عليه من مخلفات غير صناعات هذا العصر تشير إلى حضارات عصور تاريخية متأخرة.

وربما كانت أعظم المناطق الأثرية فى جنوب شبه الجزيرة هى مأرب التى ذكرت فى الكتب المقدسة ففيها بقايا مبانى مازالت جدرانها قائمة وإن كان الكثير مازال مطموراً تحت الأكوام الأثرية ، وهذه الجدران تدل على مبانى مختلفة ـ وإلى جوار تلك الجدران توجد أحجار كثيرة منقوشه ببعض الـــكتابات وبعض التماثيل وبقاياها . ويمكن أن يتتبع المرء فى أطلال هذه المدينة مكان السوق القديم والسور ، ويتضح منها

حسب رأى بعض الرحالة أن المدينة كانت مستديرة وأن سورها كانت به ثمانية أبواب ، ومن هذه البقايا أيضا يمكننا أن نستنتج أن أهل سبأ الذين اتخذوا مأرب عاصمة لهم [١] وصلوا إلى مرحلة متقدمة فى فن المعمار وفى فن نحت التماثيـــل كما أن من بين النصوص مايشير إلى أن أحد الملوك بنى حائطا حول مأرب بناء على أمر ومعونة الإله عشتر [٢].

ومن المخلفات الأثرية فى هذه المنطقة وما جاورها من مناطق أثرية أخرى بعض اللوحات المزخرفة المنقوشة وبعض التوابيت الحجرية مما يدل على أن أهل سبـأ استخدموا التوابيت فى دفن موتاهم - ولا بد أنهم اعتقدوا بالبعث لأن بعض المقابر التى كشفت بفعل السيول وغيرهـا كانت تحتوى على كثير من الأثاث الجنزى إلى درجة أن أهل المنطقة اعتقدوا بأن المـوتى كانوا من التجـار الذين دفنوا ومعهم بضائعهم ولذا يطلقون على هذه القبور اسم مقابر البياعين [٣] .

ومن الواضح فى فنون البنـاء والنقش فى تلك المنطقـة أن هنـاك تأثيرات توحى بوجود اتصالات بينها وبين بلاد النهرين وسوريا واليونان

---

(١) كانت العاصمة اولا صرواح أو صروح - أنظر كتاب المؤلف « معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم » (الاسكندرية سنة ١٩٦٨) ص ٢٥٧ .

(٢) كانت الديانه الرئيسية لدى شعوب جنوب بلاد العرب تعتمد أساسا على ثالوث من الكواكب يتمثل فى الاله الأب وهو القمر (الموقاه) والالهة الأم وهى تسمى (ذات حميم أو ذات بعدان) والاله الابن وهو نجم الزهراء (عشتر) أنظر :

احمد فخرى : اليمن ، ماضيها وحاضرها (القاهرة ١٩٥٧) ، ص ٥٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢٢

كما أن هناك مايوحى بتأثيرات من الفن المصرى وخاصة فى التماثيل وزخارف بعض النصب .

والظاهر أن بعض النقوش تشير إلى تصريح بقطعة من الأرض منحها الملك إلى قبيلة فى نظير الخدمة العسكرية ، كما أن هناك نقوشا أخرى تحرم نهب الأراضى المزروعة أو تركها وقت الحصاد ، ونقوشا غيرها تحدد امتلاك بعض القبائل لبعض الأراضى وتحدد الضرائب الواجب دفعها عنها .

وهكذا يمكن أن نستنتج بأن استقرار بعض القبائل البدوية كان يتم بشروط معينة ، وربما كان الكيان السياسى للدولة غير كامل أو أنه كان عرضة للتغير بسبب دخول بعض العناصر الجديدة بين حين وآخر .

ويتمثل فن السبئيين فى سد مأرب الذى بلغ من شهرته أن ذكر فى القرآن الكريم ، وقد نسب إلى ملكة سبأ كما نسب إلى غيرها من الملوك الذين سبقوها ، وهو يعد أعظم عمل هندسى قديم فى الجزيرة العربية . وتروى الأساطير أوصافه بشىء من الخيال كما تنسب تحطمه إلى أسباب مختلفة منها ماهو خيالى — وقد أقيم هذا السد فى حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، وتهدم فى حوالى أواخر القرن السادس الميلادى ، وكان الغرض من بنائه ينحصر فى السيطرة على مياه السيول وتخزينها والصرف منها بالمقدار اللازم فتتوفر المياه اللازمة للرى إلى أن يحين موعد قدوم السيول التالية وهكذا .

ونظراً لما تمتعت به بلقيس من شهرة فى التاريخ فإن كثيراً من الأماكن الأثرية تنسب إليها ولا يقتصر وجودها على منطقة مأرب

وحدها بل يطلق اسم بلقيس على مناطق أثرية فى أماكن أخرى من اليمن. ومن أهم الآثار التى تنسب إليها فى منطقة مأرب محرم بلقيس وهو أهم المعابد وأشهرها ويقع على بعد نحو أربعة كيلو مترات جنوب شرق مأرب الحالية، وأقدم النقوش على جداره الخارجى يدل على أن ثانى ملك حكم سبأ هو الذى بنى سور هذا المعبد وأنه شيده لإله القمر، وقد عاش هذا الملك فى القرن الثامن قبل الميلاد، وهو نفسه الذى شيد المعبد الكبير فى صرواح — وقد وجدت نقوش من تواريخ تالية تصل إلى القرنين الثالث والرابع الميلاديين، أى أن هذا المعبد ظل قائما وعبادة القمر ظلت تقام فى هذا المكان ألف سنة على الأقل.

ومن كتابات المؤرخين القدامى نعلم بأن مأرب كانت بها ثلاثة قصور على الأقل قرن أحدها بقصر الملكة بلقيس، وقد ورد فى كثير من أقوال الشعراء وكتاب العرب ولكن من العسير تحديد مكان هذا القصر أو التعرف عليه.

أما فى منطقة صرواح وهى تتمثل فى وادى مستدير محاط بالجبال، فقد وجدت بها آثار تدل على وجود سد قديم مازالت عليها بعض الكتابات القديمة كما وجدت آثار تدل على وجود معابد قديمة أحدها يطلق عليه الآن « دار بلقيس » ويبدو أنه مازال سليما لأن سقفه الحجرى مازال فى مكانه ولكنه مطمور بالرديم. وأهم الآثار جميعا فى تلك المنطقة معبد إله القمر أو المعبد الكبير الذى يبدو كأنه بناء نصف بيضى لاستدارة إحدى نواحيه مما جعله يبدو بهذا الشكل، وقد بنى هذا المعبد أيضا الملك الثانى من ملوك سبأ الذى سبقت الإشارة اليه

على أنه بانى سور المعبد فى مأرب وربما كان هو الذى وحد جنوب شبه الجزيرة بأكملها بما فى ذلك حضرموت ونجران والمحميات . ومن الجدير بالذكر أن هذا الملك يشير فى نقوشه إلى خزانات المياه والجسور والقنوات التى أمر بإنشائها .

وليس من اليسير تتبع الآثار المختلفة فى مناطق جنوب شبه الجزيرة وكل مايمكن قوله فى هذا الصدد أن هذه الآثار وإن كانت قليلة ولم تدرس دراسة وافية بعد إلا أنها تعطى فكرة واضحة بعض الشىء عن الديانة فى هذه المنطقة وعن توصل أهلها إلى أعمال هندسية رائعة سواء فى المعمار أو فى التحكم فى مياه السيول ، وبلوغهم درجة لا بأس بها فى القوانين والعلاقات العامة وخاصة فيما يتعلق بتحديد الملكية وتحديد الحدود بين الأملاك المختلفة كما يبدو من هذه الآثار أيضا أنهم نعموا بالرفاهية وأن الرقص والموسيق كان لهما نصيب فى حياتهم إذ توجد على بعض الأحجار مناظر تمثل راقصات تحيطها زخارف مختلفة .

ولا شك فى أن موقع جنوب شبه الجزيرة كان له أثره فى اتصال بعض الأقطار ذات الحضارات القديمة بسكانه . ومن المرجح أن وجود هؤلاء السكان عند مخرج البحر الأحمر جعلهم يغامرون بالخروج إلى البحر وأصبحوا من الملاحين الممتازين ، بل ويتغالى بعض المؤرخين فيذكر أنهم وصلوا بسفنهم إلى بلاد الهند وبلاد النهرين ومصر ، كما أن إقبال بعض القبائل على الاستقرار فى بعض أماكن شبه الجزيرة لم يجعلهم يتخلون نهائيا عن صفاتهم البدوية بما فيها من حب التجوال والترحال ، ولذا نجد أن سكان هذه المناطق إلى جانب مهارتهم فى الملاحة قاموا

بنقل المتاجر عبر شبه الجزيرة ووصلوا بتجارتهم إلى الشام ، كما أنهم كانوا أحيانا يجمعون فى الانتقال بالمتاجر بين اتخاذ طريق بحرى وآخر برى إذ كانوا يعبرون البحر إلى الشاطىء الإفريقى ثم يسيرون بحذاء الشاطىء تتبعهم سفنهم من مكان إلى آخر . ويبدو أن ملوك « أكد » ببلاد النهرين اتصلوا بالمناطق الواقعة فى جنوب شرق الجزيرة كما يبدو ذلك من نصوص «نارام سن» و «جوديا» كبير كهنة «لجش» ـ والظاهر أن بعض القبائل الجنوبيـة وقفت إلى جانب ملك دمشق فى حربه ضد الملك الأشورى « شلمنصر الثالث » ، وبعد ذلك نجد فى النصوص الأشورية ما يشير إلى وصول جزية وهدايا من السبئيين إلى ملوك «آشور» إلا أنه من المستبعد أن يكون الأشوريون قد وصلوا إلى جنوب شبه الجزيرة وفرضوا الجزية على سبأ والأرجح أن بعض الجـاليات السبئية كانت مستقرة على طول الطريق التجارى بين شمال الجزيرة وسوريا وهذه هى التى تعرضت لإغارات الأشوريين ، كما أنه من الجائز أيضا أن يكون ما ذكره الاشوريون عن جزية السبئيين لا يدل إلا على هدايا أرسلها السبئيون لتوطيد صلات الصداقة معهم والمحافظة على نشاطهم التجارى فى شمال شبه الجزيرة .

ولا بد من الإشارة هنا إلى ما تذكره الأساطير المصرية من أن المصريين كانوا ينتمون إلى أتباع حور وأن هؤلاء الاتباع هم الذين جاءوا من الجنوب والشرق وعلموا المصريين الحضارة وأخضعوا البلاد لسلطانهم. ويرى كثير من الباحثين بأن فى هذا إشارة إلى أن أتباع حور قد جاءوا من شبه الجزيرة وعبروا البحر الأحمر وتجولوا على طول الساحل الافريقى ثم تقدموا شمالا حتى وصلوا إلى مصر ، كما أن الاتصال المستمر بين مصر

وبلاد « بونت » ، وهذه الأخيرة قد دعا كثير من المؤرخين إلى الربط بينها وبين جنوب شبه الجزيرة بل ويرجحون أن بونت هى نفسها بلاد اليمن الجنوبية وليس كما يقول بعض المؤرخين الآخرين بأنها هى شاطىء أفريقيا فى منطقتى أرتريا والصومال [١].

أما على الحدود الشمالية لشبه الجزيرة فقد استقرت بعض القبائل وتكونت بعض الدويلات كانت أهمها « البتراء » و « تدمر » . ولانكاد نعرف من أمر هذه الدويلات شيئا سوى ما ذكرته بعض النصوص التى جاءت من الأقطار المجاورة . وشأن الدويلات الشمالية شأن الدول الجنوبية لشبه الجزيرة من حيث أن تاريخها المعروف به فجوات كثيرة ، فمخطابات «مارى» تدل على أن منطقة تدمر كانت آهلة بالسكان حوالى سنة ١٧٠٠ ق . م . - ولا نجد وثائق مستمرة عنها بعد ذلك التاريخ غير أن تدمر تأخذ فى الظهور حوالى القرن الأول قبل الميلاد . أما البتراء فقد أخذت فى الظهور منذ القرن الثانى قبل الميلاد - وإذا كان أهل البتراء هم « الانباط » ، فإن أقدم ذكر لهؤلاء يرجع إلى القرن السابع قبل الميلاد حيث حارب ملكهم «آشور بانيبال» ، وقد اعتبرهم هذا الملك ثواراً وتذكر حولياته بأن جيوشه تقدمت فى الصحراء وهزمتهم، - ويبدو التضارب فى وصف هؤلاء الانباط بين الكتاب القدامى ، فمنهم من يرى بأنهم كانوا يعيشون فى منطقة صحراوية تقوم حياتهم على الغزو ويحرمون الزراعة وشرب الخمر وبناء المنازل ، بينما يصفهم آخرون بأنهم

---

(١) أحمد فخرى ، المرجع السابق ص ٦٦-٦٨

يشتغلون بنقل التجارة الآتية من الجنوب . أما التدمريين فكانت عاصمتهم « تدمر » ، ويبدو أن سكانها كانوا من القبـــائل التى استقرت فى هذه المنطقة على طول الطريق التجارى الرئيسى بين شبه الجزيرة وشرق البحر المتوسط ، ويبدو اختلاف أصول السكان وإرجاعهم إلى قبـائل مختلفة من النقوش التى خلفوهـا ، إذ نجد نقشا على تمثـال يسجل الصلح بين قبيلتين متنـازعتين ، كما أن بعض النقوش وإن كانت تسجـل اشتراك السكان فى بعض الطقوس الدينية إلا أن هذه النقوش تسجل أسماء تلك القبائل ، وقد أقاموا تماثيل لآلهتهم المختلفة . ومهما كان الأمر فإنه نظراً إلى أن هـذه الدويلات الشمالية تقع فى الطريق بين بلاد النهرين والشام فقـــد تعرضت لهجمات الأشوريين والـكلدانيين كما تعرضت الدويلات الأخرى المتاخمة لها من الجنوب ومن ذلك مثلا ما نعلمه من أن «تجلات بلسر الثالث » يتقبل خضوع أميرتين عربيتين إحداهما تدعى « زبيبـة » والثانية تدعى « سمسى » ، كما أن «سنحريب» يذكر بأنه توغل فى الصحراء متعقبا العرب الذين كانوا قد تقدموا إلى بابل واضطرهم إلى الإعتصام فى مكان ما فى قلب الصحراء . وعلى أى حال فان خصائص ومميزات حضارات تلك الدويلات الشمالية ينبغى أن تـكون موضوع الحضـارات المعاصرة لليونان والرومان لأن التواريخ المؤكدة لظهورها هى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد كما سبق أن أشرنا ، وقد سقطت البتراء سنة ١٠٦م ، وتدمر سنة ٢٧٣م .

ثالثا : الاقليم السورى

من المعروف أن موقع هذا الاقليم جعله يستقبل الكثير من العناصر البشرية فى مختلف الأدوار التاريخية[1] كما أن انقسام هذا الإقليم من ناحية التضاريس جعله يشتمل على وحدات سياسية مختلفة ، ومهما كان بينها من تشابه فى بعض مظاهر الحضارة فيها فإنه من العسير أن نتناولها جميعها بالبحث كوحدة حضارية ظهرت فى الإقليم بأكمله ، ولذا فإننا سنتناول حضارته على أساس الحضارات التى انتشرت بين العناصر البشرية الرئيسية التى أثرت فيه .

وقد اصطلح المؤرخون على أن أهم العناصر التى لعبت دوراً فعالا فى تاريخه القديم هى تلك العناصر السامية التى وفدت إليه فى هجرات مختلفة .

الأموريون :ـ اقدم العناصر السامية

ويرجح بأن سكان بلاد النهرين هم الذين أطلقوا عليهم هذا الاسم ، فقد أطلق السومريون كلمة « مارتو » على أهل الغرب ، ومنها جاءت الكلمة الأكدية « أمورو » التى أصبحت بعد ذلك تطلق على الإقليم السورى بأكمله ، وهى فى هذا تشبه استخدام العرب لكلمة الشام التى كانت تعنى أصلا اليسار أو الشمال .

وحينما وفد الأموريون إلى الإقليم السورى كانوا عبارة عن جماعات بدوية

---

(١) أنظر كتاب المؤلف : معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ص ٢٧٢

لاتعرف سكنى المدن ولا الزراعه ، ولكن بعد أن استقروا فى هذا الإقليم أخذوا عن أهله مظاهر الحضارة المختلفة وعرفوا الزراعة وأسسوا دويلات قوية من أهمها تلك التى كانت فى حوض الفرات الأوسط وكانت عاصمتها « مارى » - وبلغ من قوة هذه الدويلات أن حاولت التوسع في بلاد النهرين ، ولذا نجد أن أحد ملوك أسرة أور الثالثة قام بتشييد سور فى أور أطلق عليه اسم « الجدار الذى يصد الأمورين » كما أن آخر ملوك هذه الأسرة افتخر بانتصاره عليهم بقوله « لقد اخضعت مارتو الذين فى قوة العاصفة»

ومع أن الأمورين اقتبسوا الكثير من مظاهر حضارتهم من حضارات أهل المنطقة السابقين ومن جيرانهم إلا أن هؤلاء الجيران تأثروا بدورهم بمؤثرات أمورية ، فمثلا نجد أن البابليين والأشوريين أخذوا فى قوانينهم بمبدأ « العين بالعين والسن بالسن » الذى انتشر بين الجماعات السامية ومن بينها الأموريين ، كما أنهم كذلك عبدوا بعض الآلهة الأمورية.

وقد وصلوا إلى مرتبة حضارية عظيمة كما يستدل على ذلك من الآثار التى عثر عليها فى عاصمتهم مارى ، فقد أمكن الكشف عن بقايا قصر ملكى كان يشغل مساحة تزيد على خمسة أفدنة ويحتوى على أكثر من ٣٠٠ حجرة زينت جدران الكثير منها بصور ملونه بألوان زاهية ويشمل عدداً من الساحات والحمامات وألحقت به بعض الدوائر الحكومية ، كما عثر على أكثر من ٢٠٠٠٠ لوح من الألواح الطينية المكتوبة بالخط المسمارى وهى تتضمن وثائق تتناول مختلف الشئون وتلقى كثيرا من الضوء على النواحى السياسية والإدارية والاقتصادية والدينية التى سادت

فى هذه المنطقة وفى مناطق أخرى من العالم القديم ، فمثلا نعلم من هذه الوثائق أن مملكة أمورية اسمها « يمخاد » كانت عاصمتها « حلب » وأن « جبيل » كانت مركزا صناعيا هاما للنسيج ، « وقطنه » كانت مركزاً تجاريا ، كذلك عرفنا أن «زمرى ليم» كان يعاصر الملك البابلى «حمو رابى» وأنه كان آخر ملوك مارى .

ورغم هذه الحضارة فإن الأموريين لم يتركوا كتابات هامة بلغتهم بل اقتصروا فى تدوينهم بها على أسماء ملوكهم وحكامهم وبعض الأماكن فى الإقليم السورى ، أما أهم مدوناتهم فقد كتبت بالأكدية التى شاع استخدامها كلغة تدوين رسميه .

ويبدو أن وقوع الأموريين بين آسيا الصغرى فى الشمال ومصر فى الجنوب وبلاد النهرين فى الشرق قد أكسبتهم مهارة سياسيه فى بعض الظروف وخاصة عندما أخـــذ الحيثيون (فى آسيا الصغرى) فى القوة وبدأت مصر فى الضعف ، فقد أخذ بعض الحكام الأموريين الذين كانوا يخضعون لمصر فيما سبق يستغلون الظروف ويعلنون استقلالهم ، ومنهم من تظاهر بالولاء للمصريين وفى نفس الوقت كان يتعاون مع الحيثيين فى غزوهم لبعض المناطق بينما يستولى لنفسه على بعض المناطق الأخرى، ويبدو ذلك واضحا فى أواخر عهد الأسرة الثامنة عشرة المصرية .

أما عن ديانة الأموريين فقد وجدت لديهم معبودات مختلفة منها الإله « أمورو » (مارتو) الذى عرفت عبادته فى بلاد النهرين وكانت زوجته الإله « عشتار » إلهة الحب والقوة التى يرجح أنها مقتبسة من الإلهة البابلية عشتار ـ وقد وجدت فى أنقاض قصر مارى الذى أشرنا إليه

فيما سبق صورة كانت تزين أحد الجدران وفيها يرى الملك الذى يرجح أنه « زمرى لم » وهو يتسلم شارات الملك من هذه الإلهة ومن الإله « حدد » الذى عرف فى بابل باسم « أدد » إله المطر والزوابع وكان يطلق عليه أحيانا اسم آخر هو « رمان » (رمانو) أى إله الرعد، ويحتمل أنه هو الذى عرف بعد ذلك فى بعض جهات سوريا باسم « بعل » - ومن آلهتهم أيضا الإله « رشف » وقد عبده الفينيقيون وعرفه المصريون فى عهد الدولة الحديثة . ومن معبوداتهم التى انتقلت إلى بلاد النهرين «داجون» أو « داجان » وكان من آلهة الخصب - ومن المحتمل أيضا أنهم هم الذين أدخلوا إلى الاقليم السورى عادة تقديم الإبن البكر كقربان للآلهة وعادة تضحية أطفال فى أسس المبانى ، وهذه الأخيرة ظلت إلى زمن العبرانيين .

ب - **الكنعانيون والفينيقيون** : وصل هؤلاء فى هجرة واحـــدة مع الأموريين . وقد اختلف الباحثون فى أصل اسمهم ، فنهم من يرى بأنه سامى « كنع » أو « خنع » بمعنى المنخفض ، أى الأرض المنخفضة التى سكنوها وخاصة على الساحل للتمييز بينها وبين الأراضى الجبلية المحاذية لها ، ومنهم من يرى أن أصله هندو أوربى من كلمة حورية « كناجى » بمعنى صبغة حمراء ومنها أخذت الكلمة الكلدانية « كناخى » أو « كنخى » التى حرفت إلى كنعان أى بلاد الأرجوان لشهرتها بهذه الصباغة ولذا عرفها اليونان باسم فينيقيا كمرادف لهذه التسمية، وكانت تدل فى أول الأمر على الساحل السورى وغرب فلسطين ثم أصبحت تدل على فلسطين وجزء كبير من سوريا.

ونظراً لطبيعة الإقليم الذى عاشوا فيـــه وتعرضه بين حين وآخر لتوسع الدول الكبرى المجاورة لم ينجح الكنعانيون فى تأسيس دولة

قوية موحدة بل انتظموا فى جماعات صغيرة يرأس كل منها ملك ويستقرون حول مدن محصنة تحيط بها مناطق زراعية تابعة لها ، وكانت هذه المدن هى العواصم التى يلجأ إليها أهل المناطق الزراعية ويحتمون داخل أسوارها عند الخطر - وكثيراً ما كان يحدث النزاع بين تلك المدن فكانت أكثرها تفوقا تلك التى كانت وسائلها الدفاعية أكثر فاعلية، وبعضها كان يشغل موقعين أحدهما على الساحل والآخر يمثل جزراً صغيرة فى مواجهته يلجأون اليها عند اشتداد الخطر - وبالطبع كانت المدن المنيعة أقدر من غيرها على البقاء والازدهار ، ومن جهة أخرى كثيراً ما كانت هذه المدن تتفق فيما بينها لتحقيق مصالح مشتركة أو للتحالف ضد أخطار خارجية.

ومع أن الكنعانيين لم يتمكنوا من إنشاء دول كبيرة كما أشرنا إلا أنهم فرضوا شهرتهم فى التاريخ لما امتازوا به من نشاط فى الميدان الاقتصادى . فقد عملوا على تنمية زراعتهم وصناعتهم ونشطوا فى الاتجار خارج وطنهم وأسسوا مستعمرات تجارية فى مناطق بعيدة ، ففى ميدان الزراعة لم يتركوا بقعة صالحة دون استغلال حتى أنهم زرعوا السفوح الجبلية حيث حولوها إلى مسطحات متفاوته الارتفاع يفصل بين كل منها والآخر جدار يمنع التربة من التآكل ويزيد فى المساحة المنزرعة - وإلى جانب الزراعة كانوا يربون الأغنام والخنازير ومهروا فى صناعة الفخار كما برعوا فى صناعة النسيج والزجاج - وقد عرفت لديهم الأقمشة الصوفية منذ منتصف الألف الثانى قبل الميلاد على الأقل ، ونقلوا زراعة القطن من آشور وعرفوا نسيج الكتان كما عرفوا الحرير منذ القرن السادس قبل الميلاد تقريبا - وقد ارتبطت حرفة صيد الأسماك بطريق غير مباشر بشهرة

منسوجاتهم لأن الصبغة باللون الأحمر التى اشتهروا بها كانوا يستخرجون سائلها من أصداف تكثر على سواحل البحر ، وكانوا لايتاجرون فى هذا السائل بل فى المنسوجات المصبوغة - ولم يقتصر استخراجهم لهذه المادة على الأصداف الموجودة على سواحلهم بل كانوا يجلبونها أيضا من الموانى البعيدة ، وبلغ من شهرة أقمشتهم المصبوغة بها والتى أصبحت تعرف باسم « الأرجوان » أن ارتفعت أثمانها حتى أصبحت رمزاً للملوك فيقال عنهم « مولود فى الأرجوان » . كما أنها كانت تستعمل فى أزياء بعض ذوى المكانة مثل رؤساء الكهنة فى بعض الجهات - وإلى جانب الصبغة بهذا اللون عرف الفينيقيون صبغة أخرى لونها قرمزى استخرجوا مادتها من حشرات كانت تعيش على أشجار السنديان حول الساحل وذلك بوضع هذه الحشرات بعد تجفيفها فى بعض الأحماض .

ومع أن الفينيقيين نشطوا فى التنقل بين مختلف الاقطار وقاموا بدور عظيم فى نقل مختلف السلع والثقافات إلا أن ما خلفوه من مدونات لايتناسب مع الدور الذى قاموا به وربما يرجع ذلك إلى فناء أوراق البردى التى كانوا يدونون عليها وكانوا يجلبونها من مصر ، ومع هذا فإن القليل الذي عثر عليه من نقوشهم ومدوناتهم يدل على علو شأنهم فى كثير من المعارف - ومن ذلك أيضا نستطيع أن نستنتج أن المدن الفينيقية كان يحكمها ملوك يتم اختيارهم من بعض الأسر النبيلة أو التى تنتمى إلى أصل مقدس ، ولكن سلطان الملك كان يحدده مجلس للشيوخ مؤلف من تجار المدينة .

ومن الملاحظ أن أصحاب الحرف كانوا يدينون بالولاء لرؤساء يمثلون طوائفهم المختلفـــة ويطلق على رئيس كل حرفة لقب « رب »

الذى يدير أمور أهل الحرفة ويتولى رعاية شئونهم - ومع أن شهرة الفينيقيين الرئيسية كانت لمهارتهم فى الملاحة إلا أنهم تفننوا فى استغلال كل مايمكن أن تجود به بلادهم من موارد ، وقد اشتهرت أخشاب أشجارهم بالجودة وخاصه خشب الأرز والصنوبر ولذا فرض على جيرانهم الاتصال بهم والاتجار معهم للحصول على هذا الخشب الثمين ، كما أنه من المرجح أن زيت الصنوبر ونشاراته كانا يستخدمان فى التحنيط ، كذلك استخدمت أخشاب الصنوبر فى بناء قصر ومعبد « سليمان » كما استخدمها الأشوريون أيضا فى بعض قصورهم وخاصة من عهد « سرجون الثانى » .

أما فى مجال الزراعة فقد وصلوا إلى مرحلة راقية واستخدموا المحراث ، بل وكانوا أحيانا يستغلون الفيل كحيوان لجر المحراث فى الزراعات الكبيرة ، وأكثر وسائل النقل استعمالا عندهم كانت عربات ذات عجلتين تجرها أربعه خيول (شكل ٢٦) - وربما كان الحمار يستعمل فى الخدمات بدل الخيل قبل دخول الحصان أيام الهكسوس - وكان استخلاص الحب من سنابله يتم إما بأن تمرر على السنابل لوحة خشبية بأسفلها شظايا



شكل (٢٦) : نموذج من الخزف لعربة يجرها الخيل

صوانية أو أن تستعمل مركبة من خشب لها عجل بأسنان من حديد أو أن يداس المحصول بأرجل الحيوانات [١] ـ وتطحن الحبوب بالرحى، وقد عرف الفينيقيون صناعة الأنبذة واستخراج الزيوت، وغير ذلك من الصناعات الزراعية .

ويعد الفينيقيون أقدم أمة بحرية فى التاريخ ، ونبوغهم فى الملاحة هو سبب شهرتهم الحقيقية ، وقد وصل نشاطهم إلى اسبانيا وبريطانيا ، وبلغ من حذقهم أنهم كانوا يصنعون السفن لحساب الدول والشعوب الاخرى، فقد أمدوا «سنحريب» ملك آشور بالسفن التى غزا بها دويلات جنوب العراق كما أمدوا سليمان بالسفن واستخدمهم «نخاو» (الأسرة ٢٦) فى الدوران حول أفريقيا وقد أتموا رحلتهم فى ثلاث سنوات ـ وقد أخذوا يكونون فى الأماكن التى وصلوا إليها للتجارة مراكز تجارية سرعان ما تحولت إلى مستعمرات تجارية كانت أعظمها «قرطاجة» التى سرعان ما ازدهرت بعد تأسيسها ثم أصبحت لها سيادة تجارية وسياسية فكونت امبراطورية تمتد من حدود ليبيا إلى جبل طارق وضمت بعض جزر البحر المتوسط إليها ـ ثم تنافست مع روما من أجل السيادة على البحر المتوسط ونشبت بينهما حروب دامت أكثر من مائة عام انتهت بأن أحرقها الرومان وحولوها إلى كومة من الرماد .

ويبدو أن الكنعانيين نشطوا فى صناعة المعادن حيث ينسب إليهم أنهم وصلوا إلى صناعة الفولاذ واشتهروا بالصياغة ولذا كانوا

(١) كونتنو : الحضارة الفينيقية (مترجم) ، ص ٣٠٦ .



شكل (٢٧) نحت فى العاج يمثل الفن الفينيقى
وفيه مزج بالفن المصرى

يقومون برحلات عديدة لجلب المعادن حتى أن «هوميروس» أشار إلى حذق أهل «صيدا» بصفة خاصة فى الصياغة .

ومع أن الفينيقيين فى فنونهم اقتبسوا من فنون الشعوب المجاورة ، إلا أنهم مزجوا فى كثير من الحالات بين هذه الفنون جميعا حتى جعلوا منها فنا فينيقيا متميزاً (شكل ٢٧) غير أنهم فى بعض الحالات كانوا يقتبسون اقتباسا كليا (شكل ٢٨) - ولا يمكننا أن نقتصر فى دراسة الفن الفينيقى على ما وجد من آثاره على الساحل السورى وحده ، ولكن لابد من دراسة كل آثارهم فى المناطق الأخرى ، وكمثال للاقتباس الكلى نلاحظ فى بعض أختامهم وتوابيتهم طابعا مصريا صرفا .

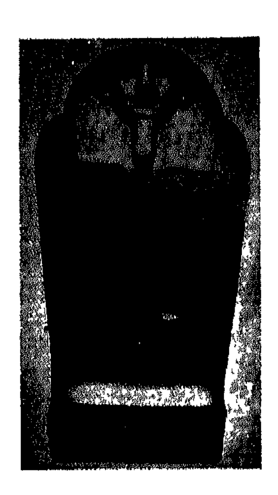
وينسب إلى الفينيقيين اختراع الحروف الأبجدية التى نقلها عنهم اليونان ثم شاع استعمالها وإن كان من الممكن أن نعتبر أن الهجائية

شكل (٢٨): تطعيم عاجي يبدو فيه الطابع المصري واضحا

وجدت أولا فى الهيروغليفية حيث كانت هناك رموز تدل على حروف إلى جانب الرموز المستعملة ككلمات أو مقاطع وكل ما قام به الفينيقيون هو أنهم طوروا الفكرة واستخدموا الرموز للدلالة على حروف فقط ، ومع هذا فإن اللغة الفينيقية لم تصبح لغة دولية وإنما كانت الأكدية هى التى تعد لغة دولية رسمية. ومن التراث الأدبى الذى تركه الفينيقيون اقتبس العبرانيون كثيراً من تراثهم وأدخلوه فى كتاباتهم المقدسة وخاصة بعض الأساطير التى تدور حول الصراع بين الخصب والجفاف أو بين الإنبات والموت ثم البعث أو عودة الحياة وإن كنا نعتقد بأن هذه كلها أصلا يمكن إرجاعها إلى أسطورة أوزير التى انتشرت فى مصر.

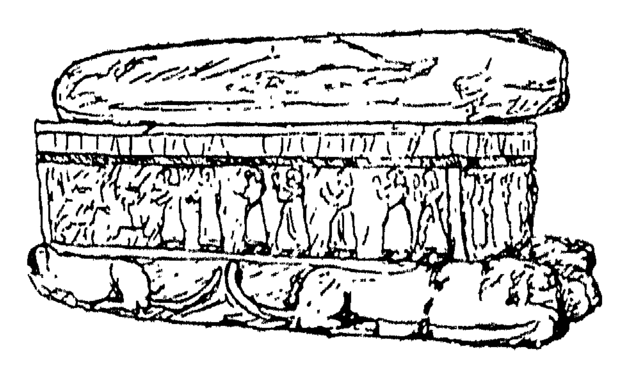
أما ديانة الكنعانيين فشأنها شأن معظم الديانات القديمة تدور حول تقديس مظاهر الكون وعبادة الطبيعة ، فالجو كان يمثل فى نظرهم الإله الأب ، بينما تمثل الأرض الإلهة الأم ـ أما الإله الأعلى فكان يعرف بإسم «ايل» أو «عليان» وهو الذى يوحد مع الإله «بعل» وكان يعد إله

المطر والمحاصيل ، وزوجته كانت الإلهة «عاشرة» أو «عاثرة» أو «عشترت» التى عبدت أحيانا كالإلهة الأم ، ومن ألقابها «بعلة» أى «سيدة» ـ وهنا تعد حامية لمكان أو مدينة معينة ـ ولقب ملكة السماء ولقب «عنات» وهذه كانت تعد إلهة للحب والحرب ' وقد وحدها اليونان مع إلههم « افروديت » والرومان مع إلههم « فينوس » ، وقد عبد المصريون إلههم «رشف» كما أنهم أخذوا عن المصريين عبادة الإله « بس » ـ وقد وجدت آثار معابدهم فى أماكن مختلفة وهى لا تخرج عن مذبح صخرى ونصب مقدس قائم إلى جوار عمود أو شجرة مقدسة وغرف تحت سطح الأرض ومصاطب يغسل عليها المتعبدون أقدامهم قبل تأدية الطقوس وفى بعض الأحيان كان يوجد مكان مرتفع فى مؤخرة المعبد ـ أما قدس الأقداس فيوضع فوقه رمز أو تمثال الإله ، وكانوا يستخدمون تماثيل صغيرة كتمائم لها قدرة سحرية ، كما أنهم أحيانا كانوا يجعلون أماكن للعبادة فى الهواء الطلق على رؤوس



شكل (٢٩) : تابوت فى هيئة آدمية لاحد ملوك صيدا

التلال أو الأماكن المرتفعة وهذه لايوجد بها سوى مذبح وعمود أو حجر مقدس وكانت غالبا لعبادة الآلهة المحلية - واعتقدوا بالبعث إذ عثر على بعض أوانى الطعام والشراب وأدوات الزينة والأسلحة مع الموتى ، ويظهر أنهم تأثروا فى ذلك بما كان متبعا فى مصر بل وكانت بعض توابيتهم فى الهيئة الآدمية كالتوابيت المصرية (شكل ٢٩) ، وقد زينت بنقوش وكتابات دينية ومنها نقوش تمثل الموكب الجنزى بما فيه من نائحات وحملة للقرابين (شكل ٣٠) ومنها نقوش تصب اللعنات على من يحاول الاعتداء على التوابيت أو إزعاج الميت ، وقد ظلوا يمارسون عادة التضحية بالأطفال عند تأسيس المبانى الجديدة وهؤلاء كانوا يدفنون فى أوانى فخارية كانت توضع تحت أرضية المنزل .



شكل (٣٠) : تابوت لملك من ببلوس مبينا عليه الموكب الجنزى

جـ - **الآراميون** : هم الجماعة السامية التى هاجرت من شبه جزيرة العرب حوالى منتصف الالف الثانى قبل الميلاد . وقد استقروا فى أواسط الفرات واقتبسوا من جيرانهم بعض المظاهر الحضارية ، والظاهر أنهم كانوا من جماعات عرفت بأسماء مختلفة وربما كانوا من بين أولئك

الذين عرفهم الآموريون بإسم « أخــلامو » ومعناها الرفاق وهى التى أطلقوها على عدد من القبائل المتحدة ، وقد سادت العناصر الآرامية فى قسم كبير من بلاد النهرين وشمال سوريا ووسطها خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد غير أنه كانت توجد بينهم بعض الجيوب الحيثية ، ولم يتمكنوا من التوسع غربا لوقوف جبال لبنان حائلا دون توغلهم عبرها - ومع أنهم اقتبسوا من حضارات جيرانهم إلا أنهم احتفظوا بلغتهم بل وانتشرت هذه اللغة فى الأقطار المجاورة ولعبت دوراً هاما فى ثقافتها .

ويبدو تأثر الآراميين بحضارة الشعوب المجاورة واضحا فى شمال سوريا إذ تأثر الآراميون هناك بمظاهر الحضارة الحيثية وكانت عاصمتهم فى مظهرها لاتختلف كثيراً عن المدن الحيثية ، وقد ذكر أحد ملوكها على تمثال أقامه للإله « حــدد » بأنه كان يحرص أن يوفر السعادة لشعبه وأن بلاده أزدهرت فيها زراعة الشعير والقمح والثوم والكروم ويفتخر ابن هذا الملك فى نص له بأن والده زاد فى فخامة البلاط الملكى كما أن هذا الابن نفسه عاش فى أبهة لاتقل عن أبهة ملك آشور الذى خضع له .

وكما اشتهر الفينيقيون بالتجارة البحــرية اشتهر الآراميون بالتجارة البرية وأرسلوا قوافلهم إلى جميع الأقطار المجاورة وتاجروا فى الأرجوان من فينيقيا والمطرزات والكتان والنحاس والأبنوس والعاج من افريقيا واللؤلؤ من الخليج العربى - وكان نتيجة هذا التوسع التجارى أن نشروا لغتهم فى مختلف البلدان فأصبحت لغة رسمية إلى جانب كونها اللغة العامة

للتجارة ، بل واستعملت كلغة رسمية فى الامبراطورية الفارسية وكان انتشارها سببا فى انتشار الأبجدية الفينيقيسة التى استخدموها فكانت هى لغة المسيح وأتباعه وكتبت بها بعض الصلوات ثم تفرعت الى مجموعتين، شرقية فى وادى الفـــرات ومنها السريانية ، وغربية ومنهـا التورائية والتدمرية وغيرها .

أما عن ديانتهم فقد كان الإله « حـــدد » أهم معبوداتهم وهو إله الزوابع والرعد وكان محبوبا بصفة خاصة بين المزارعين لأنه كان يرسل المطر ـ وقد امتزجت عبادته بعد ذلك بعبادة الشمس وكانت رفيقته الإلهة « أتارجاتس » تعبد الإلهة الأم وكان يرمز لهـا بالهلال وقرص الشمس وانتشرت عبادتها فى فلسطين ثم انتقلت الى الرومان بعد ذلك ـ وإلى جانب هؤلاء كان هناك عدد من الآلهـــة الثانوية بعضها محلى والبعض الآخـر انتقلت عبادته من الأقطار المجـاورة مثل الإله « شمش » وهو من آشور والإله « رشف » وهو من فينيقيا ، وغيرهما .

د ـ **العبرانيون** : هم الجماعات السامية التى جاءت مع الآراميين فى نفس الوقت تقريبا وقد وصـــلوا إلى فلسطين بعد أن ذهبوا الى جنوب بلاد النهرين ثم إلى وسطها ، وقد هاجرت جماعة منهم إلى مصر ثم خرجت منها بقيـادة موسى وبعدئذ أخذ كيانهم يبـدو فى فلسطين بوضوح وعند قدومهم كان سكان فلسطين عبارة عن جماعات كنعـانية وجماعات غـير سامية إلى جانب قدامى العبرانيـين الذين لم يكونوا قد هاجروا إلى مصر وقد اندمج هؤلاء الأخيرون معهم ، وأصبح القادمون الجدد يكيفون حياتهم حسب مقتضيات ظروف بيئتهم الجديدة وأرادوا

محاكاة جيرانهم الذين كانوا يعيشون فى ممالك خاصة ـ وأتيحت لهم فرصة ذلك عند اشتداد الحرب بينهم وبين الفلسطينيين فأنشأوا ملكية لهم يمكن اعتبار تأسيسها بداية تاريخ الأمة العبرية وإن كنا نعتقد بأنهم لم يحرصوا على قوميتهم بل ولم يخلصوا تماما لملكيتهم ، فقد تركوا لغتهم السامية القديمة واتخذوا لغة الشعب الذى عاشوا بين ظهرانيه فاستعملوا لغة الكنعانيين وأبجديتهم ولم يكن لهم أدب إلا بعد أن تعلموا فن الكتابة من جيرانهم' كما أنهم ظلوا محتفظين بنظامهم القبلى فيما يختص بالشئون الإدارية ولم يحكم الملك بينهم إلا حسب أوامر «يهوا» (الرب) كما يعلنها الصالحون منهم ـ ومهما كان الأمر فإنهم كانوا أصلا من البدو ولم يحترفوا الزراعة إلا بعد استقرارهم فى الأراضى الخصيبة ' ومع هذا ظل سكان المناطق المرتفعة منهم يعتمدون على الرعى كمورد أساسى لهم، وقد ارتبطت حياتهم الزراعية بكثير من الأفكار والقصائد التى لم يكن لهم بها عهد ومارسوا الأعمال والطقوس التى اعتبرت ضرورية للخصب وضمان محصول طيب فكانوا يضحون بأحد الحيوانات ويقدمون قرابين للمعبد من المحاصيل والماشية ويرقص ملكهم أمام تابوت العهد ـ واعترفوا بالآلهة المحلية التى تتعلق بالخصب والنماء بصفة خاصة إلى جانب معبودهم يهوا ولذا كانت بعض العبادات والطقوس الكنعانية القديمة منتشرة بينهم' بل وأصبح الإله الكنعانى يعل فى بعض الفترات منافسا قويا للمعبود يهوا ' وكانت فكرتهم عن الحياة الأخرى شبيهة بالفكرة لدى الكنعانيين ومعظم الأمم القديمة فى المنطقة إذ كانوا يدفنون مع موتاهم بعض الأدوات التى كانوا يستخدمونها فى حياتهم اليومية .

ولم يقتصر تأثر العبرانيين بالكنعانيين على المظاهر الدينية فحسب بل تأثروا كذلك بالكثير من المظاهر الحضارية الأخرى ، فنى العمارة نجد أن أقدم أثر دينى لهم هو هيكل سليمان قد خطط على نمط معبد كنعانى وزخرف بزخارف كنعانية ولم يشيده معماريون من العبرانيين أنفسهم بل من الصوريين - وكان القصر الملكى فى أورشليم من عمل صناع فينيقيين أيضا وزخرف بزخارف تمثل رموز الحماية المأخوذة فكرتها مما وجد لدى الأشوريين والسوريين القدماء ، فهى تمثل حيوانات لها رؤوس بشرية تحرس شجرة الحياة

وقد تعددت آلات الموسيقى التى استخدموها فى طقوسهم الدينية وفى حياتهم العادية ومعظمها من آلات كانت مستعملة فى سوريا قبل وصولهم إليها ، كما يرجح أن التوازى والمطابقة فى الشعر العبرى كان معروفا عند الكنعانيين أيضا - ونظراً لما عرف عنهم من حرص بصفة عامة فإنهم برعوا فى قطع الأحجار الكريمة ، ومع هذا فإن من المرجح أنهم اتبعوا فى حليهم بل وفى ثيابهم وخزفهم النماذج والأساليب الكنعانية - ومن صفاتهم المأثورة حبهم للإفادة وجمع الثروة ولذا عملوا على رقى الزراعة والصناعات المتعلقة بها بغيـــة ازدياد التبادل التجارى بينهم وبين جيرانهم .

ويعد الدين المظهر الوحيد الذى أسهموا به فى مضمار الحضارة ، ومع هذا يمكن أن يدرس العهد القديم على أنه مؤلف أدبى ويمكن مقارنة الشريعة الموسوية بقانون حمورابى فى كثير من المواد غير أنها تمتاز بما فيها من عناصر أخلاقية لم يرد مثلها فى الشرائع السابقة ، وكان كهنتهم

يقومون بالطقوس الدينية ويعدون وسطاء بين الإنسان وربه ، ومن هؤلاء من امتازوا بالحكمة وبلغوا مرتبة عالية فى التفكير وقد عرفوا باسم الأنبياء ـ وكانوا يهدفون إلى رقى الفرد وسلامة المجتمع فربطوا بين الدين والأخلاق ونادوا بعبادة إله واحد ، واعتبروا قواعد السلوك كأوامر إلهية ـ وقد مرت التوراة بمراحل متعددة بدأت بالرواية التى يتناقلها الخلف عن السلف ثم انتقلت إلى مرحلة التدوين وفيها جمعت من مدونات تاريخية قبل السبى وبعده وقد تعرضت للتنقيح وحذفت منها بعض الأمور كما ضاعت أثناء الجمع بعض الأسفار التى اكتفى بالإشارة إليها أثناء النسخ ـ وإلى جانب التـــوراة وجدت مجموعة من القواعد والأحكام والوصايا والشروح والتعاليم ظلت تنقل مشافهة عن طريق الرواية ثم دونها علماؤهم لتكون دستوراً لهم ، وقد عرفت هذه باسم « التلمود » ـ وقد انقسم العبرانيون تجاه التلمود فمنهم من لم يعترف بغير التوراة وأنكروه وهؤلاء هم « القراءون» ، ومنهم من اعترف بالتلمود واعتبر أنه موحى به إلى من كتبوه وهؤلاء هم « الربانيون » .

وينبغى أن نلاحظ بأن هناك تلمودان : أورشليمى وبابلى، والأورشليمى هو ما وضعه أحبار أورشليم ويحتوى على ٣٩ بحثا بالعبرانية وقد كتب ابتداء من القرن الثانى إلى القرن الرابع الميلادى ، أما التلمود البابلى فقد بدىء فى بغداد فى أواخر القرن الخامس ويشمل ٣٦ بحثا بالآرامية وبه بعض الشروح العبرانية ولكنه أربعة أضعاف الأورشليمى وهو المتداول بين اليهود ـ ويتألف التلمود من « المشنة» أى المتن أو الشريعة وهى التى تشتمل على الأحكام الدينية المكملة لشريعة موسى وتفسر مايلتبس فهمه منها « والجمارا » وهى الشرح والتعليق .

رابعا : آسيا الصغرى

بالرغم مما روى فى أشعار هومر عن طرواده وفى الكتاب المقدس عن الحيثيين فإن العالم المتحضر ظل لايعلم شيئا يذكر عن تاريخ وحضارة آسيا الصغرى - ومع أن الرحلات الاستكشافية إليها بدأت منذ عام ١٧٦٤ إلا أن الجهود الأثرية فيها لم تبدأ إلا حوالى سنة ١٨٧٠، حينما أخذ شليمان يبحث عن آثار طرواده، ولو أن هذه الآثار كانت تمثل مظاهر حضارية أقرب لتلك التى سادت فى اليونان منها إلى تلك التى سادت فى بقية أنحاء آسيا الصغرى التى أخذت أنظار الباحثين تتجه إليها بعد ذلك - وقد أمكن التوصل إلى أن النقوش التى كانت على بعض الأحجار التى عثر عليها فى حلب وتلك التى كانت على الصخور فى جهات مختلفة من آسيا الصغرى ترجع إلى الحيثيين الذين عرفوا فى النصوص المصرية وفى الكتاب المقدس باسم « خاتى » كما أمكن التوصل إلى معرفة الكثير عن الحضارات التى سادت فى شبه الجزيرة قبل عصرها التاريخى .

وقد تبين للباحثين أن موكب الحضارة فى آسيا الصغرى لايمثل سلسلة متكاملة وأن هذه الحضارة لم تتدرج فى تطورها منذ أقدم العصور دون أن تنتابها تأثيرات مفاجئة ، غير أنه من الممكن إجمالا القول بأن العصر التاريخى يبدأ فيها بظهور الكتابة التى انتشرت بين طائفة من التجار الأشوريين الذين وفدوا إلى الأناضول حوالى سنة ١٩٠٠ ق.م ، ومن رسائلهم ويومياتهم عرفنا أن البلاد كانت تنقسم إلى إمارات يحكمها أمراء محليون ، وكان بعض هؤلاء يحملون أسماء هندو أوربية ويدعو

هذا الى الظن بأن الحيثيين جاءوا غزاة الى شبه الجزيرة واستقروا بها وخاصة لأن النصوص الحيثية المسمارية كانت تختلف فى لغتها عن النصوص المسمارية التى سبقتها والتى أدخلها التجار الآشوريون - كذلك يبدو واضحا أن مظاهر حضارية متشابهة بصفة عامة سادت فى أنحاء شبه الجزيرة منذ أن سيطر عليها الحيثيون ، وعلى هذا فإن مظاهر الحضارة الحيثية تمثل بشىء من التجاوز المظاهر التى سادت فى شبه الجزيرة - وبما أن الحيثيين ينتمون إلى عناصر هندو أوربية فإن حضارتهم وإن تأثرت بحضارات جيرانهم يغلب عليها طابع يختلف عن طابع حضارات الشعوب السامية المجاورة ، ومن دراسة مخلفاتهم الحضارية يتضح لنا أن الحيثيين كانوا من أكثر الشعوب القديمة تقدما فى النواحى التى تتميز بها الطبقات الحاكمة، فقد امتازوا فى الشئون الحربية والسياسية والقانونية ولكنهم لم يصلوا إلى مرتبة عالية فى النواحى الدينية والأدبية - أما فنونهم فقد بلغت مرحلة متقدمة وإن كانت لم تصل إلى حد التفوق والعبقرية .

ومع أن هنـــاك بعض الصعوبات التى تعترض الباحثين فى دراسة الحضـارة الحيثية كنشأة الهيروغيلفية الحيثية وتفسيرها فإن من الممكن تتبع المظاهر العامة لتلك الحضارة .

الأسرة

يبدو أن عادات الزواج عند الحيثيين لاتختلف عن عادات الزواج فى بلاد النهرين ، فمع أن الخطبة المصحوبة بهدية من الزوج المنتظر كانت خطوة أولية للزواج إلا أنها لم تكن إلزامية فكانت للفتاة حرية الزواج

من رجل آخر بموافقة والديها أو بدونها بشرط أن يعوض الخطيب الاول.

وكان الزواج يتم بعد حصول الفتاة على هدية من رجلها كما كانت تأخذ صداقا من والدها - وإذا حدث عدم إتمام الزواج بعد ذلك كان الطرف المذنب يعاقب بدفع تعويض مناسب ، وفى حالة الوفاة كان يتحتم زواج الأرملة بأقرب المقربين للزوج المتوفى وربما كان الغرض من ذلك هو تخليد عائلة المتوفى ، وقد انتقلت هذه العادة إلى العبرانيين. ولم يكن الزواج من الرقيق غريبا بل معترف بشرعيته ، وكانت القوانين الحيثية تجعل من رب الأسرة سيدها وراعيها وسلطته على زوجته واضحة وله حق تقرير مصيرها إذا ارتكبت خيانة زوجية .

ومع هذا فإن المرأة فى بعض أجزاء آسيا الصغرى كانت تتمتع ببعض الامتيازات الخاصة التى كانت على الارجح من بقايا نظام أموى (لم تكن التبعية فيه للأب) ساد تلك الانحاء فى أقدم العصور .

ويبدو أن هذا النظام الاخير كان أكثر وضوحا فى البيت المالك إذ أن الملكة كانت تتمتع بدرجة كبيرة من الاستقلال ، وكانت الملكة الوالدة بالذات ذات مكانة خاصة ولها من الألقاب ماتحتفظ به من طوال حياتها ولا ينتقل إلى زوجة الملك الحاكم إلا بعد وفاتها - وكثيراً ما كانت بشخصيتها القوية تسبب متاعب لابنها الحاكم ، أما فى حالة وجود زوجها على قيد الحياة فإنها تلعب دوراً كبيراً فى شئون الدولة ، فتذكر مع زوجها فى كل الوثائق الرسمية وقد تشترك فى القيام بالطقوس الدينية الرسمية أيضا.

الملك

من المرجح أن الملكية الحيثية كانت انتخابية فى الأصل ، فرغم أن تعيين وريث العرش كان يتم أمام النبلاء إلا أنه كان لا يعد شرعيا إلا بعد إتمام هذا الإجراء الذى يفترض فيه أن يكون طلبا من الملك توافق عليه جماعة النبلاء ، ومما يدل على ذلك أن تاريخ الدولة الحيثية كان مليئا بالفتن والثورات التى قام بها أقرباء الملك وكان تعيينه لخليفته علنا مدعاة للتخلص من بعض هذه الفتن - وفى النهاية وضع أحد الملوك (تيليبينوس)[١] قانونا لوراثة العرش استقرت بعده الأمور فلم يحدث نزاع بين النبلاء فى هذا الصدد .

وقد تمتع ملوك الحيثيين بمكانة ممتازة ، وتدل ألقابهم على اعتقادهم أنهم أصحاب سلطان ونفوذ على غيرهم من الملوك الذين كانوا فى نظرهم أقل شأنا كما اعتبروا بأنهم يتمتعون بقوى خارقة وإن لم يؤلهوا فى حياتهم على الإطلاق أى أنهم لم يصلوا إلى مرحلة التقديس إلا بعد وفاتهم .

وكان الملك يعد القائد الأعلى للجيش والكاهن الأعظم والقاضى الأعلى فى الدولة ، وهو المسئول عن جميع المعاملات السياسية مع الدول الاجنبية، وكان من الممكن أن ينيب عنه فى هذه الشئون من يقوم بدوره فيها إلا فى المسائل الدينية وحدها إذ كان الاعتقاد السائد بأن إهماله لمثل هذه المسائل كان يسبب نقمة الآلهة على الشعب .

---

(١) آخر ملوك الدولة القديمة الحيثية .

الإدارة

كان الحيثيون فى أول الأمر يعتمدون فى إدارة مجتمعاتهم الأولى التى نشأت فى بقاع مختلفة على مجالس محلية تتألف من الشيوخ التى تتولى الإشراف على كافة الشئون الإدارية المحلية . أما فى المراكز المقدسة فإن المعبد هو الذى يشرف على تلك الإدارة فكان الكاهن الأعظم يعد الحاكم المدنى فى نفس الوقت .

وقد احتفظ ملوك الحيثيين بهذا الحق فكانوا يشرفون على الأقاليم التى يستولون عليها وبعدئذ عهدوا بإدارتها لأبنائهم ، ولما ازدادت رقعة المملكة أنعموا بمثل هذه المناصب على بعض القواد الذين كانوا عادة من أقربائهم ، غير أن هذا التعيين كان مؤقتا فى الغالب لأن أمثال هؤلاء كانوا لا يستطيعون النهوض بكافة الأعباء الملقاة عليهم - وأخيراً دعت الضرورة إلى تعيين حكام دائمين يقيمون فى الأماكن التى يعهد لهم بها ويدينون بالولاء للسلطة الملكية - والظاهر أن هذا النظام قد استهوى بعض الدويلات الصغيرة المجاورة فأخذت تنضم إلى الإمبراطورية الحيثية رغبة منها فى المحافظة على كيانها من جهة ، ومن جهة أخرى كان حكامها يتمتعون بالكثير من الاستقلال فى ظل الامبراطورية ، فالملك التابع لها هو الحاكم ذو السيادة داخل إقليمه - ولم يكن مفروضا عليه أن يمد الجيش الحيثى بجنود فى كل وقت يخرج فيــه للحرب ولكنه كان ملزما برد اللاجئين من الحيثيين إلى وطنهم كما كان عليه أن يقدم إتاوة سنوية وفى نظير ذلك كان الملك الحيثى يضمن تولية الوارث الشرعى للحاكم على عرش البلد التى يحكمها ذلك الحاكم.

ولم تكن القوانين فى المملكة الحيثية ثابتة دائما بل كانت عرضة للتعديل والإضافات مما يدل على أن الحيثيين لم يترددوا فى إصلاح قوانينهم كلما دعت الحاجة لذلك ، كذلك يبدو أنها كانت تختلف باختلاف أنحاء الامبراطورية ، فما كان يطبق فى جهة من الجهات لايؤخذ به فى جهة أخرى . ومما يلاحظ على النصوص القانونية التى عثر عليها أنها كانت فى غالبيتها ترد على هيئة قضايا إفتراضية يتبعها الحكم المناسب مما يدعو إلى الظن بأنها كانت مأخوذة من أحكام المحاكم .

والظاهر أن هذه القوانين كانت فى بداية الأمر تأخذ بمبدأ «العين بالعين والسن بالسن» ولكن كانت الأحكام فى كثير من القضايا تقتصر فى حالة الأحرار المذنبين على تكليفهم برد الشيء إلى أصله أو بالتعويض أما إذا كان الجانى من العبيد فقد تشمل الأحكام عقوبات جسدية تصل أحيانا إلى الإعدام ـ كذلك كانت القوانين الحيثية تفرق بين حدوث الذنب عن عمد وبين حدوثه عن غير عمد ولكنها كانت تعتبر حدوث جريمة فى مكان ما واختفاء المجرم به أمر يعاقب عليه أهل المكان الذين يعتبرون مسئولين عن حدوث الجرم فى مكانهم ، ويعتبر القانون الحيثى صارما فى الأخذ بمبدأ المسئولية الجماعية فى حالات عصيان أمر الملك لأن العقوبة تنفذ على بيت الجانى ، أى على أهل بيته وكل من فيه .

أما المحاكمات فكانت بسيطة الإجراءات إذ أن المنازعات كانت تنظر أمام الشيوخ الذين كانوا يشرفون على الإدارة المحلية ، وفى هذه الحالة كانوا يمثلون محكمة شعبية ـ وإلى جانب هؤلاء يمثل الدولة أحد ضباط

الملك الذى يتعاون مع السلطات المحلية فى إقامة العدل دون تميز ، وفى حالات القضايا الكبرى التى تتطلب حكم الإعدام والقضايا التى يعجزون عن البت فيها لغموضها أو تلفيقها كانت القضية ترفع إلى الملك للبت فيها.

العسكرية

وصلت الجيوش الحيثية إلى درجة كبيرة من الخبرة فى التاريخ القديم، ومع ذلك فإننا نجهل الكثير عن تكوينها ووسائلها غير أنه من المرجح أن مشاة الجيش الحيثى كانت أكثر عدداً من جنود مركباته، ومع هذا فإنهم كانوا يقومون بدور ثانوى نسبيا فى الميادين المفتوحة . أما المركبات الحيثية فكانت تختلف فى شكلها اختلافا بسيطا عن المركبات المصرية إذ أنها كانت تتسع لثلاثة رجال بدلا من اثنين أحدهما للهجوم والآخر للدفاع والثالث للقيادة (شكل ٣١) ، وسلاح الهجوم فيها هو الرمح والقوس ، وسلاح الدفاع هو الدرع ـ وإلى جانب المشاه والمركبات كانت هناك فرق خفيفة للمساعدة مهمتها الهجوم المفاجىء الذى يتطلب سرعة الحركة وكانت تسلح بالقسى والسهام ـ ومن النقوش المصرية يتبين لنا أن الجيوش الحيثية كانت تشمل أيضا فرقا للمهمات وهذه تتمثل فى عربات ثقيلة ذات أربع عجلات تجرها الثيران وعدد من الحمير المحملة بالأثقال وقد ورد فى النصوص الحيثية ما يدل على وجود جنود للمعمار ـ وكان الأمر لا يخلو دائما من وجود عدد من الجنود المرتزقة .

ويتسلح الجندى الحيثى العادى بسيف قصير وفأس للقتال ويرتدى خوذة لها غطاء للأذن .



شكل ٣١ — عربة مصرية تهاجم عربة حيثية
(من نقش مصرى)

وقد أثبتت الجيوش الحيثية كفاءة ومهارة حربية إلا أنها كانت تعتمد غالبا على مباغتة العدو واستغلال قدرة العربات الحيثية إلى أقصى حد، وخير دليل على ذلك نجاحهم فى موقعة قادش ضد المصريين فى عهد « رعمسيس الثانى » — وعند حصارهم لمدينة ما كانوا يلجأون إلى وسائل فعالة كضربها بالمنجنيق وإقامة روابى مرتفعة يحملون إلى أعلاها معدات الحصار . أما عن وسائلهم الدفاعية فقد أمدتهم الطبيعة بأماكن منيعة لا تحتاج إلا إلى تقوية بسيطة وخاصة عند سفوح الجبال والتلال حيث كان يكتفى بجدران سميكة مزدوجة تبنى أمام الجزء المكشوف من التل والجدار الأمامى يكون عادة منخفضا عن الجدار الخلفى .

الديانة

يبدو أن المجتمعات المحلية الأولى التي نشأت في آسيا الصغرى كانت تحتفظ باستقلالها الديني واستمرت أماكن العبادة فيها دون مساس بمعبوداتها ، وكانت سياسة الملوك تدعو إلى رفع شأن تلك المعبودات كما انتحلوا لأنفسهم وظيفة الكاهن الأعظم لها حيث يقوم الملك بموكب سنوي يزور فيه أهم مراكز العبادات التي يحتفل فيها شخصيا بأعيادها الرئيسية .

وقد جعل صيانة المعابد إحدى المهام الرئيسية التي يكلف بها حكام الأقاليم والقواد المحليين ، واستفادت أماكن العبـــادة بالطبع من وراء ذلك وزاد استقرارها وعظمت ثروتها — ومما يذكر أن كل المراسيم والأوامر العليا للدولة كانت تصدر باعتبار أن الآلهة والإلهات جميعا تضمن نفاذها ومفعوليتها ، ولذا كان الكتاب يجمعون قوائم بجميع أسماء الآلهة المحلية تعامل فيها الآلهة المتشابهة معاملة واحدة وبذلت محاولات لترتيب هذه الآلهه على حسب أهميتهـا وعلى ذلك كانت الدولة والملكية تحت حماية مجموعة خاصة من الآلهة الشعبية العظمى التي كانت تقام لها طقوس خاصة بالعاصمة نفسها .

وقد وجدت نصوص بالتعليمات التي كانت تصدر إلى الكهنة وخدم المعابد ونصوص تبين ما كان يقوم به أعضاء البيت المالك من مراسيم العبادة، وكلها تدل على أن الطقوس المتبعة كانت دقيقة للغاية — ومع أن بعض الأساطير التي وردت إلينا تشير إلى الأدوار التي كانت تقوم بها الآلهـة إلا أن معظم هذه لم تكن من المعبــودات الرئيسية للدولة ،

وحتى فى حالة وجود بعض تلك الآلهة بين معبودات الدولة الرئيسية فإن أدوارها التى تنسب إليها كانت تختلف باختـــلاف النصوص . ومن المعبودات وخاصة الشعبية منها مالا نعرف عنها أو عن مراكز عبادتها إلا القليل .

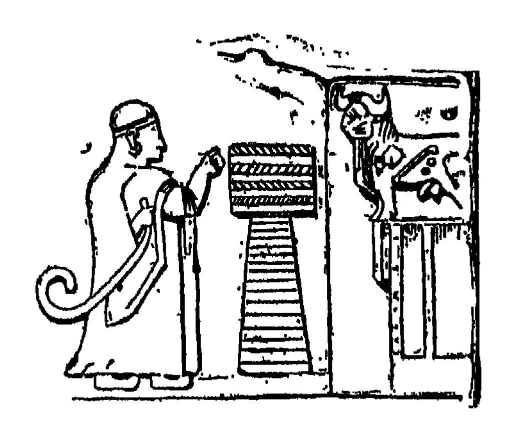
وتتميز معبودات الحيثيين ببعض المظاهر حيث يحمل الإله سلاحا أو آلة أخرى فى اليد اليسرى ورمز فى اليد اليمنى وقد يزود بأجنحة أو زوائد أخرى أو يقف غالبا فوق حيوان مقدس (شكل ٣٢)



شكل ٣٢ - إله يقبض بيسراه على سلاح أو آلة
وبيمناه على رمز وهو يقف على ظهر حيوان

وليس من الغريب فى بيئة مثل آسيا الصغرى أن يكون إله الطقس إلها رئيسيا إذ انتشرت عبادته فى عدد كبير من المدن وهو يمثل غالبا راكبا مركبة بدائية تجرها الثيران على رؤوس الجبال التى مثلت فى هيئة البشر . وقـــد يرمز إليه بالثور الذى يصور واقفا وحيدا على مذبح (أنظر شكل ٣٣) ، وقد عبد فى الجزء الجنوبى من آسيا الصغرى (أى فى منطقة

طوروس والسهول الشمالية من سوريا) الذى كان يسوده الحوريون باسم « تيشوب » ، وكانت له زوجة تعرف باسم « خيبات » ، وهذه كانت لا تقل مكانة عن زوجها وقد مثلت فى هيئة سيدة تقف على أسد أحيانا ، وكان



شكل ٣٣ – ملك يتعبد إلى إله فى هيئة الثور

لهما ولد يدعى « شاروما » . وإلى جانب هذه الآلهة وجدت آلهة أخرى فى هذه المنطقة منها الإلهة « شاوشكا » أى عشتار الحورية ، وبعض هذه الآلهة لم يعترف بها بين الآلهة الحيثية .

وفى قلب المملكة الحيثية أى منطقة الحيثيين الأصليين كان المعبـــود الرئيسى فى أغلب الظن هو إلهة الشمس بينما كان إله الطقس زوجا لهـا ويأتى فى المرتبة الثانية، ولهما ابنتان وحفيدة . أما إله الزراعة فقد اعتبر ابنا لإله الطقس وهو فى الأساطير الحيثية يشبه الإله أوزير فى الأساطير المصرية إذ بانسحابه تتوقف الحياة وبعودته تعود الحياة من جديد والمقصود من ذلك أن الشلل الذى يصيب الحيـاة الزراعية أثناء الشتاء

فى آسيا الصغرى ترجعه الأساطير إلى انسحاب هذا الإله وعند عودته فى الربيع تعود مظاهر الحياة من جديد .

وقد وجدت أسماء عدد كبير من الآلهة التى لانعرف عنها شيئا ، وربما كانت هذه أصلا من الآلهة المحلية عبدت فى المجتمعات المحلية الأولى التى كانت منفصلة بعضها عن البعض .

أما الدين الرسمى للدولة فقد شمل مجموعة من الآلهة ، فكانت إلهة الشمس تعبد على أنها ملكة « بلاد حاتى والسماء والأرض » ، « سيدة ملوك وملكات بلاد حاتى ومرشدة الحكومة » ، أى أنها كانت الحامية الرئيسية للدولة والملكية - ومع هذا فقد صورت الأساطير إله الشمس على أنه ملك الآلهة ، وهو يأتى على رأس قوائم الآلهة التى تذكر فى المعاهدات فهو يعد إله الحق والعدل - ومن الغريب أن موقف إلهة الشمس غير محدد بالنسبة لهذا الإله الذى يرى البعض بأنه لم يكن أصليا فى الأناضول بل جلب إليها من الخارج حيث يصفه أحد النصوص بوجود أسماك على رأسه ، كما أن أحد آلهة الشمس ذكر على أنه « إله الشمس فى الماء » - وقد اعتقد الحيثيون كما اعتقد المصريون بأن إله الشمس يمر فى العالم السفلى من الغرب إلى الشرق أثناء الليل، ومما يثير الدهشة كذلك أن إله الشمس لم يكن زوجا لإلهة الشمس بل كان زوجها هو إله الطقس لأن هذا الأخير كانت عبادته واسعة الإنتشار وقد اعتبر « ملك السماء ورب بلاد حاتى » أى أنه كان هو الآخر حاميا للمملكة وإليه يعزى النصر فى المعارك .

وكانت أماكن العبادة الحيثية تتخذ أشكالا عديدة : فنها ما كان مكشوفا

به هيكل حجرى ـ ومنها ما كان مبنيا بالأحجار الضخمة وتتكون من عدة غرف حول فناء مرصوف ، ويفصل قدس الأقداس عن هذا الفناء حجرة بها فتحة تسمح للذين فى الفناء برؤية تمثال الإله فى محرابه الذى يقع فى الجدار البعيد لقدس الأقداس وإن كان الوصول إلى هذا الأخير عن طريق باب فى أحد الجدران الجانبية ـ ومن المعابد مالايمكن رؤية تمثال المعبود فيها من الفناء حيث أن الهيكل كان يقوم فى أحد جوانب المبنى ، ومعنى هذا أن التعبد لإله المعبد كان قاصراً على أقلية مختارة ، ولايوجد أى نظام ثابت للاتجاهات فى هذه المعابد ـ وكانت معابد بعض البلدان تعد مقر الحكومة المدنية فى نفس الوقت ولذلك كانت تضم عددا كبيراً من الموظفين المدنيين إلى جانب الموظفين الدينيين ، ومن جهة أخرى كانت هناك معابد صغيرة الحجم قليلة الأهمية بحيث يشرف كاهن واحد على عدد من هذه المعابد .

وكان المعبد هو بيت الإله والكهنة خدمه الذين يقومـــون يوميا بواجباتهم نحوه طبقا لنظـــام ثابت يختص كل منهم بطقوس معينة ، وعلى العموم كان يفترض فى كل منهم الطهارة التامة ولايسمح لهم بقضاء الليل فى المدينة وإلا تعرضوا إلى عقوبات تصل إلى الموت .

وبما أن الإله لم يكن مجرد رب للمعبد بل رب الشعب وسيده كذلك كان لابد من تقديم قرابين وهدايا مختلفة رمزاً لاحترامه يقدمها الجميع استعطافا له ، ويجب أن تكون ممتازة لاعيب بها ـ وهناك من الإشارات مايدل على وجود عادة الضحايا البشرية .

وعندما يقوم الملك شخصيا بالاحتفال بعيد من الأعياد فى أحـــد

المعابد تدون النعليمات التى تصف هذا الاحتفال وصفا دقيقا من بدء تزين الملك واستعداده للخروج إلى هذا الاحتفال والسير فى الموكب إلى المعبد ودخول زوجة الملك والحاشية إلى أماكنهم الخاصة وجلوس الملك والملكة على العرش وهكذا إلى أن تنتهى الطقوس .

ومن الطبيعى أن الظواهر الطبيعية وغيرها من الأمور التى تفوق طاقة البشر كانت فى نظر المجتمعات البدائية تخضع لقوى عظمى (آلهة) تسيطر عليها ، وهى غير مرئية وخالدة ـ ومع هذا كان من الصعب تصورها فى هيئة تختلف عن البشر أو على الأقل لها مشاعر البشر . وكان الحيثيون بالذات ينسبون إلى آلهتهم من السلوك مايشابه سلوك السيد بالنسبة لأتباعه ، فمع أنه يجب رعايته وترضيته ومدحه إلا أنه لايمكن الاعتماد عليه دائما فى رعاية مصالح أتباعه فقد يمضى بعض الوقت فى النـــوم أو التسلية أو الرحيل أو الانشغال بمسائل أخرى تجعل الابتهال إليه للمساعدة عبثا، بل وقد تكون له تصرفات خاطئة غير حكيمة ولذا تفسر المصائب التى تحل بالإنسان أحيانا لا على أنها عقاب عن ذنب جناه وإنما على اعتبار أنها نتجت عن إهمال الإله لأن الأرواح والشياطين الشريرة تعمل دائما على الإفادة من عدم تيقظ الإله الحامى الانسان ـ ولذا كان من صلوات بعض الملوك للآلهة فى مثل هذه الحالة ما ينحى باللائمة على الآلهة بل والتهديد بالعجز أو التقصير فى خدمتها وتقديم القرابين لها ـ أما إذا كانت المصائب كعقاب عن ذنوب فلا بد من الاعتراف بها والتكفير عنها ، وفى هذه الحاله كانوا يلجأون إلى العرافة والتنجيم واستشارة الوحى فى غير الطرق لإرضاء الآلهة .

وكانت العادة عند الدفن أن يحرق جسد المتوفى ثم تطفأ النار بالجعة والنبيذ ثم تحضر بعض النساء لجمع العظام ويغمسنها فى شراب خاص ثم يضعنها فى زيت طيب فى جرة فضية ، وبعد ذلك يخرجنها ثم تلف فى الكتان وتوضع على كرسى ويقدم الطعام لمن جمع العظام كما يقدم الشراب لهم ولروح المتوفى ثلاث مرات وتصحب ذلك التضحية ببعض الماشية - ولاشك فى أنه كان هناك فرق بين مايتبع فى دفن الملوك وما يتبع فى دفن الأفراد كما أن من المرجح أن ملوك الدولة القديمة لم يمارسوا حرق الجثث .

أما الأساطير الحيثية فتنقسم إلى قسمين أحدهما يتعلق بالقضاء على قوى الشر ويتلخص فى أسطورة تسمى « ذبح التنين » ومؤداها أن التنين انتصر فى أول الأمر على إله الطقس حسب رواية من الروايات وأنه لم يكتف بذلك بل أعجز إله الطقس بالاستيلاء على قلبه وعينيه حسب رواية أخرى - ولكن بمعاونة آلهة أخرى وبالحيلة استطاع إله الطقس أن ينتصر فى النهاية ، وربما كانت هذه الأسطورة تتلى فى الاحتفال السنوى بالربيع وهى تشبه إلى حد كبير أساطير أخرى انتشرت فى أجزاء أخرى من الشرق الأدنى القديم كانت تتلى أيضا فى احتفالات موسمية - أما القسم الثانى فيتعلق بعودة الحياة إلى الأرض وهو يتمثل فى أسطورة تعرف باسم « أسطورة الإله المفقود » وهى تتلخص فى أن الحياة تتوقف على الأرض بسبب اختفاء إله الخصب ثم البحث عنه وبإعادته إلى بيته تعود الحياة إلى الأرض ، وتمثل الأسطورة إله الخصب على

أنه ابن إله الطقس وأن هذا الآخير قد افتقده فى وليمة دعا إليها إله الشمس العظيم الآلهة الآخرى ولكن هؤلاء لم يشبعوا ولم يشعروا بالارتواء ، فأرسل إله الشمس رسولا لكى يحضره ولكنه لم يجده ، وقد أمر إله الطقس بالذهاب بنفسه للبحث عنه وإحضاره ولكنه عجز عن ذلك وفشل فى إخراج ابنه من مدينته وأخيراً عاد هذا الإله غاضبا ثائراً إلا أن أحد الآلهة هدأه بسلسلة من التعاويذ السحرية حتى عاد إلى مكانه فى معبده وأبعد كل ما من شأنه إيقاف الخصب .

وإلى جانب هذه الأساطير توجد أساطير أخري ولكنها من أصل أجنبي غالبا وتقل أهمية عن تلك التى أشرنا اليها .

الحياة الاقتصادية

تتنوع مظاهر البيئة فى آسيا الصغرى ، فالهضبة الوسطى يصعب الإستقرار فيها إلا فى أودية الأنهار ، أما على الجبال فالمجال للاستقرار محدود للغاية لخلوها من الأشجار وشدة البرودة وقسوة المناخ فيها، وعلى هذا فإن الموطن الذى استقر فيه الحيثيون كانت تكثر به القنوات والأودية اعتمد فى حياته الاقتصادية على الزراعة قبل كل شيء - ومما يؤيد ذلك أن القوانين الحيثية حفلت بالكثير من المواد المتعلقة بالزراعة وما يرتبط بها - غير أن سلاسل الجبال الضخمة سرعان ماظهرت مواردها وكان غناها بالمعادن سببا فى استغلالها ، فالتجار الاشوريون الذين عاشوا فى

منطقة «كبدوشيا» كانوا يصدرون النحاس ، كما أن الفضة كانت متوفرة إلى درجة سمحت باستخدامها كعملة - ومع أن الحديد كان متوفراً أيضا إلا أن العجز عن صهره وتنقيته لم يجعله شائع الاستعمال فكان يستعاض عنه فى صناعة الأسلحة بالنحاس والبرونز ولهذا عد الحديد من المعادن الثمينة ، ورغم أن النصوص تشير إلى سيوف وألواح كتابة وتماثيل حديدية إلا أن ما عثر عليه من هذه كان نادراً - ومن المحتمل أن تلك المصنوعات كانت تقدم كهدايا ملكية ولم يتقنها إلا عدد قليل من الصناع .

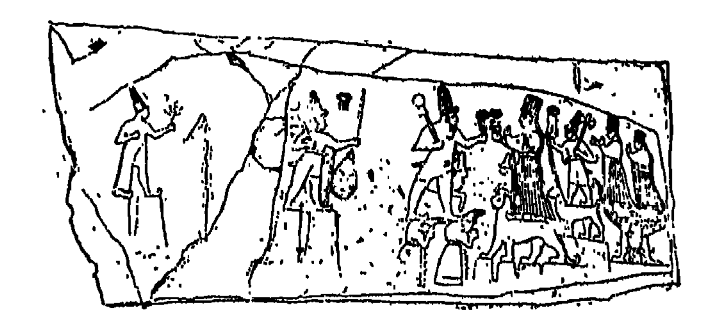
وكان وجود مثل هذه المعادن سببا فى نشاط التبادل التجارى بين آسيا الصغرى وغيرها من الأقطار ، فبعض النصوص تشير إلى انتقال التجار الحيثيين إلى خارج بلادهم كما أن بعض المعادن وخاصة النحاس كانت تصدر إلى بلاد النهرين فى مقابل المنسوجات والصفيح .

العلوم والفنون ·

مما لاشك فيه أن اللغة الحيثية كانت مثار جدل كثير ولم تعرف صلتها باللغات الهندو أوربية إلا بعد فترة طويلة من البحث ، وقد تبين أنها فعلا من اللغات الهندوأوربية بصفة مؤكدة منذ عهد قريب وإن كانت تحتوى على بعض الألفاظ الأجنبية - ويبدو أن هذه اللغة لم تستخدم فى المكاتبات الرسمية إلا قليلا واستخدمت بدلا منها لغات أخرى ، ومع هذا فإن بعض الكتابات وخاصة تلك التى تعرف باسم الهيروغليفية

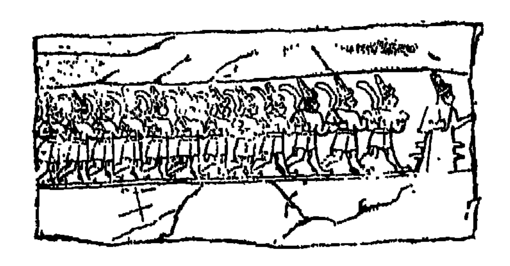
الحيثية لم يمكن تفسيرها تفسيراً مرضيا حتى الآن ، بل وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن أمثال هذه الكتابات كانت عسيرة الفهم بالنسبة للحيثيين أنفسهم حتى أنهم أضافوا بعض الفقرات كترجمة حيثية بين السطور لمساعدة الموظفين على تفهم هذه الكتابات ـ وبالطبع فإن لغة هذا شأنها واختلافها الواضح عن لغة الكلام كانت لاتيسر رقى العلوم والمعارف . والظاهر أن قيام الدولة على أساس مجدها العسكرى لم يتح الفرصة لوجود نهضة أدبية كبيرة فقد عثر على قصص بسيطة بدائية ، كما أن بعض الروايات والأساطير والقصص القصيرة أيضا ترجع إلى أصول بابلية وحورية ـ ولم يترك الحيثيون مع الأسف ما يعطينا فكرة عما توصلوا إليه فى المعارف المختلفة كالهندسة والفلك والطب وغيرها .

أما فى الفنون فإن أقدم ما عثر عليه لايستحق الذكر وخاصة لأنه من إنتاج مستوطنين يرجح أنهم كانوا قبل مجىء الحيثيين ـ ولايمكن أن نعتبر المنتجات الفنية حيثية إلا بابتداء عهد الامبراطورية تقريبا . ففن النحت لم يبدأ إلا مع الامبراطورية ومع ذلك فإنه لم ينته بزوالها ، ومن المرجح أن الحيثيين تأثروا فى بعض أساليبهم الفنية بما كان متبعا فى شمال بلاد النهرين وسوريا . وقد بلغ فن النقش مرتبة عالية فى التطور ـ ومع هذا فإن الأختام الاسطوانية التى كانت تستخدم فى حفر الرسوم على الألواح الطينية كانت من اختراع بلاد النهرين . وعند بداية المملكة الحديثة ظهرت نقوش غائرة على الحجر يصاحبها خط هيروغليفى . ومما يلاحظ أن الفنان كثيراً ما يلجأ إلى تمثيل الأشخاص متجهين سواء فى موكب أو موكبين نحو نقطة واحدة (شكل ٣٤) ، وقد اتبع الفنان طريقة الرسم التى



شكل ٣٤ ـ اتجاه المواكب نحو مركز واحد

كانت سائدة لدى معظم الشعوب البدائية إذ كان يصور الاشخاص بحيث يبدو الجذع من الأمام والرأس والأقدام من الجانب ، وربما كان هذا الوضع أيسر طريقة للتعبير عن أقرب الاشكال تمثيلا لصاحبه ـ وعند تصوير مجموعة من الاشكال كانت القاعدة التقليدية تظهرهم وكأنهم يسيرون قدما إلى الأمام نحو مركز معين ـ وقد أخطأ الفنان الحيثى كما أخطأ الفنان المصرى فى تصوير حركة الأشخاص بأن جعل الذراع اليسرى تمتد مع القدم اليسرى فى حالة جعل هذه الاخيرة تمتد إلى الأمام تمثيلا للبدء بها فى السير وهـو وضع غير طبيعى (لاحظ حركة الاشخاص فى الشكل السابق) ومن الملاحظ عموما أن أشكال الأشخاص والحيوانات والكائنات الأخرى تبدو غالبا كأنها مضغوطة الأعضاء أو بعبارة أخرى تتميز بالقصر والامتلاء أو عدم التناسق (شكل ٣٥) ، وربما يوحى ذلك بأن الفنان الحيثى القديم كان خاضعاً لتقاليد لم يستطع التحرر منها ، ومن المرجح أن هذه التقاليد ترتبط ببعض النواحى



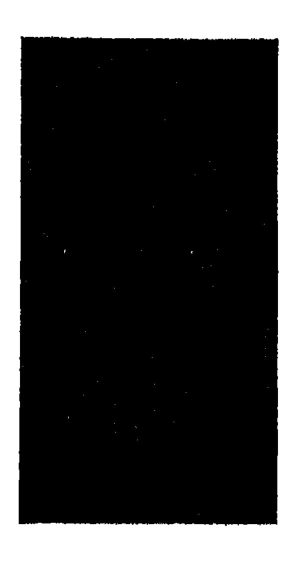
شكل ٣٥ - موكب يرى فيه أشخاص يغلب عليهم القصر
وعدم تناسق الأعضاء

الدينية - ومما يؤيد ذلك أن كثيراً من الأشكال التى صورها كانت تبين أشكالا خرافية ، ومن هذه تمثال كائن يمثل قرصا مغطى برسوم هندسية تعلوه رقبة طويلة أو رقبتان أو ثلاثة تنتهي كل منهـــا برأس



شكل ٣٦ - تمثال غريب اختصرت رأساه فلا تبدو منهما سوى العينين

وقد تختزل الرأس فتصبح في هيئة عينين فقط (شكل رقم ٣٦)، وربما كان الحيثيون يتصورون أن نقوش وتماثيل الكائنات الحقيقية والخرافات التي خلفوها تهيء لهم تحقيق أغراض سحرية ، ومن هذه تماثيل فى هيئة أسود وأخرى فى هيئة أبو الهول بوجوه آدمية (شكل ٣٧) ، كذلك منها أشكال مجنحة



شكل ٣٧ - تمثال مجنح لأبو الهول

قد يكون لها أكثر من رأس أحيانا (شكل ٣٨) وبعضها كان يفترض فيها أنها كانت قائمة عند مداخل المعابد او القصور للحماية والبعض الآخر يفترض أنها تمثل بعض الآلهة .



شكل ٣٨ - نقش حيثى من قرقيش

خامسا — بلاد النهرين

مع أن بلاد النهرين حظيت باهتمام الأثريين والباحثين منذ فترة طويلة نسبيا إلا أن ماكتب عنها حتى عهد قريب لم يخرج عن كتابات بعض الرحالة الذين شاهدوا أطلالها ووصفوها ، وقد بدأ بعض هؤلاء الرحالة فضلا عن ذلك فى نسخ بعض الكتابات التى شاهدوها على اللوحات فى بعض الأماكن الأثرية - ومن أهم هؤلاء عالم النبات « ميشو Michaud » الذى زار العراق وفارس فى ١٨٧٢ م وحمل معه أثراً بابليا منقوشا عثر عليه جنوب بغداد حاول بعض الباحثين قراءته دون جدوى - وتوالى بعد ذلك الاهتمام بآثار بلاد النهرين وبذلت جهود كثيرة فى دراسة أماكنها وجمع التحف منها ، وقد حاول بعضهم مقارنة ماكتبه هيرودوت وغيره من اليونان بما شاهدوه من أطلال بابل ، وفى عام ١٨٢٧ م قام أحد الانجليز بأول حفائر وعثر فيها على بعض اللوحات الفخارية والاختام الاسطوانية والنقود ، وبعدئذ تتابعت الجهود ولكنها كانت فى أول الأمر لا تتم بطريقة علميـة بل كان الهدف منها الحصول على مايمكن الحصول عليه من آثار وتحف ، وكان معظم المنقبين من قناصل الدول الأجنبية أو ممثليهم - ومن نهاية القرن التاسع عشر بدأت التنقيبات المنتظمة تأخذ دورها حتى عصرنا الحالى وقد بدأها الألمان فى بابل حوالى عام ١٨٩٩ م والأمريكيون فى نفر (نيبور) حوالى ١٨٨٨ .

وحسب ما وصل إلينا من معلومات حتى الآن عن الحضارات

التى انتشرت فى العراق تبين لنا أنها فى نشأتها تماثل الحضارة المصرية من حيث كونها حضارة زراعية فى أساسها ـ غير أننا نلاحظ أنها لم تكن فى كل أجزاء بلاد النهرين ذات طابع واحد فقد وجدت اختلافات ميزت بين تلك التى سادت فى بقعة عن تلك التى سادت فى بقعة أخرى، وذلك نظراً لأن بيئة بلاد النهرين ليست على وتيرة واحدة إذ تختلف فى الشمال عنها فى الوسط، عنها فى الجنوب وهكذا ـ وبالطبع مادامت الحضارات تنتج عن تفاعل الإنسان ببيئته كما أشرنا فى مقدمة الكتاب فإنه لابد من حدوث اختلافات بين حضارات هذه الأجزاء المختلفة من بلاد النهرين وإن كانت جميعها تشترك فى خصائص عامة كما أن بعض مظاهرها قد انتقلت من جهة لأخرى وانتشرت فيها .

ومع كل يمكننا أن نذكر بأن حضارة بلاد النهرين تمثل حضارة بيئة اتسمت بالعنف فى مظاهرها الطبيعية وقد أثر ذلك فى كل إنتاجها الحضارى ـ كما أن فترات النهوض والازدهار فيها لاتدل بالضرورة على وجود وحدة سياسية عامة انضوت تحت لوائها سائر أنحاء بلاد النهرين بل ولا حتى سائر أنحاء قسم من أقسامها الرئيسية، ففى أقدم العصور كان الجزء الجنوبى من العراق تسوده حكومات المدن المتنازعه ومع ذلك فقد انتشرت فيها حضارة راقية يكفى للدلالة عليها ماعثر عليه من آثار فى مدينة اور وغيرها من المدن التى كانت قائمة فى عهد السومريين .

ولا يمكننا أن نتناول بالتفصيل تلك الحضارات التى نشأت فى الأجزاء المختلفة وأن ندرس مقوماتها ومظاهرها، ومع ما أشرنا إليه من انتقال بعض المظاهر من قسم إلى آخر يمكننا مع التجاوز أن نتناول حضارات بلاد النهرين بصورة عامة، وسنكتفى ببيان أهم ماتتميز به فى نواحيها المختلفة .

الأسرة

كان الأساس فى الزواج عند البابليين يقوم على مبدأ الزوجة الواحدة فى معظم العصور وإن كان القانون يسمح للزوج أن يتزوج بزوجة أخرى فى حالة مرض الزوجة الأولى أو إذا ما ثبت أنها عاقر، ولم يكن ذلك قاصراً على العهد البابلى فحسب بل هناك من الدلائل مايشير إلى أنه وجد فى العصور السابقة والعهود المتأخرة أيضا ـ ولم يكن الزواج يعد صحيحا أو شرعيا إلا اذا ثبت أنه تم بعقد مدون مصدق عليه بالشهود وكذلك الحال بالنسبة للطلاق .

وكانت الخطبة تسبق الزواج وعلى الخاطب أن يقدم هدايا لخطيبته وفى حالة وفاته يحق لأحد أقاربه أن يحل محله فى الزواج فإذا رفض والد الخطيبة كان عليه أن يعيد لعائلة المتوفى هداياه التى قدمت منه وفى حالة موت الخطيبة كان للخاطب أن يتزوج إحدى أخواتها وإن لم يتم ذلك كان يسترجع هداياه ـ وبالإضافة إلى ذلك كان على العريس عند الزواج أن يدفع لعائلة العروس مهراً يصبح ملكا خاصا للزوجة ، يرثه أبناؤها كما تقدم عائلة الزوجة مبلغا آخر يكون ملكا للزوجة أيضا ولكنه يحفظ وديعة عند الزوج يجوز له أن يتصرف فيه ولكنه يعيده إليها فى حالة الطلاق كذلك كان هذا المبلغ يورث إلى أبنائها أو أهلها إن لم يكن لها أبناء فى حالة وفاتها ـ وهناك مبلغ ثالث يدفعه الزوج هدية لزوجته وهو هبة أو منحة منه .

وكان الزوج صاحب اليد العليا فى العائلة ومن حقه أن يطلق زوجته

على أن يدفع لها تعويضا أما إذا رفضت المرأة زوجها فكانت تعاقب عقابا شديداً يصل إلى الموت أحيانا ـ ومن المسلم به أن الزواج لم يكن ليتم إلا برضاء عائلتى الطـــرفين ؛ وعندما يتم الإتفاق يرسل الخاطب مقدمة المهر إلى والد زوجته المنتظرة ثم يدفع بقية المهر بعد ذلك ـ وإذا عدل الخاطب عن الزواج لا يكون له الحق فى استرجاع المهر أما إذا كان الرفض من جانب عائـــلة الزوجة فعليها أن تعيد جميع ماوصلها من الزوج .

ومما يلاحظ أنه بالرغم من حفظ كثير من حقوق المرأة وحريتها وخاصة فى الشئون الإقتصادية إلا أن الزوج كان يمـــكنه أن يتصرف حيالها كأنه المتصرف فى حياتها إذ كان يمكنه أن يجعل منها رقيقـا بيد دائنه إلى أن يستوفى دينه ، كما أنه فى حالة ضبطها متلبسة بخيانته يستطيع أن يعفو عنها فيحول دون إعدامها كما ينص القانون على ذلك .

وإذا ماتزوج الرجل من أمة فإن هذه تصبح حرة بعد أن تنجب أطفالا كما أن المرأة إذا أصيبت أثناء زواجها بمرض أو عاهة تعوقهـا عن أدائها واجباتها فإن الزوج لايحق له أن يطلقها ولكن يترك لهـــا الخيار فى البقاء فى بيت الزوج أو أن تعود إلى بيت ذويها وتسترجع ما أحضرته من أموال عند الزواج ، كما أن الزوج كان يستطيع الزواج من زوجة أخرى ـ ومن جهة أخرى كان من حق الزوج أحيانا أن يطلق زوجته دون أن تقترف إثما وفى هذه الحالة تسترجع الزوجة كل أموالها كما يحكم لها بالانتفاع ببعض ممتلكات زوجها ويضم إليها أولادها أيضا .

وقد نصت القوانين البـابلية على كثير من شئون الأحوال الشخصية

ومنها يتضح أن مبادىء تدعيم الأسرة وحفظ حق الأبناء فى أن ينشأوا فى أسر مستقرة وكفالة حقوقهم فى الميراث والهبات وغيرها قد بلغت مرتبة عالية من التنظيم، كما أن أبناء الإماء والأبناء بالتبنى قد تمتعوا بحقوق - وإن لم تصل إلى درجة حقوق الأبناء الشرعيين - كانت تكفل لهم حياة لابأس بها، ولكن القانون كان من جهة أخرى قاسيا فى عقوبة أبناء التبنى الذين يتنكرون لمن يتبناهم.

ومن الغريب أن نجد أن بعض النساء كن يكرسن أنفسهن للدعارة فى المعابد - والظاهر أن هذه الطائفة وجدت منذ أقدم العصور وكانت تعتبر من الكاهنات ولكل منهن حقوق شرعية فى أموال أبيهـــا وفى استطاعتهن أن يتزوجن شرعا ولهن حق التصرف فى أملاكهن - وربما كانت وجهة نظر البابليين بصدد هذه العادة أن المرأة كانت تتعبد إلى الآلهة بتقديم جسدها كتضحية حقيقية من جانبها.

وكان شأن الزواج فى آشور شأنه فى بابل يقتصر فى العادة على زوجة واحدة ولكن يلاحظ أن الرابطة العائلية كانت أقل تماسكا، ومع هذا فإن الفتاة تصبح مرتبطة ببيت حبيها منذ إتمام الخطبة - وكان الزواج يتم أحيانا بالشراء، وفيما عدا هذا نجد تشابها كبيراً بين القوانين الآشورية وبين القوانين البابلية المتعلقة بالأحوال الشخصية، وكانت الأسرة كما هو الحال فى بابل تحت ولاية وسلطة الأب أو أكبر الأبناء.

الملك

من المرجح أن بلاد النهرين انتظمت فى وحدات سياسية صغيرة منذ عصور سحيقة كانت كل منها تتمثل فى مدينة من المدن تحيط بها ممتلكاتها الخاصة من المساحات الزراعية وغير الزراعية وكان حكام هذه الدويلات يلقبون أنفسهم بلقب يعنى «وكيل الإله» مما يشير إلى أن سلطة الحاكم كانت مستمدة من سلطة إله المدينة أو أنه يعتبر ممثلا لهذا الإله حيث يبدو أن المعابد كانت أهم المبانى التى وجدت فى العصور قبل التاريخية وربما كانت حينئذ تمثل المراكز التى تدور حولها الحياة الإجتماعية فى تلك المدن وربما كان كهنتها كذلك هم الذين يقومون بالإدارة فى مثل هذه المجتمعات ومما يؤيد هذا أن الملوك فى العصور التاريخية كانوا يعتبرون كهنة الآلهة الرئيسية ونوابها فى حكم البشر - وقد ظل نفوذ رجال الدين سائدا إلى أن أخذت هذه المدن أو المجتمعات تتصارع فيما بينها حتى ظهر فيها أفراد يمتازون بالقوة والدراية فى الشئون الحربية فاكتسب هؤلاء صفات الزعامة وتولوا الحكم وبالتالى أصبحت لهم الزعامه الدينية أيضا وصار كل منهم كاهنا أعلى لإله مدينته وأصبح رأس الدولة وصاحب السلطان المطلق فيها - ومع هذا يبدو أنهم لم يصلوا إلى هذه المكانة تلقائيا إذ كانت كل مدينة تختار زعيمها وكان ذلك يتطلب وجود مندوبين عن المدينة فى عملية هذا الاختيار ، ولا شك أن المسنين والأعيان والرجال القادرين على حمل السلاح كانت لهم كلمتهم المسموعة فى هذا الشأن فأصبح هؤلاء يشكلون مجلسين أحدهما من الشيوخ والأعيان والآخر

من رجال الحـــرب ـ ثم تطور اختصاص هذين المجلسين فأصبحا يهيمنان على كل الشئون العامة فى الدولة بل وكان من حقهما التحكم فى انتخاب الملك ، وعلى هذا يمكن اعتبار أن نظام الحكم فى هذه المرحلة كان ديموقراطيا.

وما أن أخذت هذه الدويلات فى الاتحـــاد تحت سلطان واحد حتى أصبح هذا النظام غير عملى للبت فى الأمور وحسمها فتركزت السلطات جميعها بأيدى الملوك ومعاونيهم أو بمعنى آخر بيد الملك وحكومته أى أصبح نظاما أوتوقراطيا ، وقد استند هؤلاء إلى الحق الإلهي للملك إذ تشير الأساطير إلى أن شارات الملك كانت في السماء عند الإله « آنو » قبل أن تبدأ الملكية في الأرض ، ثم هبطة الملكية وشارات الملك من السماء إلى الأرض وانتخبت الآلهة حكام البشر ـ وعلى هذا أصبح لهؤلاء مكانة مقدسة بل ربما اتخذوا صفات الآلهة نفسها ولكنهم لم يعبدوا كآلهة حقيقيين أثناء حياتهم وإنما عبدوا بعد وفاتهم .

وكان على الملوك بصفتهم مفوضين من الآلهـة فى حكم الناس أعباء كثيرة إذ كان عليهم حماية النـاس والبلاد وقيـادة الجيش ونشر العدل وتوفير أسباب الرفاهية لرعاياهم بإقامة المشاريع العـامة كما أنهم كانوا يقيمون المعابد لآلهتهم (شكل ٣٩) ويحيون الشعائر فيها ومع هذا لم تحل قدسيتهم دون الاعتداء عليهم والثورة ضدهم واغتصاب عروشهم.

وكان البلاط يسير على قواعد صارمة حيث يحظى بشرف المثول بين يدي الملك رجال الدولة على حسب مناصبهم ومراكزهم ، وكان هؤلاء جميعا يتخلون عن ألقابهم ومناصبهم وأوسمتهم عند اعتلاء ملك جديد



شكل (٣٩) : الملك أور نمو يحمل سلة البناء
لإقامة معبد .

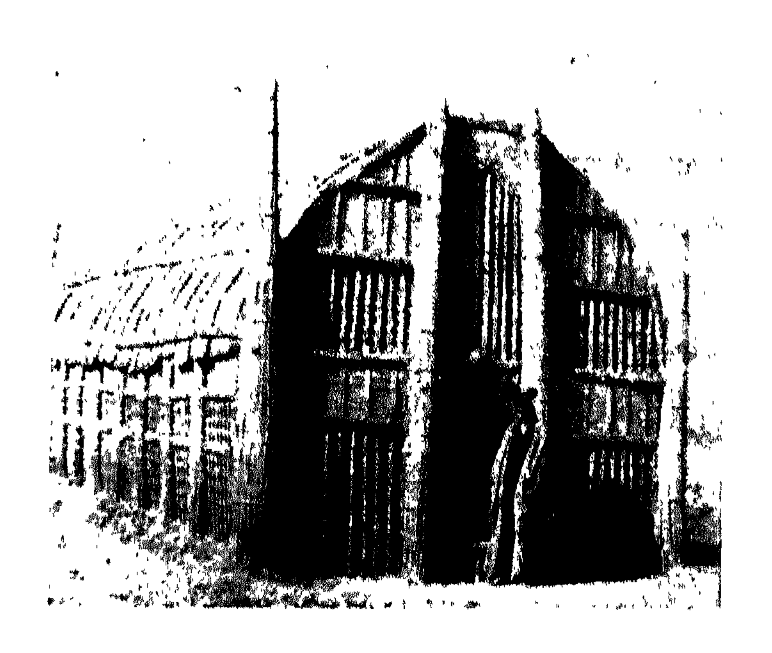
على العرش ولا يحق لهم استعادتها إلا بعد أن يأذن لهم هذا الملك بذلك .

وكان بلاط الملك بالطبع يضم الزوجة التى كانت تشترك فى تصريف شئون الدولة ولها قصرها الخاص وأملاكها التى تديرها بنفسها كما كان لأولادهما بيتهم الذى يختص بخدمه وسقاته وزراعه ونساجه وغير ذلك من أصحاب الحرف المختلفة - وكان أهم موظفى البلاط ناظر القصر وأمين خزانة الملك ، وإلى جانب هذين يوجد عدد من الكهنة والموظفين

والحرفيين الذين يقومون بالأعمال المختلفة ـ وقد أحاط ملوك الاشوريين أنفسم بحاشية ضخمة من الأخصاء والمقربين كحامل الختم وأمين القصر ورئيس الحرس وحامل السيف ومدير الموسيقى ورئيس النساجين وغيرهم، فضلا عن عدد كبير من الكتبة ورؤساء الكتبة ـ كذلك كان لكل من الملكة الوالدة والملكة وولى العهد هيئة من الموظفين على نسق حاشية الملك ولكنها أصغر منها كثيراً بالطبع .

المنـازل

كانت المساكن فى أول أمرها عبارة عن أكواخ من البوص الذى كان متوافراً كما هو الحال فى المناطق الجنوبية من العراق حتى الآن وكانت سيقانها تربط فى حزم وتثنى بحيث يصبح شكل السقف مقوسا (شكل ٤٠) ، وكانت هذه المنازل تغطى بطبقة من الطين ـ وبعدئذ استخدم اللبن فى بناء منازل صغيرة الحجم سقوفها من البوص المغطى بالطين وقد يدعم هذه ركائز أو تعريشات من أخشاب النخيل ـ وبعد ذلك عرف الآجر ولكنه لم يتخذ شكلا موحداً بل كان مختلف الأحجام والأشكال فمنه المستطيل والمربع والمقوس والمثلث الأركان ، ولم يستعمل الحجر إلا فى إطارات الأبواب فى المعابد والمنشآت العامة ثم استخدم بعد ذلك على نطاق أوسع فى عصور متأخرة كما أن القاشانى الذى عرف أيام الأشوريين وشاع استعماله بعد ذلك استخدم فى تكسية جدران القصور .



شكل (٤٠) : منزل من منازل جنوب العراق

ومن المعتاد أن المبانى كانت تبنى فوق مرتفع يعد لها حتى تكون بمنأى عن الفيضان، وهذا المرتفع كان عبارة عن أربعة جدران غالبا ما تكون من الآجر يملأ ما بينها الوديم وتتخلله ميازيب لتصريف المياه. وكان من النـــادر أن تبنى فوق الدور الأرضى غرف علوية وكانت البيوت متجاورة لا تترك بينها ممرات أو حارات ـ ومع هذا كانت المدن تخضع لتصميم معين يحدد شوارعها الطولية والعرضية . وبالرغم من عدم العثور على سقوف للمبانى التى كشف عنها إلا أنه لابد وأنها كانت من أفلاق النخيل أو جذوع الأرز التى يؤتى بها من لبنـان ، وكان

من النادر وجود نوافذ بالمنازل غير الأبواب سوى بعض الفتحات الصغيرة في أعلى الجدران.

وفي آشور لم تكن المرتفعات التي تعد لإقامة المباني عليها ضرورية لأن البيئة هنا غير معرضة لخطر الفيضان كما هو الحال في الجنوب ، ومع ذلك كانت تستخدم لكي تزيد من روعة المبنى - وكان اللبن يستعمل في بناء الجدران قبل أن يجف حتى تتماسك طبقاته دون استعمال المونة ، أما بالنسبة للقباب فإن اللبن التام الجفاف كان يستعمل في بنائها وكانت الفجوات فيها تملأ بالطين .

والتصميم العام للمنازل كان لايخرج عن فناء أو ساحة مكشوفة يحيط بها عدد من الحجرات تستمد الضوء والهواء منها كما كان يستعان في تهوية هذه الحجرات كذلك بأنابيب فخارية مثقوبة ، وكانت جدران البيوت تطلى عادة من الخارج والداخل .

وقد عثر على نماذج مختلفة لأثاث المنازل وخاصة من الأواني الفخارية والمعدنية والمدارج - وتذكر النصوص كثيراً من أنواع الأسرة والكراسي وآلات الموسيقى وغيرها - وفي عصر الأشوريين خاصة ازدادت فخامة الأثاث وتنوعت أشكاله ، وكثيراً ما كان يصنع من أخشاب ثمينة كما كان يحلى بمنحوتات تمثل كائنات مختلفة .

الملبس والزينه

يبدو أن أول زى عرفة السومريون والأكديون كان يشبه إلى حد بعيد ماساد فى مصر فى أقدم العصور إذ أنه كان عبارة عن نقبة من لون واحد تمتد إلى الركبتين ، ولكنها كانت تحلى بخيوط أو شبكة تنتهى بأهداب فى صفوف منتظمة — وهذا الزى هو الذى يظهر به الآلهة والملوك فى أقدم النقوش والتماثيل (شكل ٤١) ، وقد ظل الأفراد

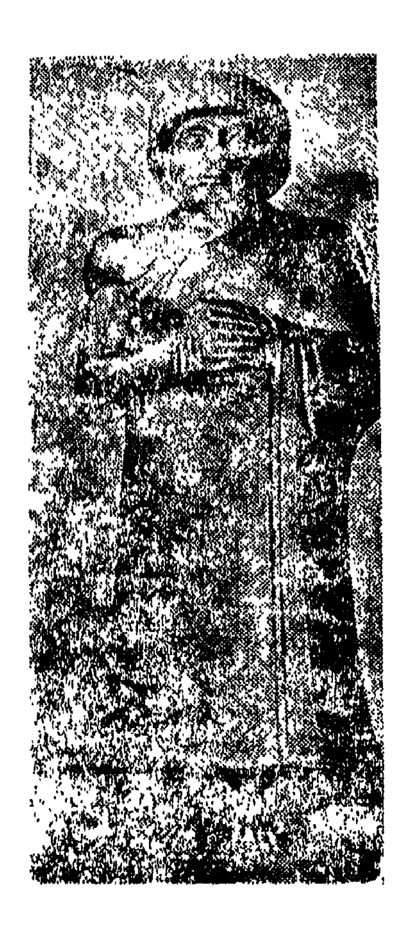


شكل (٤١) : نقبة يلبسها الرجال وتنتهى بصفوف منتظمة من الأهداب

العاديون يستعملون زيا مماثلا له (وإن كان أبسط منه) - وهو أيضا من لون واحد وله أهداب عادة.

وقد أضيفت إلى هذه النقبة قطعة أخرى تدور حول الكتف اليسرى - وبمرور الزمن زاد حجم النقبة حتى أصبحت تصل إلى قرب القدمين وتجمع بين النقبة والقطعة التى تغطى الكتف اليسرى القديمتين ، إذ أنها كانت تمتد إلى أعلى بحيث تربط تحت الإبطين وتدور حول الذراع اليسرى بينما تظل الذراع اليمنى عارية (شكل ٤٢) - وقد أضيف إلى هذا الزى شال (ملفعة) مزركشة أو منسوجة بألوان متعدده متناسقة ثم أخذت تظهر فيها زخارف متأثرة بالفن الحيثى وهذه تمثل الزهور والأشجار والحيوانات والمردة وغيرها - وكانت تلك الملفعة تثبت بحزام أو خيوط مجدولة وحمالة ولها أهداب فى نواحيها الأربعة ، وقد تختلف أشكالها تبعا لاختلاف مكانة صاحبها.

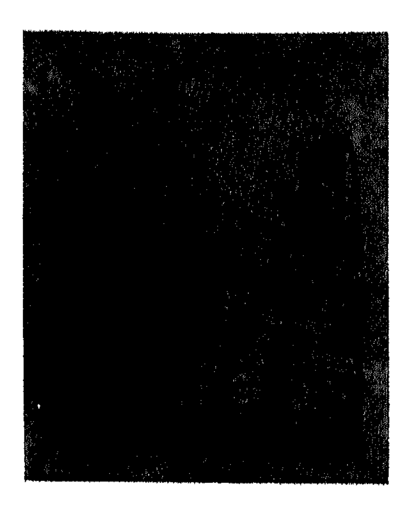
أما غطاء الرأس فلا يظهر إلا فى نقوش الآلهة والملوك حيث كان الآلهة يميزون بقلنسوه مزينة بقرون تتقابل أطرافها الأمامية كل اثنين معا (شكل ٤٣) ، كما أنهم كانوا يميزون أحيانا برموز أخرى كالأسلحة التى يمسكون بها أو برموز أخرى - أما الملوك فقـــد يلبسون تاجا أو عمامة ، وهذا التاج كان على شكل قمع مخروطى أضاف إليه الأشوريون سن مدبب كما كان يحيط به إكليل مدبب فى أعلاه أحيانا (شكل ٤٤) - وقد يظهر الملوك أحيانا عـــراة الرؤوس حيث تكون حليقة غالبا وأحيانا يكون الشعر طويلا معقودا على القفا - ولم يستعمل عامة الناس غطاء للرأس عادة ولكنهم كانوا يربطون شعرهم أحيانا بعصابة بينما



شكل (٤٢) : تمثال يرى فيه الزى السابغ
الذى يكشف أحد الذراعين

يستعمل الكهنة شعراً مستعاراً يثبته إكليل - أما النساء فكانت عنايتهن بشعورهن ملحوظة حيث يصففنها فى أشكال مختلفة ويربطونها بشرائط وشباك كما يستعملن عصابة ذات أهداب أيضا .

وكان الرجال والنساء يضعون عقوداً أو تمائم حول رقابهم من



شكل (٤٣) : حورابى أمام الإله الذى يلبس تاجا
به قرون يتلاقى كل اثنين منها معا

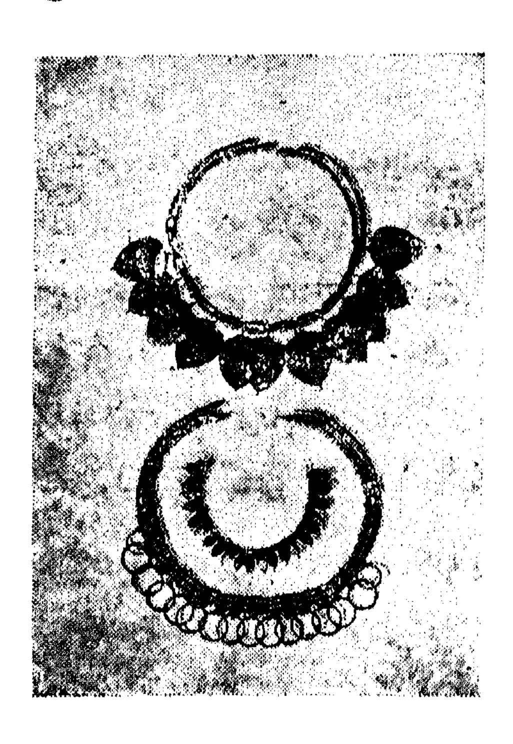
الأصداف أو الأحجار شبه الكريمة ، وفى عصر الأشوريين انتشر استعمال الذهب والفضة والنحاس المذهب وكانت الخرزات كبيرة الحجم نسبيا وهى إما بيضاوية أو اسطوانية الشكل تصنع أحيانا من رقائق الذهب وتحليها بعض الزخارف وأحيانا أخرى تصنع من أحجار ثمينة أو من البلور الصخرى التى تحليها حلقات أو خيوط من الذهب (شكل ٤٥) .

كذلك استعمل أهل بلاد النهرين الخواتم والحلقان والأساور التى تلبس حول المعصم أو فى أعلى الساعد ، وهذه الأخيرة كانت غالبا



شكل ٤٤ - شلمنصر الثالث يصافح ملك بابل
وهو يلبس تاجا مخروطى يعلوه سن مدبب

مفتوحة وثقيلة ينتهى كل من طرفيها بشكل رأس حيوان ، وهذه كانت تصنع غالبا من البرونز - وكان عامة الشعب بالطبع يكتفون بعقود



شكل ٤٥ : عقود من الذهب

وأساور تصنع غالبا من مواد أقل قيمة ولكنهم اجتهدوا فى أن يجعلوا منها محاكاة لنظائرها الثمينة ـ هذا وقد استعمل أهل بلاد النهرين الزيوت والدهون العطرية بصفة دائمة .

الادارة

أشرنا فيما سبق إلى أن الملكية فى دولة المدينة (كما تتمثل فى أقدم عصور بلاد النهرين) كانت تسير وفق نظام ديموقراطى ، ثم أصبحت ـ بعد أن تطورت هذه إلى دولة المملكية ـ تسير وفق نظام أوتوقراطى (أنظر أعلاه ص ٢٠٠) فصارت السلطات جميعها بيد الملك وحكومته إستناداً إلى ما أشارت إليه الأساطير من حق إلهى للملوك والحكام ، ولايسرى هذا بالطبع إلا على من يتولى الحكم فلا تشير هذه الأساطير إلى ألوهية الملوك والحكام بخلاف ما اصطلح عليه المصريون من أن فراعنتهم كانوا من نسل الآلهة أو من الآلهة نفسها ـ غير أننا نلاحظ بأن التعاليم الدينية فى بلاد النهرين كانت توحى بأن الآلهة هى التى تنتخب الحكام الذين يمثلون وكلاءهم فى الأرض ، وقد تطور الحال بعد ذلك فأصبح هؤلاء يتمتعون بقدسية جعلتهم ينتحلون بعض صفات الآلهة نفسها وسبقوا أسماءهم بعلامة التألية ولكنهم لم يصلوا إلى مرتبة الآلهة الحقيقيين .

ومع أن بعض الملوك ادعوا أنهم أبناء بالتبنى للآلهة فإن كل ملك جديد يدعى أن الآلهة قد اختارته لكى يكون ملكا على البلاد[1]. وكان على الملك

---

(١) طه باقر « مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة » (بغداد ١٩٥٥) جـ١ ص ٣٨٥

بصفته مفوضا من الآلهة واجبات متعددة ، ولذا كان بالطبع يحتاج إلى جمهور كبير من المعاونين إذ كان له جملة وزراء يرأسهم وزير وهذا الرئيس يختص غالبا بشئون السياسة الخارجية ـ ومن أخطر الوزراء منصبا وزير المالية إذ أنه كان مسئولا عن الشئون الاقتصادية المختلفة ، ويلى هؤلاء الوزراء أهمية قواد الجيش الذين علت مكانتهم بعد أن زادت جيوش الملوك قوة وعدداً .

وكان الملك يعين حكاما وولاة للأقاليم، وكان هؤلاء فى أقدم العصور أشبه بأمراء الاقطاع إذ كانوا يرثون مناصبهم ولكن زال عنهم هذا الحق فيما بعد حيث أصبح الحكم المركزى قويا ـ كما أن الملوك كانوا يعينون قضاة مدنيين بدرجات متفاوتة إلى جانب قيام الكهنة بتطبيق أحكام الشرائع وتفسير نصوصها فى المعابد .

ويمكننا أن نعتبر طائفة من موظفى الخاصة أو البلاط كموظفين عموميين فى نفس الوقت حيث كان هؤلاء يقومون بمهام رسمية إلى جانب مراكزهم فى البلاط ومن هؤلاء مندوبين للملك يرسلهم كسفراء خصوصيين ليمثلوه لدى الدول الأجنبية ويصحبهم عادة مترجمون وكتبة وقضاة .

ومع وجود هذه الطوائف من الموظفين كان نشاط الملوك فى الاضطلاع بمهام الدولة المختلفة غير محدود وتتبين فى آثارهم مدى تنوع الأعمال التى قاموا بها كما نتبين مدى وقوفهم على مختلف شئون الدولة حتى فى بعض الامور التافهة ، فكثيراً ما نجد أنهم كانوا ينظرون فى بعض شكاوى الأفراد ويعيدون الدعاوى إلى المحاكم لإعادة النظر فيها استيفاء لبعض الاصول المتبعة ، كذلك كانت بعض القضايا لايبت فيها إلا بقـــرار من

الملك شخصيا - وكان على الملوك أيضا أن يقوموا بمشروعات عمرانية مختلفة مثل تطهير الأنهار وشق القنوات وبناء المعابد ، وهم الذين يفسرون ما تريده الآلهة وفى نفس الوقت يمثلون الرعية لدى الآلهة وهم الذين يرأسون الطائفة الدينية ويعينون رؤساء الكهنة - وإلى جانب هؤلاء الأخيرين كانوا يعينون بعض الكهنة والعرافين الذين كانوا يرسلون إلى جهات مختلفة لرصد النجوم ويرسلون إلى الملك بتقاريرهم :

العسكريه

تدل النقوش الأثرية من مختلف العصور على أن الملوك كانوا دائما على رأس جيوشهم ، وهذه الجيوش لم تبدأ كهيئات نظامية فى أغلب الظن إلا من أواخر العصور قبل التاريخية إذ ربما كانت حاجة المدن إلى الدفاع عن نفسها هى التى أدت إلى ظهور الجيوش المدربه المستديمة - وكانت الخدمة العسكرية تعتبر « خدمة الملك » فكانت بعض الاراضى تخصص للداخلين فيها ولكن - مع جواز إعطاء هذه الاراضى إلى الابناء على شرط القيام بخدمة الملك فإن مثل هذه الأراضى - لم يكن من الجائز بيعها أو رهنها ، والظاهر أن ضباط الجيش كانوا يعتبرون من ضرورات الامن فى المدينة حيث كان المعبد يقوم بدفع الفدية عنهم فى حالة أسرهم إذا لم يتمكنوا من دفعها بأنفسهم بل كانت المدينة كذلك ملزمة بدفعها إذا لم يوجد فى المعبد المال اللازم لذلك .

وكان الملك يسير إلى الحرب على رأس جيشه ويلبس خوذة شبه مخروطية يتدلى منها ما يستر العنق من الخلف ويتسلح بحربة وسلاح آخر

عبارة عن مقبض خشبي ربط إليه نصل مقوس بسيور من الجلد أو حلقات ـ ومن الأسلحة التى شاع استخدامها منذ أقدم العصور فأس القتـــال ، وتبين لنا أقدم النقوش أن الجيش كان ينقسم إلى فريقين من المحاربين : أحدهما مسلح بأسلحة ثقيلة يحمل أفرادها حرابا كبيرة ويقبض كل منهم حربته بكلتا يديه ، وهؤلاء يتقدمهم صف من حملة الدروع والثانى مسلح بأسلحة خفيفة عبارة عن فأس ورمح ـ ويبدو أن مهمه الفريق الأول هى الهجوم عند الالتحام مع الأعداء أما مهمة الفريق الثانى فكانت المطاردة.

وفى العصر البابلى القديم كان الملوك يتسلحون ببلطة سلاحها ضيق وقوس مزدوج وسهام ، أما قواده فقد يتسلح الواحد منهم بحربة وبلطة ذات نصل محدب أو بلطة فقط بينما يحمل فريق المحاربين حرابا أو قسيا أبسط من قوس الملك أو أن يحمل الواحد منهم بلطة وحربة أو بلطة وعلم ـ ويغلب على الظن أن الخوذات التى كان يلبسها الجنود كانت تصنع من الجلد أو البرونز ، أما الجعاب فكانت تصنع من الجلد والصوف .

وقد وجدت عربات حربية تجرها الحمير والخيول الوحشية ، ولم تستعمل الخيول المستأنسة إلا من عصر متأخر نسبيا ـ وكانت هذه العربات ثقيلة عجلاتها صماء ولم تظهر العجلات الخفيفة إلا فى حوالى الألف الثانى ق . م

وكان رؤساء الجيش إلى جانب قيادتهم للجند مسئولين عن الإشراف على السخرة التى تتطلبها المشاريع العامة ويبدو أن طائفة من الناس كانوا ملزمين بمثل هذه الأعمال وبالخدمة العسكرية الإجبارية ، وكان لهؤلاء قوادهم ورؤساؤهم ولايستطيع أحد الملزمين التهـــرب من أداء الالتزام (خدمة الملك) وإن كان الأمر قد تطور فيما بعد فأصبح فى الإمكان أن يحصل على الإعفاء فى نظير دفع ضريبة سنوية .

ومن المرجح أن طائفتين من القواد أو المشرفين كان أفرادها يكلفون باستدعاء الرجال للخدمة ، فبعضهم يختص بجمع المجندين لوظائف الجيش والبعض الآخر كانوا مكلفين بأعمال البوليس - ويمنح المكلفون للجيش أملاكا من أموال الدولة فى هيئة معاش مدى الحياة كما أن المكلفين بأعمال البوليس كانت لهم امتيازات شخصية وامتيازات بالنسبة لأملاكهم لا يمكن للحاكم أن يتعرض لها وإلا كان مصيره الاعدام - وإذا ما تغيب أحد هؤلاء المكلفين سواء من الجيش أو البوليس فإن أبناءه يديرون أملاكه ، وإذا كان هؤلاء صغاراً فإن الزوجة تدير هذه الأملاك فى نظير ثلث الإيراد - ومن جهة أخرى كان من الواجب أن تحفظ هذه الأملاك فى حالة جيدة وإن تعمد مالكها الذى منحت له فى نظير التكليف إهمالها أو احتلها آخر لمدة ثلاث سنوات فلا يجوز إعادة تملكه لها ويصبح واضع اليد عليها هو المنتفع الشرعى .

وكان ملوك آشور قواد حرب أكثر منهم رجـــال دولة ولكنهم كانوا لا يخرجون فى حملاتهم دون استشارة الآلهة عن طريق العرافين والمنجمين وبعد أن يتلقوا تقارير عن الجهات التى يزمعون مهاجمتها ومدى النجاح المتوقع لحملاتهم ، كما أنهم كثيراً ما قاموا بحملاتهم بناء على أمر إلهى يتراءى لهم فى أحلامهم - وحينما لا يكون الملك على رأس جيشه كان أكبر موظفى البلاط هو الذى ينوب عنه فى قيادة الجيش .

ومن الملاحظ أن الجيوش الأشورية أدخلت نظام الفرسان الذين كانوا يركبون الخيل دون سرج فى أول الأمر ويصحب كل منهم خادم راكب أيضا ثم تقدمت الفروسية فوضعت السروج فوق الخيل واستغنى

عن الخدم ـ وفضلا عن ذلك وجدت عربات حربية يجر كل منها زوج من الخيل ويركبها ثلاثة رجال (كالعربات الحيثية) أحدهم للقيادة والثانى مسلح بحربة أو قوس والثالث يحميهما بدرع ـ أما مشاة الجيش فمنهم من يتسلح بالأقواس ومنهم من يحمل الرماح والدروع ويلبسون خوذات مخروطية ذات زوائد جانبية لحماية الأذنين ، كما أنهم يتدثرون بزرد يغطى الصدر والجزء العلوى من الساعدين ويلبسون أحذية طويلة وكل منهم مزود بسيف قصير لاستخدامه عند الالتحام مع العدو عن قرب ـ وإلى جانب هؤلاء كان الجيش يضم عمالا من الجنود يحمل كل منهم بلطة ومعول لكى يقوموا بعمليات الهدم .

هذا ويلاحظ أن بعض النقوش المتعلقة بحصار بعض المدن تبين أن الأشوريين استخدموا آلات للهدم تحميها سقوف من أغصان متشابكة كما استعملوا أبراج عالية تسير على عجلات إلى أن تصل إلى قرب السور المحاصر ، ويعتلى هذه الأبراج رماة السهام الذين يرمون بسهامهم الجند الذين يعتلون الأسوار للدفاع عن المدينة المحاصرة .

وقد اشتهر الأشوريون بالقسوة فى حروبهم وفى معاملة أعدائهم والمدن التى تسقط فى أيديهم ، وكانوا بعد انتصاراتهم يبيحون لجنودهم البلاد المفتوحة فيعملون فيها النهب والتدمير كما أنهم كانوا يبثون الإرهاب بين الجهات التى يريدون إخضاعها لسيطرتهم ، وكثيراً ما كانوا يقومون بتخريب المحاصيل وحرق القرى ـ وهم أول من استن سنة نفى سكان البلاد التى تخضع لهم وإحلال سكان آخرين فى مكانهم ليمزجوا بين الشعوب الخاضعة لهم حتى تفقد صفاتها القومية ، فهم الذين نفوا سكان إسرائيل الى ميديا وأحلوا فى مكانهم مواطنين آخرين من جهات مختلفة .

الديانة

ليس من السهل أن نحدد العناصر الأصلية فى ديانات بلاد النهرين القديمة ، إلا أنه لاشك فى أن عناصر الكون كانت تشكل معبودات رئيسية فى اللاهوت - وقد نسب أهل بلاد النهرين القدامى إلى معبوداتهم بعض الصفات والعواطف الإنسانية ولكنهم ميزوهم عن البشر بالخلود وبأنهم كانوا خيرين دائما ، ولم يكن الشر من عملهم بل من أرواح خبيثة تفوق البشر ولكنها دون الآلهة .

وقد تخيل هؤلاء القوم أن العالم قبل نشأته كان يمثل فراغا تميز بعنصرين مختلفين من الرطوبة : أحدهما الماء العذب والآخر يمثل الماء الملح وقد ولدت منهما كل الكائنات التى بدأت بمعبودين لم يلعبا دوراً ملحوظا ، ثم بعد فترة أنجبا كذلك معبودين آخرين يمثلان السماء والأرض ومن هذين الأخيرين جاء ثلاثة آلهة آخرون هم الثالوث الأعظم لمجموعة الآلهة البابلية « أنو - إنليل - إيا » وقد اعتبر الإله « أنو » الإله الأعظم منذ أقدم العصور ، وكان يحكم فى السماء ولكنه لم يحتفظ بسلطته العليا كأسمى الآلهة حينما انتقلت السيادة من سومر إلى بابل إذ أصبح إله هذه الأخيرة « مردوك » على رأس الآلهة فحل محل الإله أنو - وقد اعتبر الإله « أنليل » سيد الأرض الذى استطاع أن يصل إلى مكانة أنو بل وأصبح أيضا أبا للآلهة ، وهو مستشارها الذى أحدث الطوفان كما كان يعد سيد الكائنات الإنسانية الذى عهد بهم إلى أمراء يقودونهم ويحكمونهم - أما الإله الثالث وهو « إيا » فكان يعد سيد الأرض يحكم فى مسكن المعرفة ، أى المياه التى تحمل الأرض وتحبط

بها ، كما كان إلها للحكمة خالق الإنسان من كتلة من الطمى نفخ فيها نسمة الحياه ، وهو الذى أنقذ البشر من الفناء فى زمن الطوفان وعلمهم مختلف الصناعات ومنح الذكاء للملوك.

ويلى هذا الثالوث ثالوث آخر يتألف من إله القمر وإله الشمس وإلهة هى الزهرة « عشتار » - وكان إله القمر يقيس الزمن ويعاقب المذنبين من الملوك بقضاء حياتهم فى التأوهات والدموع ، وكان إله الشمس هو القاضى الأعظم الذى أملى قوانين العدالة على الملوك ، أما « عشتار » فكانت إلهة الحرب وإلهة اللذة تسعى لغواية البشر كما أنها كانت تعد أخت إله الشمس وفى نفس الوقت أخت إلهة العالم السفلى .

وإلى جانب هؤلاء جميعا كانت كل قوى الطبيعة وكل قوى الخير تؤله عند السومريين والبابليين كما كان لكل مدينة معبودها حتى أصبح عدد المعبودات كبيراً جداً - وبالطبع كان تفوق معبود على الآخرين يجعل من هذه المعبودات الأخرى معبودات مظاهر له وينسبون اليه قدرة لاتوجد لدى الآخرين كما أنه يصبح المتحكم فى تقرير المصير كذلك عبد السومريون والبابليون عدداً من الأبطال الخرافيين تظهر، أسماء بعضهم فى القوائم الملكية كملوك فى العصور السابقة للتاريخ ، كما أن بعض الامراء انتحلوا الصفات الإلهية أثناء حياتهم ولم يختلف الدين الاشوري عن البابلى فى روحه ولكنه تأثر بعض الشيء بالمظاهر الحربية التى سادت عهد الاشوريين ، وبالطبع احتل إلههم أشور (شكل ٤٦) مكانة أعظم إله فى بلاد النهرين ونسب إليه الخلق ، وهو من جهة أخرى كان يعد إلها حربيا أخضع الناس جميعا لسلطانه وكانت زوجته عشتار الاشورية تحتل المكانه التالية لمكانته كما أنها كانت تعد بطلة المعارك وحامية آشور .



شكل ٤٦ : الإله آشور

ومن الجدير بالذكر أن بعض الطقوس كانت تحوى أناشيد تنص على الاعتراف بكثرة الذنوب كما تنص على أن هذه الذنوب ربما كانت غير مقصودة بالنسبة لآلهة قد لا يعرفها من يتلو هذه الأناشيد وكانت التقوى الدينية تكافأ بالعمر الطويل فى الحياة الدنيا - ومن الغريب أن الجزاء فى الآخرة لم يكن واضحا بل كان يظهر فى النصوص الدينية ما يشير إلى أن المرء يلقى جزاءه من ثواب وعقاب فى حياته الدنيا ، ومع هذا فقد كان الاعتقاد سائداً بأن ظل الميت يفترق عن جسده عقب الموت مباشرة ويتحول إلى روح شريرة مالم تدفن الجثة - وعلى هذا فإن الحرمان من الدفن كان يعد عقوبة قاسية ، وبالرغم من ذلك فإن مصير الموتى لم يكن واحداً وكان أقصى ما يطمعون فيه أن يستريحوا فى العالم السفلى فوق أسرة ويشربون ماءاً نقيا أو أن ينالوا عون آبائهم وأزواجهم إن كانوا ممن سقطوا فى المعارك - أما ما عداهم فإن مصيرهم

كان محزنا تأكلهم الديدان ويملؤهم الغبار ، وهذا بخلاف ما اعتقده المصريون من أن الأبرار كانوا ينعمون بصحبه الآلهة ويعيشون فى حقول «يارو» أما سواهم فإنهم يلقون جزاءهم من العذاب (أنظر أعلاه ص ٨٥، ٨٦).

وقد أدى التفكير فى نشأة الوجود إلى ظهور أساطير مختلفة وصلت إلينا منها بعض النماذج ـ وتعد الأسطورة البابلية أقدم نموذج وصل إلينا كأسطورة طويلة ، وهى مدونة على سبعة ألواح طينية تعرف لدى علماء الأشوريات باسم «ألواح الخليقة السبعة» وهى تحتوى على نحو ألف بيت تقريبا وتشير إلى أنه لم يكن فى البدء سوى الماء العذب « الإله ابسو » والماء الملح « الإلهة تيامه » وكانا مختلطين ثم ولدت منهما الآلهة الآخرين متعاقبين ـ وفى ذلك ما يشير إلى أن المادة (المياه) أزلية وهى فى نفس الوقت الإلهين اللذين جاءت منهما الآلهة ومن أعقابهما أعظم الآلهة لدى البابليين وهو « مردوخ » وقد أشرنا إلى ما تضمنته هذه الأسطورة عند الكلام على ما تخيله القوم عن نشأة الآلهة (أنظر أعلاه ص ٢١٦) .

ويرى بعض المؤرخين أن هناك تشابه واضح بين هذه الأسطورة وبين ماجاء فى سفر التكوين من أنه فى البداية لم يكن يوجد سوى هيولى مظلم من الماء ، ولكن الأسطورة تختلف عن الكتب السماوية عموما فى أنها جعلت المادة أزليه سبقت أى شىء آخر ، ومع كل فإن الأسطورة تعكس صورة لما يدور فى بيئة بلاد النهرين من صراع بين عناصر الطبيعة وبين الإنسان وبيئته .

ومن الأساطير التى اشتهرت فى تاريخ العراق القديم الأسطورة المعـــروفة باسم « ملحمة جلجامش » أو « الطوفان » - ومع أن جلجامش قد ورد ذكره كأحد ملوك الأسرة الأولى فى الوركاء إلا أنه صار موضوعا لعدة ملاحم وقصص كلها تصف أعماله ومغامراته وبطولته الخارقة، وأشهر هذه القصص تلك التى تتصل بالطوفان وهى أطول ملحمة فى الشعر البابلى حيث كتبت على ١٢ لوحا من الطين تحوى نحوا من ٣٥٠٠ سطراً وهى تتلخص فى وصف جلجامش بالحكمة ومعرفة أخبار الأزمنة السابقة للطوفان وأنه سافر أسفارا بعيدة ، وهو بطل الآلهة الذى خلقته فى أحسن صورة وقوة ؛ ثلثاه إله والثلث الباقى بشر - وقد تعسف مع أهل الوركاء الذين أستغاثوا بالآلهة وهذه خلقت بطـــلا قويا هو « انكيدو » ليكون منافسا لجلجامش ، وتحدث بين الاثنين معركة ينتصر فيها جلجامش ثم يصبحان بعد ذلك صديقين - ثم يذهبان معا فى سفر طويل للحصول على الشهرة والمجد وينجحان فى ذلك أولا ثم يعودان إلى الوركاء ، وهنا تحاول الإلهة عشتار إغواء جلجامش ولكنه يحيد عنهـا فطلبت إلى والدها « آنو » إله السماء عقـــاب جلجامش فخلق هذا « ثور السماء » الذى أخذ يفتك بأهل الوركاء - وانبرى له الصديقان « جلجامش وأنكيدو » يصارعانه حتى قضيا عليه واحتفلا بنصرهما .

ثم تدور الدوائر عليهما وقد غضب عليهما الآلهة فيمرض « أنكيدو » ويموت وهو فى ريعان الشباب ويحزن عليه جلجامش ثم يتملكه الخوف من الموت ويفكر فى التخلص منه لكى ينال حياة خالدة - وهنا يذكر جده الخالد « أوتونبشتم » فيذهب إليه ليسأله عن سر الخلود ؛ ويصل

إليه بعد أهوال وبعد أن تنصحه إحدى الإلهات بالانصراف عن فكرة الخلود لأنه من البشر وأن نصيبه الموت ـ وما أن يصل إلى جده حتى يسرد له هذا الأخير قصة الطوفان ويشير فيها إلى أن الآلهة عزمت على إحداث الطوفان ، وقد حاباه الإله « إيا » فأخبره بذلك قبل حدوثه ونصحه بعمل سفينة من سبع طبقات قسم كلا منها إلى تسعة أقسام وجهزها بما تحتاج من مؤن ... الخ وبعد أن نجا من الطوفان قدم قربانا إلى الآلهة ، وصعد الإله « أنليل » إلى السفينة وأخذ بيد « أوتو ـ نبشتم » وأخرجه من السفينة هو وزوجته ثم أمر بأن يصبحا إلهين ـ وبعد أن يصل « أوتو ـ نبشتم » إلى هذا الحد من قصته يوجه كلامه إلى جلجامش قائلا « من ذا الذى سيجمع الآلهة من أجلك حتى تحصل على نعمة الخلود وبعد أن يفشل جلجامش فى الاختبار الذى أختبره به «وأوتو ـ نبشتم» تشفق زوجة هذا الأخير على جلجامش وتشفع له فيصف له زوجها نبات الخلود ومكان وجوده ـ وبعد أن يحصل جلجامش فعلا على هذا النبات ويسر به يتخذ طريقه للعودة به إلى مدينته لينميه ويستفيد به الناس. إلا أنه يصادف فى طريق عودته بركة ماء نزل إليها للاستحمام وإزالة عناء السفر ، وفى أثناء ذلك اجتذبت رائحة النبات الحية فاختطفته وبذلك حصلت على قوة تجديد الشباب لأنها كلما شاخت تنزع جلدها فيعود إليها الشباب .

وتذكر رواية أخرى من هذه الأسطورة أن جلجامش قام بأسفار بعيدة ليخلد له اسما مع أسماء الآلهة فى « أرض الحياة » ـ كما أن جزءا من نصوص هذه الأسطورة يبدو أن لاعلاقة له بسياق المغامرة التى قام بها

بجلجامش حيث أنه يأمر « أنكيدو » بأن ينزل إلى العـــالم السفلى كى يحضر له آلتين من الخشب كان قد صنعها وسقطتا منه فيه ـ وبعد أن ينزل « أنكيدو » يتضرع جلجامش إلى الآلهة كى تبعثه من عالم الأرواح لينبئه عن أحوال العالم السفلى ، فتصعد روح « أنكيدو » وتعطيه صورة قاتمة عن حالة أرواح الموتى إذ أن غالبيتها سجينة ، طعامها التراب والطين بينما تتمتـع القـلة منها وخاصة من مات أصحـابها فى الحـــرب ميتة الأبطـال ومن تركوا ذرية لهـم ـ بمعامـــلة خـاصة حيث يجـدون الماء والقوت .

ومن الأساطير ما يعـكس صورة عن أفكار القوم فيما يتعلق بأصل الشر وطبيعة الانسان وعجزه عن إدراك الخلود ، ومن هذه أسطورة « آدابا » الذى يرى بعض المؤرخين أنه يشبه « آدم » [1] وإن كان لا يبدو من هذا التشابه إلا مخالفة « آدابا » لأمر الإله « آنو » بأن يأكل من الطعام (طعام الخلود) الذى قدمه إليه بناء على نصيحة الإله « إيا » له ـ أما فيما عدا هذا فهى تبين ميل الإنسان إلى الانتقام وأن نصيبه الموت .

وهناك أسطورة أخرى تعرف بأسم أسطورة « إيتانا » ، وهى تتلخص فى أن الملـكية نزلت من السماء وبعد أن استقرت فيها لم يـكن لأحـد الملوك ولدا فتضرع إلى الآلهة كى تهبه ولدا يرثه ـ وتمضى الأسطورة فى وصف تكليفه بعمل خير لقاء حصوله على بغيته وكيف أنه طار إلى السماء للحصول على « نبات الولادة » بمساعدة نسر كان قد سبق أن أنقذه

---

(١) طه باقر المرجع السابق ص ٤٧٢

من مأزق كاد أن يموت فيه ، وفيها وصف لما شاهده «إيتانا» عند طيرانه من معالم الأرض - ومع أن بقية الأسطورة مفقودة إلا أنه يبدو أنه نال بغيته وعاد إلى الأرض سالما .

القضاء

اشتهرت بلاد النهرين بما عثر عليه فيها من قوانين تعد أقدم ما عرف حتى الآن إذ لم تصلنا أية مجموعة قانونية تسبقها فى التاريخ ، ومع أن بعض الإشارات والمواد القانونية وردت الينا فى بعض النصوص المصرية وهى توحى بوجود قوانين كانت متبعة الا أن هذه القوانين لم تصلنا نصوصها فى أى مجموعة تشريعية حتى الآن - وتدل الدلائل الأثرية على أن بلاد النهرين ظهرت بها شرائع مدونة منذ أقدم عصورها ، وربما يرجع بعضها الى أصول كانت موجودة فى عصور ما قبل الاسرات - ويتبين ذلك من الأصول القانونية التى كانت متبعة منذ النصف الثانى لعصر الوركاء على الأرجح حيث نجد أن بعض الألواح الطينية التى تنتمى لتلك الفترة تحتوى على كثير من المعاملات التجارية والإدارية، كما أن من بينها مايدل على سجلات الأراضى الزراعية وتثبيت ماسكية الأراضى ومنها ما يتعلق بمستندات تجارية وغيرها .

ومن الجائز - حسب ما وصلنا حتى الآن - أن نعتبر « أوركاجينا » ملك « لجش » أول مشرع فى تاريخ البشر حيث وردت بعض الإشارات من عصر فجر الاسرات ومن العهد الأكدى تشير إلى إصلاحاته الاجتماعية وتنظيمة للإدارة وإزالته للظلم عن الطبقات الفقيرة ، كما وجدت بعض النماذج لوثائقه القانونية .

وفى عهد الأكديين بالذات يمكننا أن نتتبع وجود طبقة خاصة من القضاة المدنيين وكان هؤلاء يتمتعون بمكانة سامية، كما نتبين أن «سرجون» الأكدى أدخل نظام القسم باسم الملك بين المتعاقدين عند تثبيت نصوص العقود .

ومن عهد أسرة «أور» الثالثة وجدت وثائق قانونية متنوعة كما عثر على مجموعة قانونية من عهد مؤسسها «أورنمو» وهى وان كانت غير كاملة من الناحية التشريعية إذ لم يرد منها إلا المقدمة وبعض المواد القانونية إلا أنها تسبق شريعة «حورابى» بنحو ٣٠٠ سنة كما أنها تختلف عنها من حيث أنها تأخذ بمبدأ التعويض لا بمبدأ القصاص أو الجزاء الذى يتبين فى شريعة حورابى - وهى تنقسم كأى شريعة أخرى إلى مقدمة ومواد تنص على الأحكام وخاتمة، وتتلخص المقدمة فى أنها تفويض من الآلهة بمزاولة السلطة ونشر الشريعة .

ومن العهد البابلى القديم عثر على لوحين من الطين كتبا باللغة البابلية وتدل نصوصها على أنها جزء من مجموعة لم يعثر على بقيتها ، وهذه النصوص تحوى ٦١ مادة وتبدأ بمقدمة قصيرة غير واضحة تليها ١٢ مادة عن الأسعار والأجور ، وبالإضافة إلى ذلك نجد بعض المواد التى تنص على الأحكام المختلفة المتعلقة بالسرقات والاعتداءات والأضرار والديون والبيع والشراء والأحوال الشخصية وغيرها .

وإلى «ابت عشتار» خامس ملوك «أيسين» ينسب قانون يشبه قانون حورابى فى تأليفه وفى بعض مواده وقد عثر عليه مدونا على كسر من الألواح الطينية فيها من الإشارات ما يدل على أن هذا القانون

كان منقوشا على نصب أو مسلة من الحجر مثل مسلة قانون حمورابى ، ومع أن هذا القانون كان يشمل أكثر من مائة مادة على الأرجح إلا أن وصلنا منه يبلغ نحو ٣٥ مادة فقط .

وقانون حمورابى الشهير يبدو أن مواده جمعت فى السنوات الاخيرة من حكم هذا الملك وقد رتب ترتيبا فنيا ونقش على مسلة من الديوريت الاسود يبلغ ارتفاعها نحو ثمانية أقدام نقشت فى أعلاها بنحت بارز يمثل الإله « شمش » (إله العدل) على عرشه وأمامه حمورابى يتسلم منه مجموعة القوانين ـ وقد عثر على هذه المسلة سنة ١٩٠١ فى مدينة « سوسة » ، ويحتمل أنها نقلت هناك فى أواخر عهد الكاشيين إذ ربما كان العيلاميون قد نقلوها إلى هناك ضمن ما استولوا عليه من غنائم كثيرة بعد قضائهم على الكاشيين ـ ونقوش القانون تتمثل فى ٤٤ عموداً من الكتابة تبدأ بمقدمة دينية كتبت بلغة شعرية ثم تليها المواد القانونية وعددها ٢٨٢ مادة ربما كانت فى الاصل ٣٠٠ مادة ، وتنتهى بخاتمة يبين فيها حمورابى أنه أصدر هذه الأحكام العادلة فازدهر العدل والحكم الصالح فى البلاد ويختتم ذلك بسرد ألقابه وحب الآلهة له ويحض من أصابه ظلم على المثول أمام صورته وقراءة قانونه كما أنه يصب اللعنة على كل من يحرف فى هذا القانون ـ ويمكن تبويب موضوعات هذا القانون فى :

١ ـ القضاء والتقاضى (أى أصول المرافعات) وهو يشمل المواد من ١ إلى ٥

٢ ـ قانون الاموال (أى المعاملات) ويشمل المواد من ٦ إلى ١٢٦

٣ - الأحوال الشخصية (قانون الأسرة) ويشمل المـــواد من ١٢٧ إلى ٢٨٢

أما عن القوانين الأشـورية فلم ترد منها مجموعة كاملة ، فمن العهـد الأشورى القديم وجدت بعض المواد التى ربما كانت تمثل أجـزاء من قانون لا يتعلق بأشور نفسها بل بمستعمرة أشورية تجارية تـكونت فى آسيـا الصغرى ، ومع أن ترجمتهـــا لم تستقر تماما حتى الآن إلا أنه من الواضح أن أكثرها يتعلق بنظام المحاكم وأصول المرافعـات وتنظيم المعاملات التجارية .

ومن العصر الأشورى الوسيط عثر على مجموعة قانونية مدونة على جملة ألواح طينيه ولـكنها لا تؤلف تشريعا كاملا ولاتظهر فيها الوحدة القانونية ويختص جزء كبير منها بالأحوال الشخصية وبالجنايات وعقوباتها ـ ويبدو منها أن القوانين الأشورية عموما امتازت بقسوة عقوباتها .

أما عن نظام التقاضى فإن المحاكم الابتدائية كانت إما مدنية أو كهنوتية إذ كان من حق المعبد أن يكون مقراً للعدالة وبالتالى كان الـكهنة يستطيعون إصدار الأحكام ، وكان القضاة فى المحاكم المدنية لايقلون عادة عن ستة أعضاء يحمل كل منهم لقب « قاض » ـ وكان من المعتاد تدوين الأحكام القضائية بمعرفة كاتب مختص بصورة موجزة تتلخص فى إثبات وقائع القضية باختصار والشهود والتاريخ كما يضاف عادة اسم الكاتب وبعدئذ تختم وتودع النسخة الأصلية داخل غلاف تكتب عليه تفصيلات الوثيقة، وكان من حق المتقاضين الحصول على نسخ منها .

وفى عصر الكلدانيين كانت القضية تبدأ بشكوى تقـــدم إلى المحـكمة

ويستدعى المدعى عليه للإدلاء بأقواله ثم ينطق بالحكم وإذا تعذر وجود نسخة منه كان يكتفى عند الضرورة بالقسم الذى يقسمه محرر القضية أو أحد الشهود فيها .

ومنذ أقدم العصور كان شيوخ المدينة يمثلون محكمة لاتعرف اختصاصاتها ولكن من الواضح أن اختيار أعضائها يتم بإرادة ملكية وقد تكون بعض النساء وخاصة الكاهنات من بين أعضائها ولكن هذه المحاكم لم تكن دائمة بل كانت لفترات معينة فقط .

وكان الشهود ضروريين عند تحرير عقود غير رسمية وإلا يسقط حق المتخاصمين فى الاحتكام إلى القضاء ، وإذا لم يمكن فض النزاع بطريق ودى فإن أحد الطرفين يقدم شكواه فيستدعى المشكو فى حقه أمام المحكمة وتفحص المستندات المقدمة وتسمع شهادة الشهود .. وإذا لم تكن المستندات وافية أو لم توجد على الإطلاق كان القاضى يطلب إلى الطرفين وإلى الشهود أحيانا أداء اليمين ، وكان اليمين يتم فى المعبد عادة حتى وإن كانت القضية منظورة أمام محكمة مدنية لأن القسم فى أقدم العصور كان يؤدى باسم الآلهة ثم أصبح فيما بعد يؤدى باسم الملك باعتباره أصبح مؤلها هو الآخر - كذلك كان القسم ضروريا بعد النطق بالحكم حيث يتعهد الخصوم أمام الآلهة باحترام الحكم وإعتباره أمرا نهائيا لا يقبل التعديل ، وقد تضاف فقرة إلى الحكم تنص على عدم استئناف الدعوى من جديد وعلى عقاب من يخالف هذا الحكم .

ولم يكن هناك اختصاص معين لمثل هذه المحاكم بل كانت تحكم فى كل شىء ويعتبر بعض أعضائها شهوداً وإن كانوا فى واقع الأمر من

الحانفين فأسماؤهم تتردد فى الأحكام المختلفة ولكنهم مع ذلك هم الذين يحضرون تنفيذ العقوبات ويصدقون عليها .

ولم تصلنا حتى الآن من آثار الآشوريين مجموعة من القوانين يمكن مقارنتها بقانون حمورابى من حيث التنـــوع فى الموضوعات والاحكام ولكن عثر على لوحات تتصل كل منها بقوانين تتعلق بموضوعات معينة ومن بين الوثائق التى عثر عليها وثيقة تنص على نحو ٥٠ مـادة تتعلق بالعقوبات التى تطبق فى بعض الجرائم ، كما وجدت وثيقة أخرى تختص بالقانون الذى يطبق فى الريف ولكنها لم تصـــل سليمة لسوء الحظ ، كذلك وجدت وثيقـة فى حالة سيئة أيضا ولكن يفهم منها أنهـا كانت تتعلق بالمعاملات التجارية - هذا إلى جانب عـدد من الوثائق الأخرى التى تعطينا فكرة عن التقاضى فى عهد الآشوريين ، ويتبين من هذه أن الحكم كان يصدره قاض واحد يقيم فى المحـكمة وفى بعض الحـالات كان صاحب الحق يتولى تطبيق القانون بنفسه أو يتجاوز عنه أو يخففه دون الحاجة إلى الالتجاء إلى القضاء - وكان القانون الجنـائى يتطلب إثبـات الذنب ويحدد العقوبة ولكن بعض الحالات الأخرى لم ترد فيها أحكام قضائية ، مثال ذلك أن وثيقة تشير إلى أن الجانى قد منح مهلة لاستحضار شهود لتبرئة نفسه وإلا يعد مذنبا ، كما أن وثيقة أخرى تدل على أن المختصمين قد وصلوا إلى اتفاق فلم يعد هناك مجال للنزاع .

الحياة الاقتصادية

أدرك سكان بلاد النهرين منذ أقدم العصور ماتمتاز به طبيعة بلادهم من خصب ، فالسهول الفيضية لنهرى الدجلة والفرات تجود فيها الزراعة متى بذلت فيها العناية بشئون الرى والصرف ، ولذا نجد أن عمليات شق القنوات والجداول وصيانتها كانت من أهم المشاريع التى عنى بها الملوك منذ عصور ماقبل الأسرات ، فهى إلى جانب إمدادها الأراضى البعيدة بالمياه أو استخدامها للصرف بقصد إصلاح الأرض كانت ممرات مائية تيسر المواصلات وعمليات النقل ، ولذا كان من المحتم صيانتها والعناية بها ونظراً لأن الأراضى التى كانت تسير فيها رخوة فى كثير من الأماكن وجوانبها هشة فإن المحافظة عليها كانت تتطلب مجهودات كبيرة ، وقد نصت القوانين على معاقبة كل من يهمل أمر هذه المحافظة ويعد مسئولا عن الاضرار التى تحدث لغيره بسبب ذلك الإهمال ـ هذا وقد استعان المزارعون عند انخفاض منسوب المياه فى المجارى المائية بالشادوف أو أدوات رافعة (سواقى)تديرها الثيران .

وكانت المحاريث المستخدمة تجرها الثيران وهى شبيهة بالمحاريث الحالية وبعضها كان يزود بما يشبه القمع لبذر البذور أثناء الحرث ، وكان إيجار ثيران الحراثة محددا ، كما حدد القانون أيضا مقدار التعويضات عن الحوادث التى تصيب هذه الماشية وعن ماتسببه من أضرار أيضا وبعد تمام الحصاد يؤخذ المحصول إلى أماكن الدرس حيث تقوم بهذه المهمة الثيران أو الحمير أو عربات تجرها الحيوانات ، وقد حددت أجور كل منها كما حدد أجر

العامل الزراعى وإن كانت أجرة هذا الأخير تختلف باختلاف الفصول .

وقد نظمت القوانين العلاقة بين ملاك الأرض والمستأجرين لها ،كما نظمت العلاقة بين المنتفعين بهذه الأراضى وبين من يستأجرونهم من مزارعين ورعاة ، وفى غالب الأحيان كان القانون يحمى صغار المزارعين وإذا أخرج مستأجر من الأرض قبل انتهاء مدة العقد كان المالك ملزما بدفع تعويض له .

ويبدو أنه لم تحدث تغييرات كبيرة فى الحياة النباتية أو الحيوانية التى عرفت فى بلاد النهرين منذ أقدم العصور حيث أن القمح والشعير قد وجدا بها كما وجدت بها بعض الحبوب الأخرى مثل الدخن والسمسم وما زالت هذه من الحاصلات المعروفة فى بلاد النهرين حتى الآن ، أما الأرز فيبدو أنه لم يعرف إلا من أواخر العصر الاشورى ، ومع هذا فما زال الأرز يستورد إلى العراق من بلاد عديدة .

وقد عرفت بلاد النهرين نوعين من الأراضى أحدهما يتمثل فى أراضى الحقول التى كانت تزرع الحبوب وما شابهها والثانى أراضى البساتين التى اشتهرت بزراعة الأشجار وقد نشأ فن زراعة البساتين منذ عصور سحيقة وكانت هذه تزرع بالخضروات فيما بين الاشجار التى كان من أهمها التين والرمان والتفاح والكمثرى وغيرها . وقد جلب الاشوريون إلى العراق الزيتون كما جلبوا القطن ، على أن أقدم شجرة وأهم شجرة عرفت هى النخلة وما زالت النخيل تحتل المكانة الاولى بين أشجار العراق ويعد البلح محصولها الرئيسى ـ والظاهر أن هذه النخيل كانت تنتشر فى مساحات أوسع من المساحات التى تنتشر فيها الآن .

ومن الجدير بالذكر أن الأرض البور كانت حقا لأول من يشغلها وتصبح ملكا لمن يصلحها ولكنها كانت فى الواقع تخضع لحقوق الجيران فيما يختص بالرى، أى أنه كان لايجوز لمالكها أن يمنع وصول المياه إلى جيرانه أو أن يتسبب فى الإضرار بمصلحتهم حتى ولو كان فى ذلك مصلحته الشخصية وكان للحاكم الحق فى المرعى وباكورة الحصاد والهشيم واستخدام الرجال والحيوانات والعجلات فى أعمال السخرة وخاصة فى صيانة القنوات والطرق، كما أن المالك كان ملزما بأداء واجبه نحو المنافع العامة التى لا يعفى منها إلا بقرار يصدره الملك. كذلك كان الملك أحيانا يمنح بعض الملاك بعض الامتيازات مثل عدم تحصيل الضريبة عن الأرض وعدم استدعاء رجال الاقطاعية للسخرة ، ومن جهة أخرى كان الحاكم لا يستطيع أن يخرج من إقطاعيته مزارعا أو أن يستولى على أخشاب أو حشائش أو محاصيل أو حيوانات أو عمال مالك آخر، كما لايجوز أن يسحب ماء من قناة الرى إذا كانت مياهها غير كافيه.

وكانت القبائل التى حلت فى مناطق مختلفة قد استقرت فيها وأقامت لها مدنا وقرى ، وبالطبع امتلكت جزءا من الأراضى التى كانت مقسمة إلى قطع يستغلها الأفراد . وقد أمكن بالطبع لبعض الأفراد والهيئات أن يكونوا ملكيات كبيرة كما أن المعابد كانت تمتلك حقولا وأراضى واسعة ، وكثيراً ما كان الفقير عرضه لجشع الغنى الذى كان يطمع فى زيادة رقعة أملاكه وغالبا ما كان الأغنياء يتمكنون من ذلك عن طريق الشراء . وحينما أصبحت المقاطعات خاضعة للمملكة انتقلت ملكيتها إلى الملوك وكان رؤساؤها هم الذين يوافقون على البيع وتدفع لهم التعويضات . وهذه

الإقطاعيات التى كونها الملوك كانت تمنح المقربين من رجاله بصفة نهائية ويمكن توارثها .

ومن المعروف أن بلاد النهرين لم تقتصر على الزراعة وحدها بل وجدت بها مراعى كثيرة ، وهذه لم تكن فى حاجة إلى عناية أكثر من إمدادها بالماء وقطع كلئها أحيانا - وكان المـــلاك يستأجرون رعاة لرعى حيواناتهم وهؤلاء كانوا يحصلون على أجور ثابتــه وإن ضاعت من أحدهم بعض تلك الحيوانات كان لزاما عليه أن يأتى بغيرها على حسابه ، وكثيرا مانصت الاتفاقيات على أن يزيد الراعى عدد الحيوانات ، وإن باع منها لمصلحته أو سرق شيئا منها كان مكلفا بدفع تعويض قد تصل قيمته الى عشرة أمثال ماتصرف فيه ، أما اذا حلت بالقطيع كارثة خارجة عن إرادته فعليه أن يثبت ذلك وإلا كان عليه أن يعوض الخسارة على حسابه .

وكانت الإقطاعيات لاتقتصر على الأرض الصالحة للزراعة والمراعى فحسب بل كانت تشمل كذلك ما فيها من حدائق ومبانى وعبيد أيضا فكانت ملكيتها تنتقل بما حوت من مالك الى آخر كما أنها أيضا كانت تقدم بأكملها كرهن لضمان القروض - ولم يكن غريبا أن يملك المزرعة أحيانا عدة أشخاص على المشاع - وكان من الممكن أن يعارض بعض الأشخاص فى حيازة مالك من الملاك وفى هذه الحالة كان لابد من أن يحتكم أمام هيئة مكونة من ممثل للملك وكاتب المدينة وبعض الحـــكام والشيوخ والاعيان ، وكان لابد أيضا لكل فريق من المتنازعين أن يدلى بحججه ويقدم الإثباتات أو المستندات الدالة على صحة دعواه - وكان تخلف المدعى عن حضور هذه الجلسات يفقده حقوقه فيعرض منادى المدينة العقار فى المزاد .

وكان توسيع رقعة الاقطاعية على حساب الجار يعرض القائم بذلك لعقوبة شديدة كما أن تعديل الحدود الصغيرة كان يعرض للعقوبات أيضا ، وكذلك كان الحال بالنسبة لحفر جدول فى أرض الغير أو استغلالها أو بدء البناء عليها .

الصناعة

أمدت البيئة بلاد النهرين ببعض المواد الاولية التى استغلت فى الصناعة ، وأول هذه المواد بالطبع كان الطمى الذى صنعت منه الأوانى وكانت هذه فى أول أمرها تصنع باليد ثم أصبحت تصنع بعد ذلك بالعجلة وقد تنوعت أشكالها على حسب الأغراض التى استخدمت فيها فنها أوانى الشرب وكانت مخروطية الشكل، والصحاف لوضع الطعام، والأوعية المخصصة لحفظ ونقل السوائل ـ ونظراً لصعوبة الحصول على الأحجار وصعوبة حفرها كانت الأوانى الحجرية رمزا للترف وكانت تحفظ عادة فى المعابد وكثيراً ما كانت تزين بنقوش دينية .

وقد استخدم الطمى كذلك فى عمل لوحات الكتابة حيث كان يكتب عليها قبل أن تجف ، وفى بعض الاحيان كانوا يجعلون لكل لوح غلافا من الطمى أيضا ـ وكثيراً ما كانوا يقومون بحرقها لتصبح أشد صلابة بتحولها إلى فخار .

ومن الجدير بالذكر أن معرفة الحفر على الحجر منذ أقدم العصور قد أدى إلى نشاط صناعة الأختام الاسطوانية وقد ظلت هذه تستخدم فى معظم العصور القديمة وتنوعت موضوعاتها والأساليب الفنية فيها حتى أمكن

التمييز بين الانواع السائدة فى الفترات التاريخية المختلفة ·

ونظراً لعدم وجود الاحجار الثمينة من جهة والصلابة من جهة أخرى لجأ أهل بلاد النهرين إلى استعمال الخزف فى كثير من الأغراض حتى أنهم استعملوا الطوب الخزفى فى تكسية جدران بعض المبانى العامة وتزيينها، كذلك نجد أنهم كانوا يستعملون أحيانا بعض الأوانى المعدنية وخاصة من النحاس والفضة ـ وقد برعوا فى الصياغة واستخدموا فى ذلك الذهب والفضة والاحجار الثمينة كما امتازت بعض مصنوعاتهم الخشبية بما كان فيها من تطعيم بالذهب والفضة والبرونز والاحجار الكريمة ، كما أنها كانت تكسى أحيانا فى بعض المواضع بصفائح من الذهب .

والظاهر أن خام البترول (الأسفلت) قد عرف من أقدم العصور وكان يستخدم مختلطا بالطين أو القش كنوع من الملاط ، وكان أحيانا يستعمل وحده دون أن يكون مخلوطا ـ وليس معنى هذا أنهم لم يعرفوا سواه بل توصلوا إلى ملاط من الجير أيضا

وكانت الحرف والصناعات المختلفة تخضع لنظم معينة وبعضها على الأقل كانت تحت رقابة دقيقة ، فعملية النسيج كانت تتم تحت رقابة رؤساء عمال يعينهم الملك ـ وقد حدد قانون حورابى الأجور اليوميه للعمال كما حدد أتعاب عامل المعمار والمبيض ونص على العقوبات التي تفرض على من يخطىء في تنفيذ المطلوب منه .

ويفهم من قانون حورابى أيضا أن تعليم الصناعـــة كان يخضع لنظم معينة ، فإذا ما أخذ رجل صبيا إلى بيته لتربيته وتعليمه حرفة

ليجعل منه صانعا جيدا فإنه لا يجوز لوالدى الصبى أن يطالبا برده إلا إذا كان الصبى لم يتعلم شيئا - وكان من الممكن كذلك أن يعهد إنسان بعبده إلى رجل آخر ليتعلم منه حرفته، وإن أهمل المعلم تعليم صبى حرفته على الوجه المرضى فإنه يلزم بدفع تعويض ولا يستحق أجرا على ما بذله فى تعليمه من جهد على اعتبار أنه أفاد من عمل الصبى - وكثيرا ما كانت النتيجة أن يجد المعلم نفسه مضطراً لدفع التعويض، وكان يفعل ذلك عن رضى لأنه كان ينتفع بخدمات الصبى .

المواصلات والتجارة

اشتهر أهل بلاد النهرين منذ القدم بنشاطهم التجارى مع الشعوب المجاورة وقد أثروا بطرقهم ومعاملاتهم التجارية فى تلك الشعوب حتى أخذت عنهم كثيراً من أساليب التجارة ومصطلحاتها وبعض أسماء المكاييل والموازين التى استخدموها .

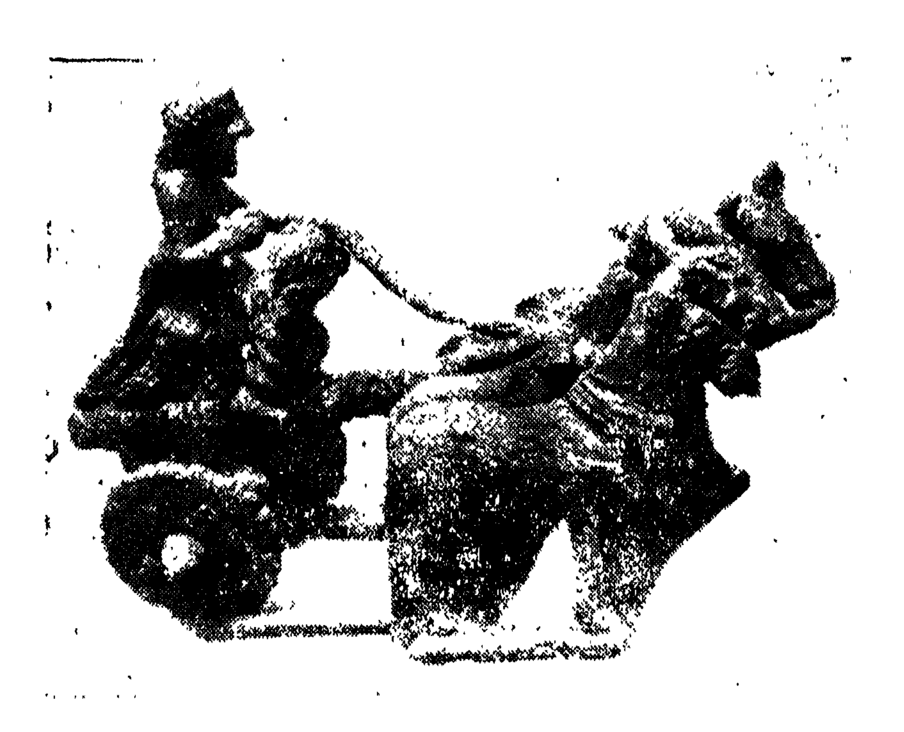
وربما كانت الحاجة إلى المواد الخام الضرورية وتصريف الفائض من منتجات الزراعة والصناعة هى التى دعت الى هذا النشاط . خصوصا بعد أن نشطت الفتوح الخارجية وحاول الملوك تكوين إمبراطوريات لهم - ويمكننا أن نتتبع بعض الشئون المتعلقة بالتجارة من دراستنا للقوانين والشرائع المتعلقة بها حيث يظهر أن جزءا كبيرا من المواد القانونية قد خصص لتنظيم التجارة وأنواع المعاملات المختلفة ، ففى قانون حمورابى نجد ١٢٠ مادة تتعلق بالمعاملات والشئون التجارية من مجموع مواد هذا القانون التى يبلغ عددها ٢٨٢ مادة ، ومثل ذلك يقال أيضا عن شرائع أخرى غير

قانون حمورابى - ومما نلاحظه فى هـــذا الصدد أن تلك المواد عنيت بتحديد الأسعار وأجور المهنيين وأجور السفن والأجور التى تستحق على الأعمال المختلفة - ومن الغريب أن هذه المواد لم تهمل شأن الشركات بل تناول بعضها كل مايتعلق بتلك الشركات من نقل البضائع وإيداع الأموال والعمولة والمتاجرة لحساب الغير التى لم تكن قاصرة على المتاجرة لأصحاب رؤوس أموال فى داخلية البلاد فحسب بل كثيرا ماكان العملاء يقومون بهذه المتاجرة لأصحاب رؤوس أموال من الخارج - ولم تكن التجارة قاصرة على الرجال وحدهم بل كان للمرأة نصيب فيها حيث نصت القوانين على تمتعها بحرية التجارة .

ومن البديهى أن طرق المواصلات ووسائلها أهم دعامات التجارة وهى خير وسيلة لإزدهارها ، وقد اهتم ملوك بلاد النهرين بتأمين هذه الطرق وخاصة فى المناطق التى تقطنها قبـــائل مثيرة للمتاعب حيث أنهم كانوا يشنون الحملات الحربية لإخضاع تلك القبائل ويشيدون الحصون والقلاع لضمان المحافظة على الأمن فيها وأنشأوا نظاما للبريد - وأقدم ما وصلنا عن هذه المواصلات نموذج لقارب يرجع إلى عهد ما قبل الاسرات ، وبالطبع كان وجود البحر بالقرب من سكان جنوب بلاد النهرين سببا فى مهارتهم فى الملاحة ، ولو أن وجود النهرين والقنوات العديدة التى شقت لتسهيل الرى والصرف كان سببا كذلك فى استخدام أنواع مختلفة من المراكب ، ومنها أنواع ما زالت تستخدم إلى الآن - ويجدر بنا هنا أن نذكر بأن المواد التى استخدمت فى صنع هذه المراكب كانت مما تجود به البيئة ، فالجلود

المنفوخة والقفة [1] كانتا تستخدمان لعبور النهر والمجارى المائية الداخلية ـ وتشير بعض النصوص إلى طريقة صنع السفن كما تشير إلى أنواعها وحمولتها وسعتها وأسمائها المختلفة .

أما عن النقل بالبر فقد عرفت العربات من عصور ما قبل التاريخ (شكل ٤٧) وكانت هذه تستخدم فى نقل المواد الأولية التى كانت تأتى من جهات بعيدة حيث أننا نجد أن الكثير من مخلفات حضارة بلاد النهرين



(شكل ٤٧) : نموذج من البرونز لمركبة تجرها أربعة حمير

(١) أسطوانة من البردى أو سعف النخيل المجدول مغطاة من الخارج بالقار ما زالت تستعمل إلى الآن فى بعض أنحاء العراق.

تتضمن مصنوعات من أحجار ومعادن ثمينة لاتوجد فى بلاد النهرين نفسها، فقد استورد النحاس من جزيرة العرب (عمان والبحرين) التى جلب منها كذلك بعض الأحجار المستخدمة فى المبانى وصناعة التماثيل - وكان القصدير المستخدم فى صناعة البرونز يجلب من شرق إيران ومن سورية ومن آسيا الصغرى ، كما كانت الفضة والرصاص تجلب من طوروس والأخشاب من سورية وبعض الاحجار الكريمة من أفغانستان والأصداف من الخليج العربى .

ومما يدل على أن أهل بلاد النهرين وصلوا فى تجارتهم إلى أماكن بعيدة ما عثر عليه من آثار فى آسيا الصغرى تدل على وجود جالية آشورية فى منطقة كبادوكيا حيث عثر على عدد كبير من الالواح الطينية والاختام الاسطوانية التى استعملت فى المعاملات التجارية ، ويتبين منها أن مراكز أخرى فى الاناضول كانت تتبع هذه الجالية التى كانت ترتبط بمدينة آشور - وقسم كبير من هذه اللوحات عبارة عن الرسائل المتبادلة بين تجار هذه الجالية وبين آشور، ومنها مايعطينا بعض المعلومات عن تنظيم القوافل التجارية وتمويلها وتسلم البضائع وطرق السفر وخطابات الإعتماد للمندوبين - ومن المرجح أن هذه الجالية الأشورية قد خلفت مستعمرة تجارية أكدية قديمة ، وقد استمرت بعض الشركات التجارية فى أماكن أخرى خارج العراق بضعة أجيال متعاقبة - ومن المحتمل جداً أن سرجون الأكدى قد قام بحملة حربية إلى الاناضول لحماية المستعمرة التجارية الأكدية التى نشأت هناك للاتجار فى الصوف والفضة .

وربما كان أول قانون تجارى صرف هو الذى ظهر فى المستعمرة

التجارية التى أسسها الآشوريون فى وسط الاناضول وقد سبق أن أشرنا إلى هذا القانون عند الكلام على القوانين الاشورية (أنظر أعلاه ص ٢٢٦)، هذا إلى جانب العديد من العقود والوثائق والمستندات التجارية التى عثر عليها فى مختلف الاماكن الاثرية ببلاد النهرين وهى تدل على أن المعاملات التجارية لم تكن لتعد قانونية ملزمة إلا إذا كتبت بأسلوب قانونى - والظاهر أن العناية بضبط الأوزان والمكاييل كانت سائدة إلى درجة أن دائرة خاصة كانت تشرف عليها لأن نماذج من هذه الاوزان عثر عليها وقد سجل على كل منها بكتابة رسمية مقدار وزنها .

ومن المرجح أن وحدة للقيمة كانت تتخذ أساسا للتبادل وقد حددت هذه الوحدة بوزن معين من الفضة ولكن لم يعثر على مثل هذه الوحدة إلى الآن ، وكان تقسيم المقاييس والموازين مبنيا على أساس ستينى (أى أجزاء من العدد ستين ومضاعفاته) - وفى عصر متأخر نسبيا وجدت بعض القطع المعدنية من النحاس والفضة والذهب فى هيئة صفائح صغيرة أو حلقات أو أقراص مثقوبة لها أوزان معلومة سجلت عليها هذه الأوزان وربما كان ذلك هو بدء فكرة النقود التى يحتمل أنها أخذت تسود العالم القديم فى نفس الوقت تقريبا [1] .

وكان التبادل هو الاصل السائد فى التجارة وبمقتضاه تنتقل ملكية سلعة من شخص إلى آخر مقابل سلعة أخرى يتسلمها الطرف الأول من الطرف الثانى، وكثيراً ما كانت قيم الأشياء المستبدلة غير متكافئة وفى هذه الحالة كان على صاحب الكفة الراجحة أن يدفع مايعادل تعويض الفرق - وفى حالة

---

(١) من المرجح أن فكرة النقود نشأت عند قيام الامبراطورية الفارسية

نقض الاتفاق كان المتسبب فيه يدفع تعويضا عن ذلك ـ وبعد أن اتخذت وحدة للقيمة كأساس للتعامل أصبح من الممكن إتمام عمليات البيع والشراء بمقتضاها دون الحاجة إلى تبادل سلعة بأخرى ـ وفى حالة التعامل التجارى فكما سبق أن قلنا أنه لايصبح ملزما إلا إذا كتب بأسلوب قانونى، وكان المعتاد فى هذه الحالة أن يحرر عقد تثبت فيه ثلاثة عناصر رئيسية هى بيان بالشىء المباع وأسماء الطرفين والثمن الذى يدفع أو إيصال بالدفع الفورى ـ وكثيراً ماكان المشترى يأخذ ضمانا من البائع على عدم وجود عيب فيما اشتراه من شأنه إلغاء العقد وخاصة فيما يتعلق بالعبيد وكانت مدة الضمان تحدد برضى الطرفين ـ كذلك كان من المألوف أن يحرر العقد بحضور شهود من أسرة البائع أو من أسرة الطرفين معا ومن الخبراء والكتاب ورجال الأعمال والموظفين المختلفين وهؤلاء كانوا عادة يتسلمون بعض الهدايا بعد إتمام الصفقة التى كانت توثق بعقد يختم بخاتم يعمل لهذا الغرض ـ وإذا كان المباع عقاراً كان على البائع أن يسلم مستند ملكية العقار إلى المشترى وأن يبين ما أدخل عليه من تعديلات منعا لحدوث الخطأ .

ولم تهمل القوانين ما يرتبط بالتجارة من نواح اقتصادية أخرى فقد نظمت عمليات استئجار العقارات والحيوانات والعربات والقوارب والعمال الزراعيين والقروض والرهون والضمانات والودائع وغيرها .

وفى العهد الآشورى كانت الاتفاقيات الخاصة تبدأ ببيان أختام المتعاقدين، ولم يكن من المعتاد وضع أختام الشهود على هذه الاختام، وإذا لم يكن لدى المتعاقد ختم كان يبصم بإبهامه ويغرس ظفره فى الطمى ـ وكان نص

الوثيقة يحرر فى أسلوب غير شخصى ثم تنتهى بقائمة الشهود والتاريخ، وإذا ما أراد الكاتب أن يذكر اسمه فإنه يضعه فى نهاية قائمة الشهود ـ وكان البيع يتم مقابل فضة أو رصاص أو برونز ويدفع الثمن فوراً وإن لم يتسلمه المشترى فإنه كان يأخذ صكا يعترف فيه البائع بالدين وكانت الجزاءات تحدد على من يقيم أى نزاع بشأن هذا التعاقد ، وقد ينص على أجر مقابل توثيق العقد (ختمه) إلى جانب المبلغ الاصلى للبيع .

ولم تكن قيمة الاراضى الزراعية تقدر حسب مساحتها وإنما حسب كمية الحبوب اللازمة لزراعتها وكانت القيمة تتضمن أيضا كل ما يرتبط بالارض من عبيد وطيور ومبان وحدائق ـ ومن الطريف أن تمالك القوى العقلية كان أساسا فى عملية البيع حيث نص القانون على أن الصرع عيب يلغى البيع وكان على المشترى أن يتبين وجوده لدى البائع خلال مائة يوم (عصر حمورابى يعطى شهرا فقط) ، وفى هذه الحالة يحق له أن يلغى العقد ، أما إذا تبينت الإصابة بهذا المرض عقب تلك الفترة فإنها تعد حديثة ولا يترتب عليها إلغاء العقد ـ وقد وجدت عقوبات محددة على البائع عند رجوعه عن الصفقة لأن ذلك كان يعد خطيئة فى نظر الآلهة حيث أن العقد كان يتضمن نوعا من القسم ولو ضمنيا على الاقل . وقد جرت التقاليد فى كثير من الاحيان أن يذيل الكاتب عقود البيع بعبارة تقليدية هى دفع المبلغ بالتمام .

ولا تختلف القوانين الآشورية فيما يتعلق بالشئون الاخرى المتعلقة بالتجارة عن القوانين البابلية حيث أنها كانت تنص على إجراءات مماثلة فيما يتعلق بالتبادل والقروض والرهون والضمانات .

العلوم والآداب

بدأت الكتابة فى بلاد النهرين كما بدأت فى جهات أخرى من الشرق الأدنى بالتعبير عن الشيء بصورته ، وقد استمرت هذه المرحلة التصويرية فى الكتابة فترة ثم أخذت بعد ذلك أشكالها تختصر ويقل عدد المستعمل منها تدريجيا إذ أصبحت الصورة تعبر لا عن الشكل المرسوم فحسب بل وعن كل ما يرتبط به من معانى أيضا ، إلا أن ذلك قد أدى إلى صعوبة تأويل ماتدل عليه هذه العلامات - وقد أمكن تذليل هـــذه الصعوبة بالاصطلاح على معانى محددة لتلك الصور ، ثم استعملت هذه الصور فى كتابة ماتدل عليه من أصوات للتعبير عن الافعال والامور المعنوية فأصبحت كل منها ترمز إلى نطاق معين يدل على كلمة - ومن هذه المرحلة الرمزية أمكن التوصل إلى جعل معظم الرموز تعبر عن مقاطع لفظية ، أى أن التعبير بالكتابه فى بلاد النهرين سار فى نفس الطريق الذى سار فيه التعبير بالكتابة لدى المصريين ، إلا أن هؤلاء الأخيرين توصلوا فضلا عن ذلك إلى استخدام حروف هجائية بينما لم تصل الكتابة فى بلاد النهرين إلى مثل هذه المرحلة .

ونظراً لأن أهل بلاد النهرين قد استعملوا ألواحا من الطمى للكتابة عليها بقلم مثلث فإنه كان من العسير رسم الخطوط المنحنية واستعيض عنها بما يقاربها من خطوط مستقيمة كما أن الخطوط التى كانت ترسم بذلك القلم تتخذ في نهايتها شكلا يشبه رؤوس المسامير ولذا أصبح يطلق على كتابة بلاد النهرين اسم « الكتابة المسمارية » - وقد انتشرت هذه الكتابة في انحاء كثيرة من بلاد الشرق الادنى القديم ، فقد استعملها الحيثيون والعيلاميون والحوريون

والميتاينون فى كتابة لغاتهم وظلت هذه الكتابة مستعملة إلى العصر المسيحى .

وقد ظلت العلامات المستخدمة كرموز تدل على كلمات جنبا إلى جنب مع العلامات المستخدمة كمقاطع صوتية فكان عدد العلامات المستخدمة لايقل عن ٦٠٠ علامة تقريبا ، منها نحو ١٥٠ علامة فقط هى التى كانت تستخدم استخداما صوتيا بحتا ، وعلى ذلك لم يكن من السهل معرفة هذه الكتابة إلا بدراستها وتحديد المقصود من علاماتها المختلفة - وقد بدئت محاولات فى ذلك منذ أقدم العصور حيث عثر على قوائم ترجع إلى عصر فجر الأسرات بها العلامات المسمارية وقيمتها الصوتيه ومعانيها ، وربما كانت هذه أقدم المعاجم التى عملها الإنسان .

وكان لنجاح هذه الخطوة أثره إذ تنوعت المعاجم فيما بعد حيث وصلتنا معاجم لغوية تتناول مفردات ومصطلحات وجمل سومرية ومايقابلها فى البابلية ، كذلك وجدت معاجم تتناول أسماء الحيوان والنبات والأدوات المصنوعة من مواد مختلفة وأسماء الأشجار وأجزائها وثمارها وأسماء المنشآت المعمارية وغيرها .

وتدل شواهد الأحوال على أنه - إلى جانب المدارس الخاصة بالمعابد - كانت هناك مدارس خاصة للتعليم ، وأول ما كان يتعلم الطالب فيها هو الخط أو الكتابة المسمارية ثم يتدرج بعد ذلك إلى تعلم اللغة وقواعدها . وفى العهد البابلى ومابعده كان على الطالب أن يتعلم لغتين السومرية والبابلية ولذا كان التعليم يستغرق وقتا طويلا وخاصة إذا أراد الطالب أن يكون

كاتبا ممتازا وإلى جانب هذا التعليم العام كان البعض يتخصص فى مختلف فروع الثقافة العليا كالطب والفلك والقانون والموسيقى والعلوم الرياضية فى معاهد خاصة .

وفضلا عن ذلك كانت هناك مؤسسات خاصة أشبه بالمكتبات ودور السجلات لحفظ الكتب والوثائق ، وبعضها كانت تلحق بالمعابد الشهيرة والقصور الملكية - ومثل هذه عثر عليها فى أنقاض قصر الملك « آشور بانيبال » وكانت تحوى مئات الألوف من ألواح الطين المدونة بمختلف نواحى المعرفة والعديد من السجلات والوثائق التاريخية وهى تلقى ضوءاً كبيراً على حضارة بلاد النهرين وتاريخها ، والظاهر أن هذا الملك كان قد جمعها من مختلف المدن إلى جانب ما نسخه عن أصول قديمة - كذلك عثر فى « تل حرمل » بالقرب من بغداد على أكثر من ٣٠٠ لوح كتبت فى مختلف أنواع المعرفة ويظهر أنها كانت موضعا لحفظ السجلات والوثائق أو مكان مدرسة .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن مادة الكتابة فى بلاد النهرين (ألواح الطين) لم تكن مادة يسيرة الحفظ بل كانت سريعة التعرض للتلف ولذا كان من المعتاد وضع الألواح بعد كتابتها فى أغلفة من الطين ، كما أنه لم يكن من الميسور أيضا عمل ألواح كبيرة الحجم منه ولذا كانت معظمها صغيرة الحجم وكثيرا ما كانت تتعرض للكسر عند إخراجها من أغلفتها ولذا تبعثرت هذه الألواح وتشتتت أجزاؤها فقد يعثر على جزء من لوح فى مكان بينما يوجد ما يكمله فى أماكن أخرى حتى أنه أصبح من المألوف أن توجد أجزاء من هذه الوثائق فى بعض المتاحف ويوجد ما يكملها متاحف اخرى .

ومما يسترعى النظر أن الخط المسمارى مر بمراحل تشبه إلى حد ما المراحل التى مر بها الخط الهيروغليفى إذ أنه إلى جانب هذا الخط وجد الخط الآرامى الذى كتب بحروف هجائية قبل الميلاد ببضعة قرون ، ونظراً لسهولة هذا الخط الأخير نسبيا ولانتشار الآرامية بسبب نشاط الآراميين التجارى ، فإن هذا الخط أخذ يحل محل الكتابة المسمارية ومع هذا فقد ظلت هذه الكتابة منتشرة إلى بداية التاريخ الميلادى ولكنها هجرت بعد ذلك ولم يعد أحد يعرفها وظل الحال كذلك إلى القرن التاسع عشر ، فقبل بداية هذا القرن بدأ كثير من السياح يفدون إلى الشرق ونقل بعضهم عدداً من ألواح حجرية مكتوبة وبعض الالواح الطينية ، وعكف بعض الباحثين على محاولة تفهمها وحل رموزها - وكما أمكن حل الهيروغليفية من حجر رشيد إذ كان مكتوبا بثلاث لغات كذلك وجدت آثار فى « برسيبوليس » عاصمة الفرس الإخمينيين بثلاث لغات هى الفارسية القديمة والعيلامية والبابلية مع فارق واحد هو أن اليونانية التى كتبت على حجر رشيد كانت معروفة للباحثين بينما لم تكن أى من اللغات المدونة فى برسيبوليس معروفة فى ذلك الوقت ، ولكن نظراً لأن الكتابة الفارسية كانت أقل الكتابات عدداً فى علاماتها وأقل تعقيداً فى شكلها فقد ركزت الجهود على حلها وأمكن التوصل فيها إلى اسمى ملكين من ملوك فارس ثم عرفت مفردات أخرى من هذه اللغة وبعد ذلك تمكن العلماء بالاستعانة بما أمكن معرفته من هذه اللغة فى حل رموز اللغة البابلية وأمكن التوصل فعلا إلى معرفة مفردات منها وبجزء من علاماتها - ثم تتابعت جهود العلماء فازدادت المعرفة باللغة البابلية ، وبلغ من دقة ما توصلوا إليه أنه أجرى للعلماء في مختلف الأقطار شبه امتحان حيث قدمت لكل منهم نسخة من نص

لم يكن معروفا من قبل وعندما فحصت ترجماتهم له وجدت متطابقة فى معناها مما بعث الإطمئنان إلى صحة المعلومات التى عرفت عن هذه اللغة ومن ثم أخذ علم الأشوريات يزداد توسعاً وانتشاراً - ومما ساعد على سرعة فهمها أنها كلغة سامية تتشابه فى نحوها وفى بعض مفرداتها مع اللغات السامية الأخرى المعروفة مثل العربية والعبرية - وعن طريق حل رموز اللغة البابلية أمكن التعرف على اللغة السومرية إذ وجدت بعض الكتابات المسمارية التى كانت أشبه بمعاجم لشرح الكتابات السومرية باللغة البابلية كما سبق أن أشرنا .

وقد ساعد حل رموز اللغة على التعرف على تاريخ بلاد النهرين من مصادره الأصلية ، ولكن صادفت المؤرخين صعوبات كثيرة فى هذا السبيل لعل من أهمها عدم وجود حادث أساسى تؤرخ الحوادث بالنسبة إليه كما هو الحال بالنسبة للتواريخ المعمول بها الآن مثل ميلاد المسيح والهجرة، إلا أن ملوك بلاد النهرين كانوا يعمدون إلى اتخاذ حادثة معينة شهيرة أساسا لتأريخ الحوادث فى سنة وقوع هذه الحادثة الشهيرة ، وظل الحال كذلك إلى نهاية عهد الأسرة البابلية الاولى تقريباً ثم عدلوا عن ذلك الى تأريخ الحوادث بالنسبة إلى عهد الملوك - وظل الحال كذلك إلى العهد السلوقى وإن كان الأشوريون قد استخدموا طريقة أخرى فى التأريخ حيث كانوا ينسبون السنين إلى عظماء رجال الدولة الذين عاشوا فيها أبتداء من الملك نفسه فكانوا يجمعون حوادث كل ملك فى ثبت خاص متسلسل ابتداء من اعتلائه على العرش ، وقد أضافوا إلى ذلك بعض الملاحظات التاريخية والتعليقات الخاصة بها فى نظام أشبه بنظام الحوليات - ومن ذلك

مثلا أنهم ذكروا كسوفا للشمس أمكن بالحساب الفلكى تحديد وقت حدوثه بالدقة فى ١٥ يونيو ٧٦٣ قبل الميلاد وكان هـــذا من الأمثلة التى ساعدت على ضبط تاريخ الأشوريين بالنسبة للتاريخ الميلادى كما ساعد على ضبط تاريخ بلاد النهرين عامة - ومما ساعد على التعرف على تاريخ بلاد النهرين أن بعض الكتاب والمؤرخين القدامى تركوا قوائم بأسماء الملوك السابقين وتتابعهم وقسموها إلى أسرات حاكمة [1] - وإلى جانب هذه ترك البابليون والأكديون كتابات أخرى تاريخية تشيد بأعمال الملوك والأمراء ، كما أن ملوك الأشوريين اعتادوا أن يدونوا أخبار حروبهم بهيئة رسائل يرسلونها إلى كبير الآلهة ، فمثلا يبدأ الملك « سرجون الثانى » رسالة الى الإله أشور بتحية هذا الإلة وتحية الآلهة الآخرين كما يحيى المدينة وسكانها ثم يسرد أخبار حملته بالتفصيل كتلك التى قام فيها بغزو « أرمينيا » وهكذا .

وقد عنى مؤرخو الأشوريين بتدوين الحوليات الخاصة بالمـــلوك مرتبة حسب سنى حكمهم أو على حسب العهود الدورية التى كانت تنسب إلى عظماء رجال الدولة ، ومن هذه الحوليات أمكن جمع تاريخ واف لآشور - ولم تقتصر المصادر التاريخية على ذلك بل نجد أن البابليين فى عهد الدولة البابلية الجديدة قد عنوا بكتابة تاريخ العصور السابقة حتى تناولوا حوادث سبقت زمنهم بنحو ألفى عام ، وهكذا نجد أن التدوين التاريخى فى بلاد النهرين كان موضع عناية فى مختلف عصورها .

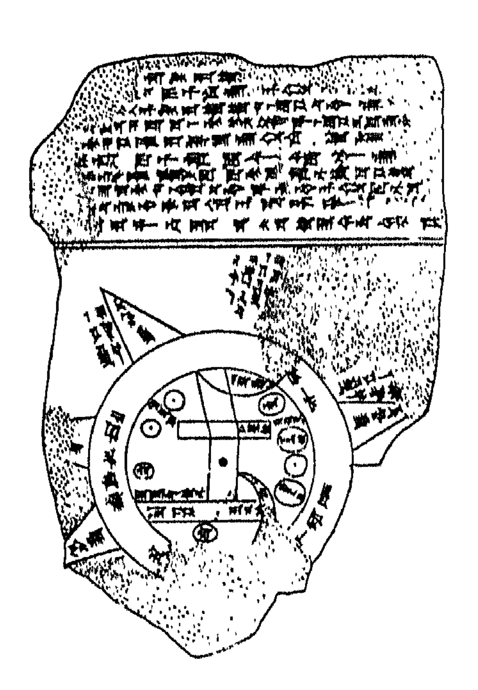
ولم يقتصر اهتمام أهل البلاد على المعارف التاريخيــة وحدهـا بل

(١) أنظر كتاب معالم الشرق الأدنى القديم المؤلف ص ٣٤٧ وما بعدها .

فكروا فى مختلف النواحى العلمية ، ومن أهم ما عنوا به محاولة التعرف على الكون ومكان بلادهم منه وما حواه من بلاد أخرى ـ وقد اعتقدوا أن الأرض شبيهة بالسماء فهى كنصف كرة مقلوبة تعلوها السماء التى تتكون من ثلاث طبقات أو سبع طبقات ويحيط بالسماء البحر أوالمحيط السماوى كذلك قسموا الأرض إلى ثلاث طبقات أو سبع أهمها الطبقة العليا التى يسكن فيها البشر والطبقة الوسطى وهى منطقة المياه والطبقة السفلى وتسكنها أرواح الموتى ، كما جعلوا لها أربعة أركان فى الجهات الأربعة الأصلية .

وبازدياد النشاط التجارى والفتوح الخارجية تعرفوا إلى مناطق مختلفة ووصلوا إلى أماكن بعيدة فوضعوا قوائم مطولة بأسماء المدن والبلدان والأنهار وغيرها من المعالم الجغرافية فى بلادهم وفى الأقطار المجاورة بل وتحوى بعض مؤلفاتهم فى هذا المضمار إضافات لتفسير أسماء بعض الأقاليم والمدن وأسماء المعابد كما تحوى بعضها كذلك معلومات أخرى مفيدة مثل تعداد المدن وتعريف المسافات فيما بينها ، ومما يدل على تقدمهم فى النواحى الجغرافية ما عثر عليه من نصوص تبين طرق مسح الأراضى وتخطيطها ورسم الخرائط لبعض المدن ـ وتعد الخريطة التى عثر عليها لمدينة « نفر » من أقدم الخرائط المعروفة وهى من الدقة بحيث ساعدت المنقبين على التعرف على الأماكن المهمة التى كانت فى تلك المدينة . وقد وجدت كذلك خرائط لمدن أخرى ـ كذلك عثر على محاولة لرسم خريطة للعالم المعروف لديهم وهى تصور الأرض فى هيئة دائرة يخترقها نهر الفرات فى الوسط وهو يأتى من الجبال الشمالية ويصب فى

منطقة الأهوار فى الجنوب ، وقد حدد مكان بابل بالقرب من مركز هذه الدائرة كما عينت أماكن بعض البلدان الأخرى فى هيئة دوائر صغيرة بالنسبة لبلاد النهرين وفى هيئة مثلثات خارج الدائرة بالنسبة للأقطار الأجنبية ، ويحيط باليابسة فى هذة الخريطة البحر الملح الذى تخرج منه ثمانية جزر بينت المسافات فيما بينها بالساعات البابلية (أنظر شكل ٤٨).

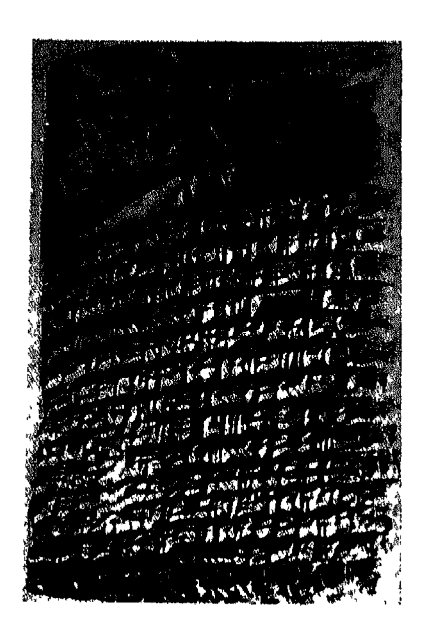


(شكل ٤٨) : خريطة للعالم يبين بها موقع بابل كنقطة قريبة من مركز الدائرة

ولابد أن العلوم والمعارف قد نشأت فى بلاد النهرين كما نشأت فى غيرها من بلاد العالم القديم لتحقيق أغراض عملية ، ولعل الحاجة لضبط حسابات المعابد وغيرها من الأمور الاقتصادية هى التى حتمت معرفة

الأعداد ثم تدوينها ومن ذلك نشأت الرياضيات - وقد بدأت بالعمليات الحسابية البسيطة دون شك - ومما ساعد على تقدم الرياضيات فى بلاد النهرين نشاطها التجارى مع البلدان المجاورة من جهة ومن جهة أخرى حاجتها للأعمال المتعلقة بتنظيم شئون الرى وشق الطرق لتيسير التجارة إذ أن هذه الأمور دعت إلى ظهور الموازين والمكاييل والمقاييس المختلفة وحساب المعاملات التجارية وأرباحها والتعرف على خواص الأشكال الهندسية ، وقد وجدت بعض المصنفات الرياضية كجداول الضرب وجداول معكوس الأعداد ورفعها إلى قوى مختلفة (الأس) وجذورها كما وجدت بعض المسائل والقواعد الرياضية التى تحل على أساسها ، كذلك عرفوا بعض النظريات الهندسية التى تتعلق بتشابه المثلثات ومساحاتها (شكل ٤٩) ، وعرفوا الكسور وإن كانوا قد استخدموا الطريقةالستينية بدلا من الطريقة العشرية - وتوصلوا إلى حساب مساحات وحجوم بعض الأشكال وعرفوا خواص الدوائر وغير ذلك من الرياضيات الراقية .

ومن الأمور التى اهتم بها أهل الحضارات القديمة عامة وأهل بلاد النهرين بصفة خاصة علم الفلك وقد بلغ من شهرتهم فيه أن كثيراً من المؤرخين أصبحوا يعتقدون بأن البابليين هم الذين أسسوا هذا العلم ، وقد حظى علم الفلك بين البابليين بشهرة عظيمة لدى الإغريق حتى أخذوا عنه ، إذ أن أهل بلاد النهرين عنوا منذ أقدم العصور بتدوين ملاحظاتهم عن الأجرام السماوية - وربما كانت حاجتهم الى ضبط الفصول والتقويم هى السبب فى نشأة هذا العلم لديهم وإن كان البعض يظن بأنه نشأ من التنجيم الذى بدأ بمعرفة تأثير النجوم فى طبائع البشر والتكهن بمصائرهم،



(شكل ٤٩) : لوح عليه نظرية هندسية

ومهما كان الأمر فقد تطور علم الفلك وأصبح يبنى على أسس رياضية وأمكن التوصل فيه إلى نتائج هامة ، ومن ذلك اعتبار الشمس مركز الكون وأن المد والجزر يرجعان إلى تأثير القمر - وقد استخدموا فى فى أرصادهم بعض الآلات كما يظن أن الزاقورات كانت تستخدم لرصد الأجرام السماوية إلى جانب وظيفتها الدينية .

وقد قسم البابليون اليوم الفلكى إلى ١٢ قسما كل منها يتكون من ٣٠ جزء وقسموا السنة إلى ١٢ شهراً قمريا يضاف اليها شهر آخر كلما دعت الحاجة لضبط فصول السنة ، كما قسموا دائرة السماء بواسطةالنجوم الثوابت إلى ١٢ قسما ورصدوا بعض الكواكب مثل الزهرة وحسبوا

أبعادها بالدرجات وغير ذلك من الأمور الفلكية الدقيقة ـ ولقياس الزمن استعملوا ساعات مائية لقياس أجزاء الليل وساعات شمسية أو مزاول لقياس أجزاء النهار .

هـذا وقد سبق أن أشرنا إلى أن أهـل بلاد النهرين وضعوا قوائم عن الحيوانات والنباتات التى عرفوهـا ، وهذه وإن كانت قد وضعت لخدمة أغراض لغوية إلا أنها فى الواقع كانت تحوى معلومات قيمة عن الحيوانات والنباتات التى ألفوها وقد قسموها إلى أنواع أو أجناس متشابهة أى أنهم أتبعوا نظام التصنيف العلمى ولـكنهم أخطأوا فى ذلك أحيـانا حيث نجد أنهم وضعوا تحـت جنس الكلب الذئب والضبع والأسـد كما جعلوا كل مايعيش فى الماء تحت صنف السمك بما ذلك الأصـــداف والسلاحف ، وربما كانت مصنفـاتهم فى النبات أكثر دقـة حيث أنهم جعلوها فى مجاميع متشابهة من حيث أشكالها وثمارها وميزوا فى بعض أنواع الأشجار بين الذكر والانثى .

ونظراً لأنهم عرفوا صناعة الفخار منذ أقدم العصور فإنهم عرفوا الـكثير من خواص الطين وتأثره بالحرارة والأصباغ المختلفة كما توصلوا إلى طريقة التزجيج وعرفوا العجائن واللدائن الـكيماوية ـ ومن إقبالهم على بعض المصنوعات المعدنية أتقنوا التعدين وصهر المعادن ومزجها وتوصلوا إلى معرفة أنواع مختلفة من السبائك كما حاولوا التوصل إلى تحويل بعض المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة وقلدوا الأشياء المصنوعة من مواد ثمينة بالاستعانة ببعض الاصباغ والعقاقير واستخدموا الأدوية والصابون والعطور أى أنهم تقدموا فى الصناعات الـكيماوية وخاصة تلك التى تخدم أغراضهم

العملية . وقد عثر على بعض مؤلفاتهم فى هذا المضمار وإن كنا نجهل اسماء بعض المواد التى ذكروها ، كما أن بعض عملياتهم الكيماوية كانت تتضمن بعض الرقى السحرية والدينية ومع ذلك فقد تمكنوا من استخلاص الكثير من المواد المفيدة مثل الزئبق وعرفوا الماء الملكى الذى يذيب الذهب ونجحوا فى استخراج عدد كبير من الأدوية المعدنية وصلنا منها أسماء ما لايقل عن ١٢٠ نوعا .

وفى مجال الطب توصلوا إلى الكثير من المعلومات الهامة عن الامراض وتشخيصها وعن تشريح الجسم والعقاقير النافعة ، وإن كان العلاج قد ظل مختلطا بالسحر لأنهم كانوا يعتقدون أن الأمراض كانت تسببها أرواح وشياطين شريرة وأن الآلهة هى التى تساعد على التخلص منها . وقد اعتبروا أن الإله « ايا » إله الماء هو إله الطب أيضا ، ونظرا لاستخدام المياه كثيرا فى العلاج فإن الطبيب كان يطلق عليه كلمة معناها « العارف بالماء » . كذلك كان من آلهة الطب عندهم الإله « ننازو » أى « سيد الأطباء » وكان ابنه « ننجشزيدا » أيضا من آلهة الطب ، ومن رموزه المقدسة عصا تلتف عليها حية أو حيتان وهذه هى التى يتخذها الأطباء حديثا شارة لهم حيث تعتبر الحية قادرة على تجديد شبابها لأنها تخلع جلدها فيعود اليها الشباب . ونظرا لأن العلاج كان كثيرا ما يتضمن الرقى والتعاويذ لاسترضاء الآلهة والحصول على مساعدتها فى شفاء المرضى فإن الأطباء كانوا غالبا من الكهنة ، ومع هذا لم يهمل هؤلاء فى علاجهم فن تشخيص الأمراض ووصف العلاج إلى جانب ما يلجأون اليه من العرافة والسحر .

ويستدل من النصوص التى خلفها أهل بلاد النهرين على أن عدد

الاطباء لم يكن قليلا ، ومنهم من كانوا يؤدون عملهم كموظفين رسميين وخاصة لدى الملوك ومنهم من كانوا يعملون لحسابهم - وقد يرسل بعض الأطباء الرسميين إلى ملوك بعض الاقطار الأخرى لعلاجهم - كذلك كان الأطباء ينقسمون حسب تخصصاتهم إلى جراحين ومعالجين بالعقاقير ، وقد عرفوا كثيرا من الأمراض وصنفوها ووصفوا أعراضها وعلاجها وكيفية استعمال الأدويه المختلفة التى قسموها حسب مصادرها إلى أدوية نباتية وأخرى حيوانية وثالثة معدنية ، كما قسموها من حيث استعمالها إلى أدوية تستعمل من الظاهر (أى دهون) وأخرى للتناول - واستعانوا ببعض الأدوات لوضع الأدوية فى أماكن دقيقة من الجسم مثل العين والأذن إلى جانب استعمال بعض الأدوات الجراحية - ورغم كثرة ما خلفه أهل بلاد النهرين من النصوص لانجد تنوعا كبيرا فى آدابهم إذ أن معظم ما تناولته كان متعلقا بالأساطير الدينية إلى جانب التدوين التاريخى وبعض الرسائل وكلها تتضمن بعض الأمثال والحكم - وبالطبع ليس من السهل فهم كل هذه الأمثال لأن البعض منها يتناول ما كان سائداً من لعادات وتقاليد وظروف مختلفة مازلنا نجهل الكثير منها .

الفنون [1]

ظهرت أقدم محاولات الإنسان فى الرسم والنقش فى العصور قبل التاريخية حيث بدأها على الفخار بتزيينها بزخارف هندسية وأشكال حيوانية ونباتية انتشرت بعض طرزها إلى إيران شرقا وإلى البحر المتوسط غربا - ومن فترة التمهيد للكتابة ظهر النقش البارز وشاع استخدام الاختام الأسطوانية ، ويبدو تأثر الفنان فى هذه المرحلة بمظاهر البيئة التى عاش فيها إذ تغلب على الاشكال والزخارف التى رسمها ظاهرة التداخل حتى أنه تصرف فى أشكال الحيوانات فجعل رقابها أو ذيولها تتداخل. أو تتقاطع بحيث تبدو كأنها كائنات خيالية .

وفى عصر فجر الاسرات استبدل هذا الطراز الزخرفى بأسلوب تصويرى وتعددت الموضوعات التى تناولها الفنان وتنوعت وسائله للتعبير عنها فقد يلجأ إلى تمثيل المناظر التى يبدعها بقطع مختلفة الألوان من الاصداف المسطحة تكملها خطوط محفورة فى ألواح أردوازية تثبت فى الجدران - وقد وجدت نماذج جميلة للنحت منذ أقدم العصور ، ومن خير الامثله على ذلك القيثارة الممثل بها رأس ثور (شكل ٥٠) ، وفى حالة النحت البارز على السطوح كانت الحيوانات تمثل من الجانب بينما تبرز رؤوسها إلى مواجهة الناظر (شكل ٥١) ، أما الاشخاص فكانوا يمثلون

---

(١) أنظر مقال المؤلف « بين الفنون والبيئة » فى مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية سنة ١٩٦٧ ص ٢٢٩ وما بعدها



(شكل ٥٠) : قيثارة مثل بها رأس ثور
وهى من القطع الفنية الممتازة

من الجانب فى معظم الأحيان مع إظهار الشخص الرئيسى - كما هو الحال فى المناظر التى تركها الفراعنة - فى حجم أكبر من بقية الاشخاص الممثلين معه كذلك كانت ملامح الاشخاص قوية التعبير ثم مالبثت هذه الملامح



(شكل ٥١) : إبريق من الحجر نحتت عليه حيوانات
تواجه الناظر

أن لطفت فى عهد البابليين وزاد تنوع موضوعات النحت ، إلا أن ذلك لم يدم طويلا حيث تدهورت الفنون بصفة عامة أثناء حكم الكاشيين بعد أن تخلى الفنانون عن كثير من تقاليدهم القديمة .

أما فى عصر الأشوريين فإن التقاليد القديمة قد عادت الى الظهور كما ظهرت تأثيرات خارجية لم تكن معتادة فى بلاد النهرين ، فمثلا شاع تمثيل الإله بهيئة آدمية داخل قرص الشمس وهو يسحب قوسه ليعاون الملك ضد أعدائه (شكل ٤٦ أعلاه) كما شاع تزجيج قطع كبيرة من المنحوتات وهذه مظاهر كانت مألوفة من قبل فى مصر ، وقد تقيد الفنان بتقاليد فنية - ربما كانت ترجع إلى تأثير دينى - التزم بها ولم يخرج عنها إلا نادراً .

وعلى العموم يمكن القول إجمالا بأن الفنان فى بلاد النهرين كان كزميله المصرى يعرف قواعد المنظور وفن الكاريكاتير وقد ترك كل منهما أمثلة قليلة تدل على ذلك ولكنهما آثرا أن يكون فنهما تأثيريا أكثر منه إخباريا .

وسار نحت كتل الاجسام (التماثيل) هو الآخر وفق تقاليد معينة هو الآخر ، ويبدو فى تلك التماثيل ما تعكسه البيئة من أثر إذ أن بيئة بلاد النهرين يغلب عليها طابع الانفصال فى وحدات صغيرة تتمثل فى أماكن متناثرة تعلو فى مستواها عن منسوب المجارى والمسطحات المائية كأنها مخاريط أو أساطين قائمة بذاتها ، وقد استوحى الفنان هذه الأشكال فى نحت تماثيله فجاءت فى هيئة كتل مخروطية أو أسطوانية (شكل ٥٢) ـ



(شكل ٥٢) : تمثال مغنية يبدو كأنه من مخاريط وأسطوانات



شكل (٥٣) : تمثالين تبدو فيهما ضخامة الساقين

ونظراً لأن التماثيل كانت تقام من أجل غرض دينى فقد غالى الفنان فى إبراز الاهتمام الشديد فى ملامح التمثال وبالغ فى حجم العيون ولذا اضطر إلى جعل نسبة الوجه إلى الرأس أكبر مما ينبغى ولم يلجأ فنان بلاد النهرين إلى ما لجأ إليه الفنان المصرى من عمل دعامة يستند إليها التمثال أو عدم تفريغ ما بين الساقين حتى تحتملان ثقله ولاتتعرض للكسر بل لجأ إلى جعل هذين الساقين على درجة من الضخامة لاتتناسب مع حجم التمثال وخاصة عند العقبين (شكل ٥٣) ـ كذلك لم يوفق فى إبراز تقاطيع الجسم كما وفق زميله المصرى فى ذلك بل ويبدو أيضا أنه لم يهتم كثيرا بالزى الذى يلبسه لتمثاله ، غير أنه بلغ مرتبة عالية فى إتقان تماثيل الحيوانات وأبدع فيها غاية الابداع .

وفى مجال العمارة سبق أن أشرنا إلى ما كانت عليه مساكن أهـــل بلاد النهرين (أنظر أعلاه ص ٢٠٢- ٢٠٤) وبينا أهم ما تميزت به .

أما المبانى العامة مثل المعابد فكانت تقام فى أول الأمر من الطين ، وبعد أن عرف اللبن استخدم هذا فى بنائها وظل الحال كـذلك فترة طويلة حتى بعد أن عرف الآجر (اللبن المحروق) - وقد حرمت البيئة فى جنوب العراق من موارد كافية للاحجار الصالحة للبناء فاستعيض عن ذلك بجعل الجدران سميكة ضخمة حتى تـكون لها متانة الجدران الحجرية ، كما كان من الضرورى تعريج هذه الجدران بجعلها ذات نتوءات وتجاويف (كجدران الحصون) على أبعاد متساوية وربما كان هذا الشكل قد نشأ عن ضرورة حربية وليس لمجرد تقوية الجدران أو الزينة إذ أن المعبد كان يعد أقدس مكان للجماعة وهو مقر معبودها ، ونظراً لأن الأسلحة البعيدة المدى لم تـكن معروفة عند نشأة هذه المعابد فمن المرجح أن التجاويف التى كانت بالجدران كانت تتيح للمدافعين فرصة الاحتماء فيها ومباغتة العدو[1] - ثم ظهر طراز آخر للمعابد يتمثل فى بناء من طبقات فى هيئة مصاطب تتدرج فى صغرها إلى أعلى وهو الأصل الذى تطور إلى الزاقورة أو البرج المدرج[2] - ويعتقد المؤرخون بأن أهل بلاد النهرين قاموا ببناء هذه المعابد المرتفعة لاعتقادهم بأن الإله يهبط إليها ويشرف منها على شئون البشر ، ولـكن من جهة أخرى يمـكن تفسير ظهور هذا

(١) أنظر مقال المؤلف « بين الفنون والبيئة فى كل العراق ومصر » مجـلة كليـة الاداب ١٩٦٧ ، ص ٢٦٦ وما بعدها .

(٢) أنظر نفس المقال السابق ، شكل (٢ ب) .

الطراز لما له من ميزة دفاعية إزاء ما استحدث من أسلحة أبعد مدى من أسلحة العصور السابقة، ومما يؤيد ذلك أنه على الرغم من بناء معابد أرضية إلى جوار هذه المعابد المرتفعة فإن كلا من هـــذه المعابد كان يحـــاط بسور خاص إلى جانب السور العـام الذى كان يحيط بمجموعة المعابد .

وكانت المعابد عموما تخضع فى تصميمها لتقاليد موروثة إلا أن المعماريين كثيراً ما كانوا يتصرفون فى ترتيب أجزائها المختلفة ـ والتصميم الغـالب فيها أن يكون بجدارها الخارجى مدخل أو أكثر لها بوابات مزدوجة وتؤدى إلى فناء أوسط وهو بدوره يؤدى إلى بهـو عن طريق بوابة رئيسية ، وهذا البهو ينتهى فى طرفه البعيد بالهيكل الذى تقع أمامه غرفة يلحق بها كما يلحق بالهيكل مخازن للأمتعة المقدسة ، وكان من المعتـاد أن يوضع فى أساس كل معبد رمز للوقاية يكون أحيانا عند البوابة فى إحدى المشكاوات وأحيانا تحت أرضية قدس الأقداس وقد يوجد مذبح أمام قدس الأقداس إلا أن الغرض منه يكون رمزيا فحسب لأن مذابح أخرى كانت تقام فى أماكن أخرى من المعبد ، ومنها ما كان كبير الحجم بحيث يصلح لذبح الماشية .

ومن الجدير بالذكر أن قدس الأقداس فى المعابد المرتفعة (الزاقورات) كان يتمثل فى أعلى طبقة منه حيث يوجد هيكل كبير روى هيرودوت أنه كان يحوى سريراً مزخرفا زخرفة فخمة وتقوم إلى جانبه مائدة من الذهب ، كما يروى هيرودوت أن الإله كان يختـــار إمرأة من الريف

لتمضى الليل فى هذا الهيكل [١].

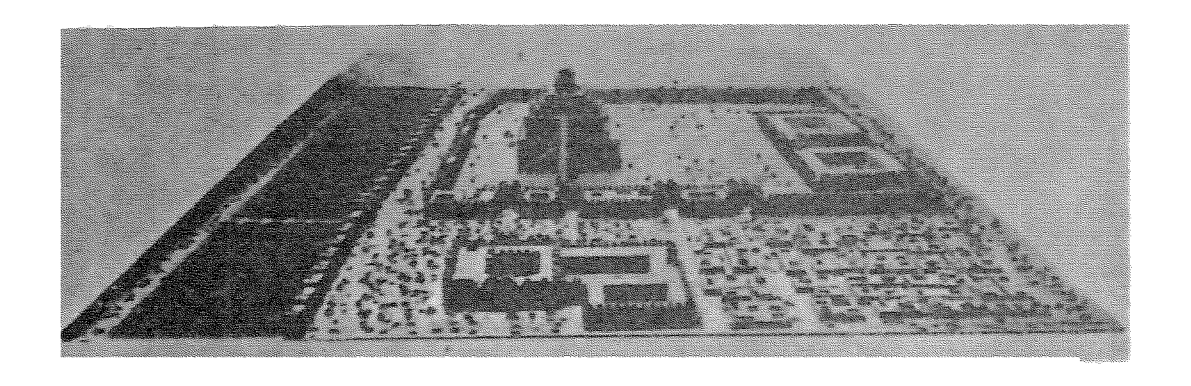
وفى العهد البابلى ظهر طراز جديد من المعابد يبدو أنه كان مشيدا لعبادة الملك الحاكم وهو مربع الشكل أضيفت إليه ركائز أو دعامات، وفى مدخله برجان مزينان بالتجاويف ـ وهذا المدخل يؤدى إلى ممر ضيق فى يساره غرفة للتخزين وفى نهايته بناء مربع يؤدى إلى صومعة بها كوة لتمثال الإله أمامها مجرى من الفخار لتصريف سوائل القرابين وإلى يسار الصومعة غرفة للإجتماعات أو للصلاة ـ وإلى يسار المعبد قصر الحاكم الذى يقع إلى غربه معبد آخر بنفس نظام المعبد السابق ولكنه يتميز بما ألحق به من مبان خصصت للكهنة ـ ومن هذا يبدو واضحا أن قصر الملك كان يحتمي بهذين المعبدين حيث كان من المحتم أن يمر من يذهب إلى القصر بأحد المعبدين وكان عليه بعد ذلك أن يمر في غرفتين طويلتين ضيقتين شددت عليهما الحراسة ـ وبين الغرفة الأخيرة والقصر ساحة مربعة تؤدى إلى الديوان، وهو عبارة عن حجرة كبيرة للأعمال الإدارية والاحتفالات تحيط بها دوائر ـ ويلى هذه الحجرة قاعة للعرش تفصل الديوان عن الغرفة الخاصة للملك.

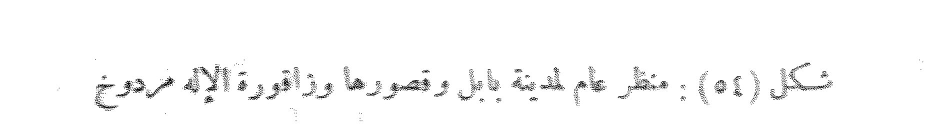
ولم يحدث تطور يذكر فى طرز المعابد أو القصور الملكية إلا فى زيادة عدد الأفنية والحجرات وإضافة أبراج قوية عند الزوايا كما زينت الفجوات التى بجدران المعابد بمنحوتات بارزة من الآجر ـ وفى عهد الأشوريين استعملت ألواح حجرية لحماية الأجزاء السفلى من جدران

---

(١) Herodotus, The Histories (Penguin 1954), p. 86.

المعابد والقصور كما أن المناظر المنقوشة على الجدران كانت تزجج ـ أما أسوار المدن فكان فى كل ضلع لها مدخلان ، وهذه المداخل تحميها أبراج قوية ، وعلى أبواب القصور وضعت تماثيل لثيران مجنحة ذات رؤوس بشرية ربما كان القصد منها أن تكون رمزاً للحماية ـ أما فى العصر البابلى الحديث فقد اختفت هذه التماثيل وحلت محلها نقوش لحيوانات وأزهار على آجر أزرق مزجج ، وكان قصر الملك يقع فى إحدى نهايتى الشارع الرئيسى للمدينة وفى النهاية الأخرى يوجد المعبد الرئيسى وإلى جواره برج بابل أو زاقورة الإله مردوخ (شكل ٥٤).





شكل (٥٤) : منظر عام لمدينة بابل وقصورها وزاقورة الإله مردوخ

سادسا - ايران

تدل الأبحاث الجيولوجية على أن إيران كانت أثناء العصور الجليدية فى أوربا تكثر بها السطوح المائية لتعرضها لكمية وفيرة من التساقط حتى أن كثيراً من جهاتها بما فى ذلك بعض الوديان العليا كانت تحت سطح الماء، وأن صحراء الملح التى تتوسط الهضبة كانت بحيرة عظيمة أو بحراً داخليا، وفيما بين الالفين الخامس عشر و لعاشر قبل الميلاد أخذ المناخ يتدرج نحو الجفاف وحدثت بعض التطورات التى أدت إلى تراكم رواسب الأنهار عند مصباتها مكونة مدرجات مرتفعة تمثل منطقة انتقال بين الجبال وبين السهول الفيضية التى كانت فى سبيل التكوين.

ولابد أن إنسان العصور قبل التاريخية الذى عاش فى الهضبة[1] كان ينتقل إلى حافة السطوح المائية كلما أخذت هذه فى الانكماش والتراجع، وكان حينئذ يعيش فى جماعات متفرقة متباعدة فى معظم الأحيان - وقد تعرضت هذه الجماعات إلى مؤثرات خارجية لقربها من مناطق حضارية مثل بلاد النهرين من جهة ولوقوعها فى طريق الهجرات البشرية الآتية من المناطق الرعوية والجبلية من جهة أخرى - وفضلا عن ذلك فإن وقوع الهضبة الإيرانية بين بلاد النهرين وبين أرمينيا ورغبة ملوك الأولى فى الحصول على بعض الموارد من الأخيرة مثل الرصاص قد أدى إلى أن

---

(١) عن حضارات العصور قبل التاريخية فى إيران أنظر كتاب المؤلف «معالم تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم» ص ٣٩٨ وما بعدها.

تصبح إيران أو جزء منها على الأقل منطقة عبور لمثل هذه الموارد .

ولا يعرف على وجه التحديد متى وصل الإيرانيون الذين ينتمون إلى العناصر الهندو أوربية التى كونت امبراطوريات عظيمة فيما بعد - ولكن من المرجح أنه فى خلال الألف الثانية قبل الميلاد قامت هجرة عظيمة من الشعوب الهندو أوربية من مواطنها التى كانت على الأرجح فى السهول الأوراسية جنوب روسيا - وقد تفرعت هذه الهجرة إلى شعبتين : غربية دارت حول البحر الأسود وعبرت البسفور ثم وصلت إلى آسيا الصغرى (وفى أثناء دورانها تقدمت بعض جماعاتها إلى شبه جزيرة البلقان) ويطلق على هؤلاء اسم الهندو أوربيين ، وشرقية دارت حول بحر قزوين وعبرت القوقاز ثم وصلت إلى منحنى الفرات واختلطت بالحوريين الأصليين الذين كانوا أيضا من أصل آسيوى ، ونشأ عن ذلك الاختلاط قيام مملكة ميتانى ، وقد خرجت من هذه الجماعات بعض العناصر المحاربة التى تستخدم الجياد إلى امتداد جبال زاجروس واخترقتها جنوبا إلى منطقة اشتهرت فيما بعد كمركز لتربية الخيول ، وقد بدأت هذه الجماعة فى تلك المنطقة كأقلية نشيطة سرعان ما طغى نفوذها على سكانها الأصليين الذين كانوا يعرفون باسم الكاشيين وامتصتهم - وهذه المجموعة الشرقية كلها عرفت باسم الهندو إيرانيين .

ويمكننا أن نتخيل بأن الإيرانيين وصلوا إلى الهضبة بزوجاتهم وأولادهم وحيواناتهم ، وقد انتهزوا فرصة انقسامها إلى عدد من الدويلات فدخلوا فى خدمة أمرائها كمحاربين مرتزقة وتمكنوا فى النهاية من أن يستأثروا بالسلطة وأجبروا السكان الأصليين على الخضوع لهم .

ومن العسير أن نتتبع هذه التطورات إذ لاتوجد وثائق تدل عليها ولكن يمكننا أن نستنتج بعض مظاهر حضارتهم من الآثار التى خلفوها إلى جانب الآثار الدالة على حضارة السكان الأصليين ، وتدل البقايا البشرية التى عثر عليها لهؤلاء القادمين الجدد على أن معظمهم كانوا من ذوى الرؤوس العريضة أى أنهم كانوا يشبهون العناصر التى انتشرت فى إيطاليا وغرب أوربا ، وكانوا ينقسمون إلى جماعات قبلية حلت كل منها فى جزء من أجزاء الهضبة ـ وكان الميديون والفرس (الاخمينيون) أهم هذه الجماعات وقد نزل الميديون فى غرب الهضبة ثم كونوا دولة قصيرة الأجل عرفت باسم الدولة الميدية ، ونزل الفرس فى الجزء الجنوبى الغربى وأصبح اسمهم يطلق عن هذه المنطقة التى استقروا فيها ثم صار علما على الدولة التى شملت الهضبة كلها وبلغت من الاتساع فى وقت ما درجة جعلتها أعظم الامبراطوريات فى الشرق الأدنى .

والخلاصة أن ظهور هذه الشعوب فى هضبة إيران واندماجها مع سكانها الأصليين قد بعث فيها حيوية فائقة ونهضة حضارية عظيمة إذ بعد أن كانت الهضبة تسودها دويلات مدن أو دويلات حول المعابد سرعان ما تحولت هذه إلى اتحادات قوية ما لبثت أن كونت إمبراطوريات من أقوى الامبراطوريات التى ظهرت فى التاريخ وأبعدها أثراً فى ميدان الحضارة .

ومهما قيل عن اختلاف هذه الجماعات عن السكان الأصليين من جهة واختلاف قبائلهم ومكان استقرارهم من جهة أخرى فإنه من الممكن مع التغاضى عن قصر أجل دولة الميديين ـ أن نعتبر أن الحضارة التى

وصلت إليها هذه الجماعات ـ مع شيء من التجاوز ـ كانت استمراراً لمظاهر حضارية كانت قائمة فى الهضبة وتطوراً لها ، سواء كانت هذه أصيلة أو متأثرة بمؤثرات خارجية .

الحياة الاجتماعية

بالرغم من أن حضارة الإيرانيين كانت مثل حضارة الحيثيين مبنية على مجدها العسكرى إلا أنها تميزت ببعض المظاهر التى تدل على رقيهم فى مضمار الحياة المدنية وإن كان الكثير من أصول هذه المظاهر قد اقتبس من غيرهم ، ومع هذا فقد فاقوا كثيرا من الأمم فى تطوير هذه المظاهر الحضارية واستحداث مظاهر أخرى .

ولاشك فى أن المرأة فى العصور السحيقة قامت بدور حاسم فى الحياة الاجتماعية وتعرفت على الكثير من الأشياء التى كان لها أكبر الأثر فى حياة الإنسان ، فإليها يعزى التعرف على بعض الثمار الصالحة للطعام وملاحظة بعض النباتات فى نموها ـ وقد تكون جهودها هى التى أسفرت عن معرفة الزراعة واختراع الأوانى الفخارية . وربما كانت ضخامة الدور الذى قامت به بالقياس إلى دور الرجل هى السبب فى اتباع النظام الأموى فى كثير من المجتمعات البدائية ، ولابد أن هـــذا النظام كان سائدا بين سكان الهضبة القدامى ثم انتقل منهم إلى الآريين فيما بعــد ـ ومن المرجح أن المرأة استطاعت أن تتحكم فى شئون الجماعة وتمتعت بمكانة جعلتها تصل إلى أقوى المراكز فقامت فى بعض القبائل بقيادة

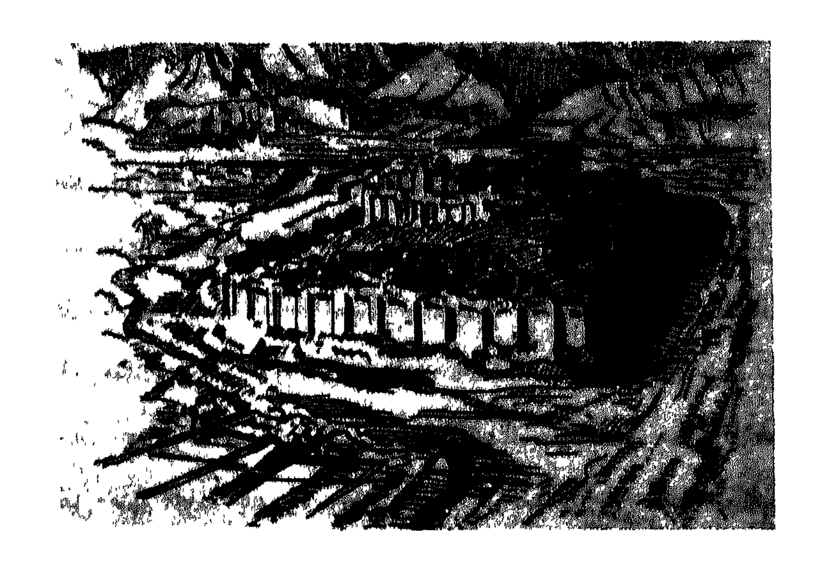
الجيوش [1] كذلك كانت تصل إلى الكهانة . وكانت الوراثة تنتقل فى فرع المرأة باعتبارها ممثلة لنقاوة العنصر إذ يغلب على الظن أن تعدد أزواج المرأة كان شائعا كما كان زواج الأخ من أخته مألوفا ـ وقد ظل هذا النظام الأخير إلى عصور متأخرة وكان منتشرا فى مختلف أقطار الشرق الأدنى ، ومن الغريب أن زواج الأم بالإبن كان معروفا فى الهضبة ولكنه كان نادراً .

وكان المجتمع الإيرانى ينقسم إلى طبقات : الأمير والنبلاء ويليهم الرجال الأحرار الذين يملكون ضياعا ثم الاحرار المعدمين ، وأخيرا العبيد ـ وكان الملك على رأس الدولة ويلقب بلقب « خشاثرا » أى «المحارب» مما يبين الصفة العسكرية للملكية الفارسية ، وكان سلطان الملك مطلقا يملك ويحكم وأوامره مطاعة نافذة ، غير أنه كان يتقيد بتقاليد وعادات موروثة إذ أنه كان يهب الأعيان والنبلاء بعض الاقطاعات ويجعل منهم مجلسا للشورى يصدر أوامره بعد الرجوع اليه ، وكان أعضاء هذا المجلس هم الوسطاء بينه وبين الشعب ـ وكان الناس يعتقدون بأن الملك ملهم يستمد أحكامه من إله الخير « أهورا مزدا » أى أن المشيئة الإلهية كانت أساس الحكم فى الدولة . ومن يخالف أوامر الملك كان يعد آثما فى حق الإله الأعظم ، وبمرور الزمن انصرف الملوك عن بعض شئون الحكم وعهدوا بها إلى أشرافهم ورجال قصورهم وتفرغوا لملاذهم مما أدى إلى ضعفهم فى النهاية ـ وكان من المألوف أن يبنى الأمير مقره فوق تل

---

(1) Ghirshman, "Iran", (Pelican A 239) ,p.44

صناعى بينما تكون مساكن المدينة عند أسفل هذا التل ويحيط بالجميع سور ضخم يدعم على الجوانب بأبراج قوية (انظر شكل ٥٥) وكانت بيوت هؤلاء الأمراء والسادة العظام تضم عدداً من الخدم والرقيق من النساء والرجال كما تضم عدداً من ذوى المهن المختلفة ينتجون لسادتهم كل شىء ، ولم يكن الفنانون الأحرار يستخدمون إلا قليلا .



(شكل ٥٥) : مدينة إيرانية قديمة

وكان الأعيان والنبلاء أصحاب سلطة تكاد تكون مطلقة فى عواصمهم . يسنون القوانين وينفذون الاحكام القضائية ويجبون الضرائب ولهم قواتهم المسلحة الخاصة بهم ، وفى مقابل هذا كان عليهم أن يمدوا الملك بالمال والعتاد وقت القتال .

وكان القرويون يتمتعون بقسط أوفر من الحرية مما كان يتمتع به

أقرانهم في بلاد النهرين أو مصر إذ كانت الملكيات الصغيرة توجد إلى جانب الاقطاعيات الكبيرة ، وقد أخذ نظام الملكيات الصغيرة فى الانتشار إذ كان يشجعه الميل الغريزى نحو الانفرادية .

ومع أن الميديين كانوا يعيشون حياة زراعية في قرى إلا أن الحكومات المركزية لم تكن موجودة فى أول الامر ؛ وكان كل أمير يعتمد إلى جانب مزارعه ومراعيه على مناجمه وغنائمه فى الحروب وما يتقاضاه نظير حمايته للتجار الذين كانوا فى بداية الأمر من غير الإيرانيين ، وبالطبع كان الامراء يشجعون النشاط التجارى للعمل على زيادة دخلهم .

وكان الفرس يميلون إلى التزين فأكثروا من استعمال أدوات التجميل والمساحيق والزيوت العطرية والأصباغ حتى أن الملوك كانوا لا يخرجون إلى الحرب دون أن يحملوا معهم زيوتهم العطرية ، واستخدموا أنواعا مختلفة من الحلى مثل الأقراط والخلاخيل والتمائم والأساور وغيرها كما كانوا يستعملون التيجان والأحذية .

الـدولة

سبق أن أشرنا إلى الدويلات التى كانت منتشرة فى الهضبة ، كما أشرنا إلى اعتماد كل أمير فى موارده على منتجات أراضيه ومراعيه إلى جانب الغنائم التى كان يحصل عليها من حروبه والمكوس التى كان يفرضها على التجار - وحينما اتسعت رقعة الامبراطورية نجح ملوكها فى تنظيم إدارتها نجاحا كبيرا وقد وضعوا أسسا ثابتة لتنظيمها إذ أنهم قسموها إلى عشرين ولاية تشمل مختلف الاقطار والجهات التى أخضعوها - وكان الملك يعين لكل ولاية حاكما هو الوالى الذى كان بمثابة الملك فيها لأن الولاية كان لها كيانها السياسى الخاص بها ، ولذا كان الملك الفـــارسى يلقب بملك الملوك .

ومع أن الولاة كانوا أعوان الملك فى إدارته لامبراطوريته إلا أنهم كانوا أحيانا مصدر خطر على الامبراطورية وخاصة إذا ما أرادوا الاستقلال أو أصبحت وظائفهم وراثية ، ولتجنب هذا الخطر عمد الملك إلى تعيين قائد لجيوش الولاية مستقل فى اختصاصه عن الوالى ويتبع الملك مباشرة كما كان يعين سكرتيرا للولاية ورئيسا لموظفيها الماليين ويرسل إليها عددا من المفتشين الذين يحملون ألقابا مختلفة توحى بمهامهم مثل « عين الملك » ، « رسول الملك » ، « أذن الملك » ، وهؤلاء جميعا كانوا يتبعون الملك مباشرة ومعظمهم كان من الأسر النبيلة .

ومما ساعد على نجاح الامبراطورية فى إدارة ممتلكاتها أن الاباطرة أنشأوا بها كثيرا من الطرق ونظموا البريد لتيسير الاتصال بينهم وبين

مختلف أنحاء إمبراطوريتهم ، ومن أهم هذه الطرق طريقان كبيران أنشأهما دارا : أحدهما يصل بين ليديا والعواصم الفـارسية ، والثانى يبدأ من مصر إلى فارس ويمتـد شرقا حتى حدود الصين - كما أنشأوا المراكز التجارية والخانات لتأمين المسافرين ومدهم بما يحتاجون اليه من زاد ومؤن فكانت هذه الطرق والوسائل سببا فى تثبيت الحكم المركزى وعاملا من عوامل نقل المظاهر الحضارية بين مختلف أنحاء الشرق الأدنى القديم - ولم تقف عقبة فى سبيل الانتقال من مكان إلى آخر إذ اشتهر الفرس بإقامة القناطر على الأنهار بحيث تتحمل عبور مئات الأفيال فوقها .

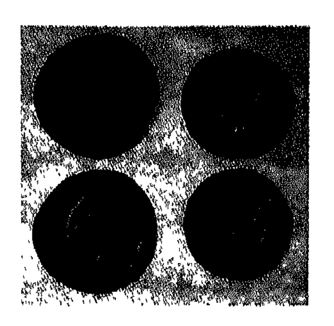
وقد تمتعت الولايات التابعة للامبراطورية بشىء من الحرية إذ سمح لها باستعمال لغتها الخاصة وعاداتها وتقاليدها وديانتها وعملتها ، بل وبقاء أسرتها الحاكمة أحيانا مما جعل بعض الولايات تحس بأنها أحسن حالا فى تبعيتها لفارس من خضوعها لقادتها أنفسهم لأن هؤلاء الأخيرين كانوا يرهقونها بالضرائب بينما كان ملوك فارس وخاصة دارا الأول يحدد الضرائب التى تجبى من كل ولاية على حسب إمكانياتها الطبيعية .

وقد اهتم معظم الملوك بتحسين إنتاج الأراضى الزراعية فلجأوا إلى حفر القنوات كما نقلوا بعض النباتات والأشجار والحيوانات والطيور من بيئة إلى أخرى بقصد تعميمها وتنميتها فى غير مواطنها التى جلبت منها كما حاولوا استنبات أنواع جديدة من النباتات فى مختلف أنحاء الامبراطورية، ومع أن الفلاحين كانوا مرتبطين بالأرض فى الملكيات الكبيرة بحيث يكونون مايشبه الرقيق إلا أن بعض الفلاحين كانت لهـم ملكياتهم

الصغيرة التى يتمتعون فيها بقسط من الحرية .

وكان اتساع رقعة الامبراطورية وانضواء كثير من الولايات الغنية المختلفة الموارد تحت لوائها سببا فى جعلها قادرة على الاكتفاء الذاتى من الناحية الاقتصادية إذ لم تعوزها الموارد التى تحتاج اليها ، فالأخشاب الجيدة التى تستخدم فى البناء وصنع السفن والعربات والاسلحة والمعدات الحربية وغيرها كانت موجودة على الساحل الفينيقى وآسيا الصغرى وكريت وقبرص ، والفضة والنحاس والحديد كانت تأتى من قبرص كذلك ، ومن آسيا الصغرى يأتى النحاس والفضة ، ومن إقليم كرمان كان يأتى الذهب والفضة ـ وإلى جانب هذه المعادن كانت أحجار البناء الجيدة تجلب من عيلام وتجلب الاحجار الكريمة وشبه الكريمة من جهات أخرى مختلفة، ومما زاد الحالة الاقتصادية إنعاشا أن موارد الثروة السمكية فى دجلة والفرات والخليج العربى كانت من الوفرة بحيث كان من الممكن تصدير الفائض منها بعد أن تملح وتقدد .

وقد عمدت الدولة إلى تيسير التعامل فاستخدمت النقود المسكوكة ابتداء من عهد دارا الأول (شكل ٥٦) ـ وربما كان استعمالها مقتبسا عن الليديين ولو أن أوزانها وأقسامها مأخوذة عن النظام البابلى فى تقسيم الوحدات القياسية ـ كذلك شجعت مصارف المعابد والمصارف الخاصة التى كانت تقوم بإقراض المحتاجين كما أن مبدأ الإئتمان أو أوراق الاعتماد والسندات كانت معروفة وإن كان من الممكن أن نرجع هذه النظم جميعها إلى أصول بابلية ـ ومع أن الفرس استحدثوا كتابة مسمارية اقتبسوها من الخط البابلى إلا أن اتساع رقعة الامبراطورية ومحافظة الشعوب التى



(شكل ٥٦) : نماذج من العملة الفارسية

دخلت تحت سلطانها على تراثها القديم لم ييسر انتشار هذه الكتابة، وعلى ذلك ظلت هذه الأمم تستعمل لغاتها وكتاباتها الخاصة ـ إلا أن الفرس استعملوا فى معاملاتهم التجارية والمعاملات المشتركة الأخرى الكتابة الآرامية فى كتابة مدوناتهم إلى جانب الخط الفارسى المسمارى، كما استعملوا اللغة الآرامية ذاتها أحيانا مما ساعد على نشاط التعامل التجارى إذ أن الخط الآرامى كان واسع الانتشار فى الشرق الادنى القديم (أنظر أعلاه ص ١٦٧ - ١٦٨).

وقد استتب النظام فى أنحاء المملكة فى أوقات نهضتها بفضل سيادة القانون وعدم التهاون فى تطبيقه، ويبدو أن القضاء فى فارس كان يشبه القضاء فى بابل إلى حد بعيد، وكان الاهتمام منصبا على تطبيق العدالة فى مختلف النواحى ـ ومن المرجح أن القضاة كانوا يستبقون فى مراكزهم مدى الحياه ما لم ينسب إليهم ما يدعو إلى فصلهم بسبب بعـدهم عن العدالة ـ وكان الملك هو مصدر القوانين والشرائع وأحكامه تعتبر مستوحاة من الإله نفسه ولذا اشتهر الفرس بالتمسك بالقانون، وكان الملك نفسه

يعتبر المحكمة العليا التى تستأنف إليها الأحكام وإن كانت تليه محكمة عليا خاصة مكونة من سبعة قضاة ويلى هذه المحكمة المحاكم الأخرى التى تنتشر فى أنحاء المملكة ـ وقد نشأت جماعة خاصة متضامنة فى الشئون القضائية كانت أشبه بالمحلفين ، وكانت الرشوة من الجرائم الكبرى ولم يتهاون الملوك إطلاقا فى معاقبة القضاة الذين لايلتزمون العدالة حتى أنه ينسب إلى قمبيز بأنه سلخ أحد القضاة وهو حى وجعل من جلده منصة فى مكان القاضى وعين ابنه فى مكانه ـ هذا ويلاحظ أن العقوبات كانت فى معظمها قاسية تشمل الجلد والتشويه وقطع الأعضاء وسمل العيون إلى جانب الإعدام بوسائل مختلفة .

العسكرية

تدل أقدم النقوش على أن المحاربين كانوا ينقسمون إلى مشاة وفرسان يركبون الجياد وفرسان يستخدمون العربات التى يجر كل منها زوج من الخيل ، ويتميز الخيالة بما يلبسونه من أحذية تنحنى فى مقدمتها إلى أعلى ـ وقد عثر فى بعض المقابر على أسلحة مختلفة منها السيوف والخناجر والدروع وقوس السهام وكلها كانت من البرونز أو الحديد ، كذلك عثر على أعنة للخيول وحلى لرؤوسها وصدورها .

وكانت الخدمة العسكرية إجبارية لكل ذكر سليم بين سن الخامسة عشرة والخمسين ، ويبدو أن الجندية كانت محبوبة إذ كان الجند يخرجون إلى القتال بموسيقاهم بين تهليل الأهالى ـ وكان الجيش يخضع لإشراف الحرس الملكى الذى يضم عدداً من النبلاء والأشراف ومهمته حراسة

الملك والمحافظة على حياته وكان غالبا يتألف من ألفين من الفرسان ومثلهم من المشاة ـ أما الجيش نفسه فكان يتألف من وحدات أساسية نظامية .ووحدات أخرى عامة ، وكانت الوحدات الأساسية تتكون من الفرس فحسب وهى التى يعتمد عليها فى صيانة الأمن فى أنحاء الامبراطورية أما الوحدات العامة فتضم فرقا من شعوب مختلفة ترسل إلى الأقطار الخاضعة للإمبراطورية وكل فرقة منها كانت تتبع أساليبها الحربية وتحتفظ بتقاليدها وأسلحتها ولغتها القومية ، ولهذا فإنه على الرغم من الضخامة التى كان يصل إليها عدد الجيش فإن نقطة الضعف فيه كانت تتلخص فى انعدام الوحدة والتناسق بين مجموعاته المختلفة لاختلاف عتادها وتنظيمها .

أما عن الأسطول فلا شك أن تجربة الفرس فى ركوب البحر كانت فى بداية الأمر أقل منها لدى غيرهم ولذا كانوا يستعينون بالفينيقيين ، ومع هذا لم يدخر الفرس وسعا فى إنشاء أسطول قوى كان يضم سفنا فينيقية ويونانية ، واستخدموا فيه المصريين والقبارصة والسوريين وغيرهم إلى جانب الفينيقيين ويونان آسيا الصغرى ـ واستطاعوا أن يسيطروا على البحر المتوسط والمحيط الاطلنطى وكانت سفنهم التى صنعها الفينيقيون بأمر ملوك فارس على ثلاثة أنواع : سفن الهجوم وناقلات الجنود والخيول وناقلات الأمتعة والذخائر ، وكانت هذه الأخيرة صغيرة الحجم نسبيا ـ وقد أدى هذا التفوق البحرى إلى عنايتهم بالتجارة البحرية والعمل على حمايتها ونشاطها وقد أرسلوا بعثات استكشافية من الهند إلى البحر الأحمر ومن الجزائر إلى اليونان وإيطاليا كما شقوا القناة التى توصل بين النيل والبحر الأحمر .

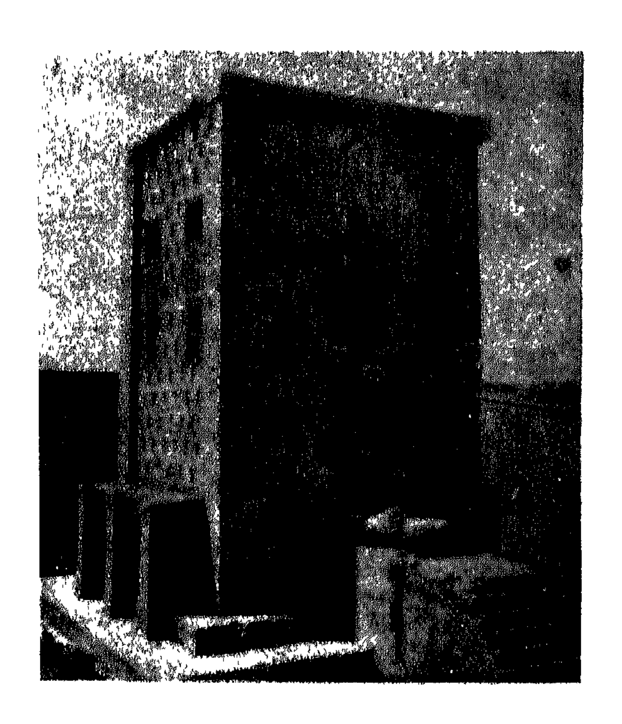
الديانة

كان الآريون كغيرهم من شعوب العالم القديم يعبدون معبودات ترتبط بظروف بيئتهم ، ونظراً لأنهم كانوا يعيشون فى مناطق جبلية فإن أهم معبوداتهم كان زوجا من الآلهة أحدهما إله العواصف والمطر والثانى إلهة الشمس أحيانا والأرض أحيانا أخرى ، إلى جانب ما عبدوه من الحيوانات والأجداد ـ وكان الفرس كغيرهم من الشعوب الأخرى يعبدون قوى الطبيعة المختلفة فعبدوا الشمس كإله باسم « مثرا » والأرض باسم « زام » والريح باسم « وهيو » كما عبدوا الماء والنار أيضا ، وكانوا يقسمون الموجودات إلى قسمين : موجودات خيرة تصدر عن قوى الخير وتبعث على السعادة ومن مظاهرها النهار والخصب والصحة والجمال والاستقامة وما شابهها ، وموجودات شريرة تصدر عن قوى الشر وتبعث على البؤس والشقاء ومن مظاهرها الليل والقحط والقبح والخداع وغيرها ، كما أنهم كانوا يعتقدون بأن قوى الخير والشر فى صراع دائم وربما كان هذا هو السبب فى عبادتهم لآلهة مختلفة ـ ويبدو أن عدداً من الآلهة كانت تتطلب تضحيات دموية ربما كانت ترجع طقوسها إلى أصول سحيقة ، وهذه الطقوس كان يقوم بها طائفة من رجال الدين يطلق عليهم اسم « ماجى » أى « المجوس » ـ وكانت هذه الطائفة تلعب دوراً كبيراً فى الحياة الدينية والاجتماعية رغم أنها كانت تعيش فى عزلة ويتزاوجون داخليا فيما بينهم فهم الذين يقومون بتفسير الأحلام ، ويلعبون دوراً فى تتويج الملك الجديد كما كانوا يصحبون الجيش للقيام بطقوس التضحية ، وكانوا مسئولين

عن تعليم الشبان حراسة المقابر الملكية وكان يعهد لهم بصنع الشراب المسكر الذى يستخدم أثناء الطقوس الدينية . وكان بيعه قاصراً عليهم كذلك ، ومع أن أصلهم وأصل ديانتهم غير معروفين إلا أنه يبدو أن هذه الديانة لم تكن فارسية النشأة لأنهم كانوا لا يدفنون جثث موتاهم بل يتركونها فريسة للوحوش والطيور الجارحة .

ومع أن هيرودوت ينسب إلى الفرس عدم وجود معابد أو تماثيل للآلهة لديهم إلا أن الآثار تثبت غير ذلك فقد عثر على بقـــايا ثلاثة معابد من عصر الاخمينيين وكل منها فى هيئة برج مربع يشمل حجـرة واحدة يمكن الوصول إليها بدرج وفيها كان المجوس يرعون النارالمقدسة (شكل ٥٧) ـ ويبدو أن الاحتفالات الدينية كانت تقام فى الهـواء الطلق حيث عثر على المذابح (وكانت عادة أزواجا) فى العراء بعيدة عن المعابد ، وإلى هذه المذابح كانت تساق حيوانات التضحية فى موكب حافل بالعربات التى تجرها خيول مقدسة ، وكانت التضحية تتم فى حضور الملك من أجل إله الشمس ، كـذلك صنع الفرس التماثيـل لآلهتهـم ، وتبين نقوش المقابر الملكية الأمراء وهم يقومون بالتضحية أمام مذبح من فوقه قرص مجنـح يبرز منه رأس وكـتفى الإله « أهورامزدا » (شكل ٥٨) الذى كان يعتبر الإله الحكيم الذى يحكم السماء ويشمل الأرض ويحميها بجناحيه كما يحمى الملك الذى يعد نائبا عنه على الارض.

وقد نشأت هذه الديانة على يد حكيم يعرف باسم « زرادشت » كان يعيش فى ميديا ولـكنه غادرها ليبشر بدينه الجديد فى شرق إيران ـ ومع أن تاريخه ما زال موضع جدل إلا أن من المعتقد بأنه كان يعاصر



(شكل ٥٧) : معبد النار فى نقش رستم

« هيستاسبس » والد « دارا » الذى كان واليا على إقليمى « بارثيا » و« هركانيا » أيام قمبيز وأن هذا الوالى كان من بين الذين استهوتهم الديانة الجديدة ، ثم أخذت هذه الديانة بعد ذلك فى الانتشار تدريجيا فى أنحاء فارس ـ وكانت فكرتها تتلخص فى أن العالم يحكمه عاملان : الخير ويمثله الإله « أهورامزدا » والشر وتمثله روح شريرة هى « أهريمان » وتذهب الروايات إلى أن مولد زرادشت قد اقترن بالمعجزات وأنه نشأ محبا للحكمة ولحياة العزلة والاعتكاف وآمن بأهورامزدا كإله قدير للنور وأن هذا الإله ظهر له ووضع « الأفستا » بين يديه ، وهو كتاب مملوء



(شكل ٥٨): الإله أهورامزدا

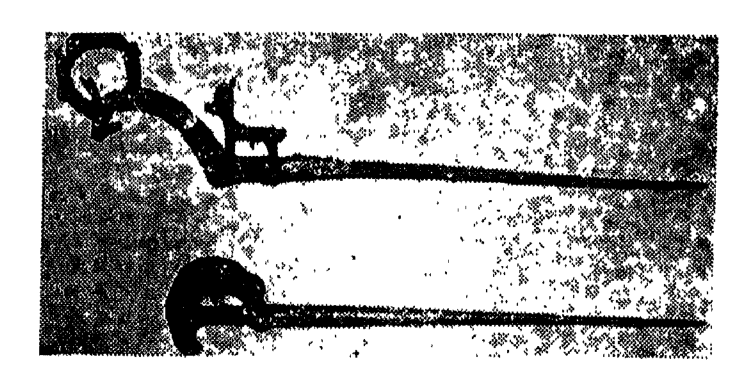
بالمعرفة والحكمة وأمره بنشر تعاليمه بين الناس جميعا ـ وقد قاسى فى سبيل ذلك كثيراً حتى اضطر إلى الهجرة إلى شرق إيران على نحو ما بينا وما أن تمكن « دارا » (الأول) من اعتلاء العرش حتى رأى بأن ما يدعو إليه زرادشت يوحى بعناصر الخير فى نفوس شعبه فجعله الدين الرسمى للدولة وبذلك تحول الفرس من عبادة آلهة متعددين إلى إلى عبادة معبود واحد ، غير أنهم كانوا يعتقدون بوجود مجموعة من الملائكة الحارسين والكائنات المقدسة التى تعين على الخير وإلى جانبها توجد سبعة من الشياطين أو الأرواح الشريرة وهى تسبح دائما فى الهواء وتسعى لإغراء البشر لارتكاب الآثام والشرور ورئيس هذه الشيأطين « أهريمان » أمير الظلمة وحاكم العالم السفلى ، خالق المعاصى والآثام والثعابين والديدان والآفات وبلايا الحياة ليحطم الجنة التى أسكنها « أهورامزدا » للسلف ـ والخلاصة أن فى هذه الديانة ما يشبه الأديان السماوية إذ تعترف بإله واحد إلى جانبه ملائكة وتشير إلى شياطين أو أرواح شريرة رئيسها يشبه إبليس فى الأديان السماوية ـ وقد صورت هذه العقيدة العالم فى صورة مسرح يتصارع فيه الخير والشر وأن النفس

البشرية ميدان لمثل هذا النزاع إلا أن لكل إنسان قوة خارقة تحضه على الأخلاق الفاضلة أى أن الإنسان حر الإرادة يختار بين النور والظلمة وهو مسئول عن أعماله ، كذلك كانت تحض على فعل الخير وتبين أن طبيعة الإنسان الخيرة تدعوه إلى ذلك ، كما حددت واجبات الإنسان فى ثلاثة أمور : أن يعمل على جعل العدو صديقا والشرير صالحا والجاهل عالما ، كما بينت أن أعظم الفضائل هى الصلاح والشرف والأمانة فى الأقوال والأفعال ـ كذلك نصت على التقرب إلى الإله بالتطهر والتضحية والصلاة ، ومع أنها نهت عن إقامة الهياكل والأصنام إلا أن معتنقيها أقاموا المعابد على سفوح التلال وفى ساحات القصور وأواسط المدن وأشعلوا فيها النيران المقدسة قربانا للإله أهورامزدا ثم بالغوا فى تقديس هذه النيران حتى وصلت إلى درجة العبادة كما قدسوا الشمس باعتبارها نار السماء الخالدة .

وقد أصبح الدين الزرادشتى المصدر الروحى للفرس منذ عهد دارا الأول واكتسب رجاله قوة وتأثيراً فى الناس إلى درجة أن أصبح ملوك الفرس لايقبلون على شىء إلا بعد استشارتهم ـ وتشير « الأفستا » إلى قرب نهاية العالم حيث تبين أن زرادشت ولد قبل نهاية العالم بثلاثة آلاف سنة وسيظهر من بعده ثلاثة أنبياء من نسله ينشرون دينه فى فترات متباينة ويبعث الأخير منهم حينما تكون الدنيا خرابا فتصلح الأحوال ببعثه ثم تنتهى الدنيا وتقوم القيامة ويخلو الكون من أعراض الشيخوخة والهزال والموت إلى الأبد .

الفنون

لم يعثر على آثار كافية توضح ما كانت عليه الفنون المختلفة التى سادت بين الإيرانيين القدامى ، كما أن دولة الميديين كانت قصيرة الأجل فلم تساهم بنصيب وافر فى حضارة الشرق الأدنى القديم ، غير أنه يستدل من أقدم الآثار على أن سكان الهضبة فى أقدم العصور كانوا يدفنون موتاهم تحت أسفل المنازل ثم تحولوا عن ذلك إلى الدفن فى جبانات بعيدة عن المدن ، وكان الميت يدفن ومعه أثاث جنزى يتبين منه أنهم استعملوا الحلى وخاصة من الفضة والبرونز ، إذ عثر على دبابيس تنتهى بأشكال تمثل رؤوس الحيوان (شكل ٥٩) وأساور وحلقان وأحزمة يلبسها الرجال والنساء وخلاخيل من البرونز ومن الحديد أحيانا ـ كذلك ظهرت فى رسوم أوانى الفخار عناصر جديدة غير تلك التى كانت شائعة فبدلا من الشمس وأبو منجل التى كانت تمثل فى تلك الرسوم



(شكل ٥٩) : دبابيس من البرونز

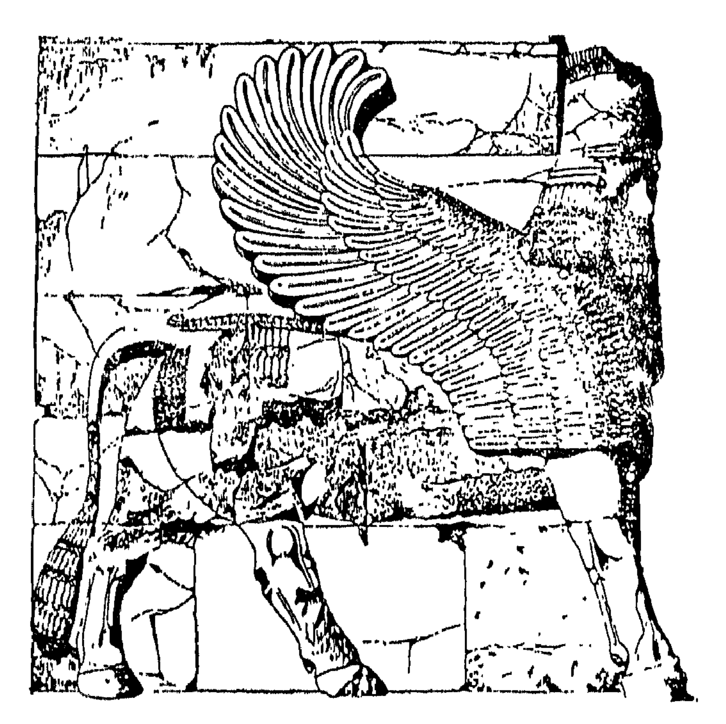
إلى جانب الزخارف الهندسية المألوفة كانت الشمس والحصان هى العناصر السائدة .

ومع أن الفرس هم الذين كونوا أقوى الامبراطوريات القديمة فى الهضبة وبلغوا أرقى مرحلة حضارية وصلت إليها ، إلا أنهم لاشك ورثوا الكثير عن الميديين ، فقد ورثوا عاداتهم وتقاليدهم كما ورثوا طريقة كتاباتهم ومغالاتهم فى إقامة الأعمدة فى عمائرهم فضلا عما ورثوه عنهم من قوانين مختلفة ، أما من ناحية الفنون والآداب فلم يعثر من الأدلة مايكفى لإعطاء فكرة واضحة عنها لدى الميديين .

ومع أن الفرس ظهروا كدولة عسكرية صرفت أغلب أوقاتها فى الحروب إلا أنهم لم يهملوا شأن الفنون وإن كانوا قد اعتمدوا فى ذلك على أقوام أخرى واعتمدوا على الفنانين الأجانب فى صناعة آياتهم الفنية ومع هذا فقد تميزوا بحس مرهف جعلهم يقدرون الفنون فعشقوا الأشعار والقصص الخيالية وأحبوا الغناء والرقص والعزف على مختلف الآلات الموسيقية، غير أنهم كانوا يأنفون الاشتغال بها إذ كانت فى نظرهم من حرف المأجورين والمستضعفين .

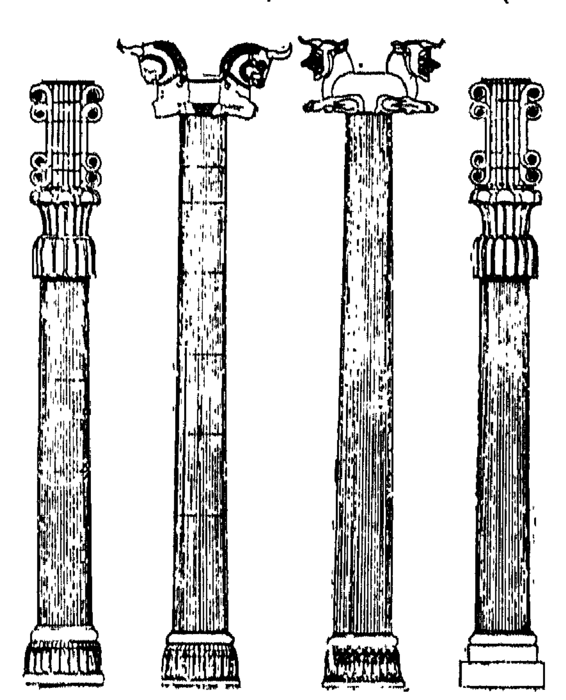
ورغم قلة الجهود الأثرية فى هضبة إيران فإن ما عثر عليه من الآثار حتى الآن يدل بوضوح على مهارتهم فى فن العمارة والبناء وقد اشتهرت بقاياها التى اكتشفت بروعتها الفنية ، فمقبرة كورش فى « بازارجادة » ما زالت رغم تهدمها تعد آية فى الروعة والجمال ، كما أن مقبرة دارا الاول فى « نقش رستم » القريبة من « برسيبوليس » ما زالت تعد

من آيات الفن فى العالم القديم - ومن أروع الآثار كذلك ما عثر عليه من بقايا قصر اكزركسيس فى « برسيبوليس » إذ تعد مجموعة المدرجات الحجرية والساحة الفسيحة ومابها من عمد شامخة من آيات الفن الفارسى القديم - ومما يلاحظ أن القصر كان يقام على ساحة مرتفعة يرتقى إليها من أسفل الوادى بدرج خارجى يمتاز بالجمال إلى درجـــة أن بعض علماء الآثار يعتبرونها أبدع الدرجات الموجودة فى أية بقعة من بقاع العالم - ويبلغ ارتفاع الساحة ما بين عشرين وخمسين قدما وطولها نحو ١٥٠٠ قدم وعرضها ألف قدم ، وفى أعلى الدرجات يوجد المدخل وهو واسع تحف به تماثيل هائلة لثيران مجنحة برؤوس بشرية (شكل ٦٠) مما يذكر بالتمــــاثيل



(شكل ٦٠) : ثور مجنح من مدخل قصر اجزركسيس

التى كانت تزين مداخل القصور فى بلاد النهرين ، وبعد المدخل بقليل نجد مجموعة أخرى من الدرجات على جانبيها جدران قصيرة نقشت بنقوش بارزة تعد من أجمل ما عثر عليه فى إيران ، وهى توصل إلى قاعة تلحق بها بعض الحجرات تشغل ساحة تزيد على مائة ألف قدم ، هذا وقد أقيم قصر اكزركسيس الأول على ٧٢ عموداً لم يبق منها إلا ١٣ فقط مازالت قائمة بين حطام القصر - وتمتاز هذه الأعمدة المصنوعة من الرخام بأنها من قطع متصلة وكلها نحيلة دقيقة ويبلغ ارتفاع الواحد منها ٦٤ قدما وتشبه قواعدها الأجراس التى تغطيها أوراق الأشجار المقلوبة الوضع ، وكان كل عمود ينتهى فى أعلاه بشكل صدرى ورأسى ثورين أو حصانين يتصلان من الخلف (شكل ٦١) وكانت جوانب الأبواب والنوافذ من حجر أسود لامع



(شكل ٦١) : أعمدة تنتهى فى أعلاها بزخارف ورؤوس حيوانية

أمـا الجـــدران والحوائط فكانت مغطاة بآجر مصقول رسمت عليه صور زاهية تمثل حيوانات وأزهار وإلى خلف هذه القاعة وشرقها قاعة عرفت باسم قاعة المائة عمود لم يبق منها إلا عمود واحد .

ومن الملاحظ أن الفن الفارسى قد اقتبس بصورة واضحة من فنون الدول التى خضعت لسلطان الامبراطورية ولـكنه قد طورها حتى بلغت درجة الـكمال ، فمن المرجح أن الشكل الخارجى لمقبرة كورش متأثر بفن ليديا أما أعمدتها الحجرية الدقيقة فيمكن مقارنتها بالأعمدة الاشورية ، بينما كان بهو الأعمدة الضخمة والنقوش قليلة البروز من الامور المألوفة لدى المصريين وربما استعار الفرس فـكرتها منهم ـ أما تيجان الأعمدة التى على شكل الحيوان فيمكن أن تـكون مستوحاة مما رأوه فى نينوى وبابل .

ولم يـكن التصوير والنحت مستقلـين عن العمارة بل كانا تابعين لها وربما كانت الـكثرة الغالبة من منتجاتها من عمل فنانين أجانب وفدوا عـــلى إيران من مختلف الاقطار التى أخضعوها ـ وقـــد حاكى اليونانيون الفـرس واقتبسوا منهم إلى درجة أن العنـاصر الفارسية تبدو واضحـة فى فن العمارة اليونانى ولذا يمكن أن يقـال أن الفرس كانوا وسطاء فى نقل مظاهر الحضارة من الشرق إلى الغرب .

خاتمـــة

إذا كان الإنسان فى عصرنا الحاضر فى أى بقعة من بقاع العـــالم ينعم بنتاج وخبرات إخوانه من بنى الإنسان فى بقاع العالم الأخرى مها اختلفت المشارب فإنه قد استفاد كذلك من خبرات أسلافه فى العصور السابقة حتى أن من الممكن أن يقال بأن الحضارة فى العصر الحديث لاتخرج فى مظاهرها عن كونها استمراراً وتطورا لمظاهـــر الحضارات السابقة التى ظهرت فى أجزاء مختلفة من العالم - وقد تنبه الإنسان إلى فضل الحضارات السابقة واعتبرها التراث الآدمى الذى يجب المحافظة عليه ودراسته دراسة مستفيضة حتى يمكن الوصول إلى معرفة أصول وأسس حضاراته الراهنة ، ولذا نجد أن أمم العـــالم جميعها تتعاون بصورة أو بأخرى فى الحفاظ على هذا التراث ومحاولة إحيائه بشتى الوسائل ، وعلى ذلك فليس من المستغرب أن نجد الأمم المتحضرة تساهم بنصيب فعال في إنقاذ الآثار المعرضة للخطر، كما أن كثيرا من الدول ترسل بعثاتها للتنقيب عن الآثار أو ترميمها أو نشر معلومات وافية عنها فى مختلف الأقطار لافرق فى ذلك بين جنسية وأخرى لأن التراث الحضارى ملك للإنسانية جميعها [1] .

وكثيراً مانجد بعض الدول تأخذها العزة بوجود بعض مظاهـــر حضارية قديمة فتحاول جاهدة أن تثبت أنها أقدم الأمم حضارة وأن

(١) أنظر مقدمة الكتاب

أصول الحضارة الأولى قد وجدت فيها ولكن ما دمنا قد ذكرنا بأن التراث الحضارى ملك للإنسانية جميعها فليس المهم إثبات أسبقية دولة ما فى ميدان الحضارة ولكن المهم أن يكون لهذه الدولة فضل نقل هذه المظاهر الحضارية إلى غيرها من الدول ، والأهم من ذلك كله أن يقوم شعب ما بدور فعال فى نقل وتطور المظاهر الحضارية المختلفة وأن يعطى منها لغيره كما يتقبل من غيره بعض المظاهر الأخرى وهكذا ـ ومن الجدير بالذكر أن الحضارات القديمة التى لعبت دوراً هاما فى حياة الناس هى تلك التى نشأت فى منطقة الشرق الأدنى لأن هذه المنطقة بحكم موقعها كانت تتوسط العالم القديم فهى البؤرة التى أشعت المظاهر الحضارية إلى كافة أنحائه ـ وكان تناوب مختلف أجزاء هذه المنطقة فى الوصول إلى القوة والمجد سببا فى المحافظة على التراث الحضارى القديم والأخذ بأساليب جديدة دعمت تطوره وانتشاره.

ولاشك فى أن الإنسان لم يجد متسعا من الوقت للتفكير فى الانتاج المثمر الذى يؤدى به إلى النهوض الحضارى إلا إذا استقر وشعر بالأمن فى بيئته ـ وقد يرى البعض أن الحضارة تنشأ وترتقى على أساس قاعدة التحدى والاستجابة ـ بين الإنسان وبيئته ـ ولكن لاشك فى أن كل إنتاج إنما يبدأ من أجل الكفاح فى سبيل العيش أولا ثم من أجل الرغبة فى الرفاهية ثانيا ، والأرجح أن ميل الإنسان الطبيعى للترفه هو العامل الأول فى نهضة الحضارات ورقيها .

وإذا ما نظرنا إلى إقليم الشرق الأدنى القديم بصفة عامة لوجدنا أن استقرار الإنسان يتوفر فى بيئاته الزراعية الكبرى التى تبدو فى مصر وبلاد

النهرين بصفة خاصة ووديان الأنهار فى مختلف بقاعه بصفة عامة، ولذا نجد أن أقدم الحضارات فى هذا الإقليم هى تلك التى نشأت فى هذه الجهات الزراعية - وبقدر ما نعم سكان تلك الجهات بالأمن بقدر ما تطورت حضارتهم وتدرجوا فى مراتب النهوض والرقى ، وخير دليل على ذلك ما نشاهده من استمرار الحضارة المصرية ودوامها وتطورها ، فبحكم بيئتها السهلة المنعزلة عن جيرانها أمكن اتحادها تحت لواء ملك أو أسرة حاكمة من جهة كما أنها لم تتعرض لكثير من الغزوات من جهة أخرى - وتلى بلاد النهرين مصر فى هذا المضمار ولو أن الحضارة فيها لم تتخذ صفة الثبوت والاستمرار فى كل جزء من أجزائها فى وقت واحد بل كانت تنتقل بين أجزائها المختلفة . ومع ذلك فإن اتصال هذه الأجزاء بعضها بالبعض الآخر قد أوجد نوعا من الاستقرار لحضارتها بصفة عامة كما عملت الأجزاء التى تنتقل إليها هذه الحضارة على تطويرها والنهوض بها - ولاشك فى أن سهولة اتصال بلاد النهرين نسبيا بالأقطار المجاورة لها قد جعلها ذات أثر فعال فى نقل مظاهر الحضارة من تلك الاقطار وإليها .

ومن الغريب أن كلا من مصر وبلاد النهرين قد اتصلتا ببيئات مغايرة إلا أن أثر ذلك عليهما لم يكن واحداً ، فمن المعروف أن مصر اتصلت منذ أقدم العصور ببلاد النوبة والساحل السورى وكان من أثر ذلك أن أعطت إلى كل من هاتين المنطقتين من حضارتها أكثر مما أخذت منهما ، بل ويمكن القول بشىء من التجاوز أنها أعطت إليهما ولم تأخذ عنهما - أما بلاد النهرين فقد اتصلت هى الأخرى بالساحل السورى بل وبساحل آسيا الصغرى كما اتصلت بهضبتى إيران وأرمينيا وقد أعطت من مظاهرها

الحضارية إلى هذه الجهات كما أخذت القليل من مظاهر بعضها الحضارية ، غير أن هذا القليل يمكن ملاحظته على أى حال .

ولابد من أن نشير هنا إلى أن حضارة السهول التى انتشرت فى كل من مصر وبلاد النهرين كانت حضارة سمحة بصفة عامة لا تتسم بالعنف أو القسوة كما هو الحال فى حضارات المناطق الجبلية أو الرعوية وإن كان أهـــل بلاد النهرين قد اتجهـوا فى بعض مظاهر حضارتهم إلى شىء من هـذا فإنما يرجع ذلك إلى ما ينتاب بيئتهم أحيانا من مظاهر كونية عنيفـة كالعواصف وغيرها كما أن الجزء الشمالى منهـــا تكثر به المرتفعات مما يوحى بأن الآشوريين الذين سكنوا فى هذه المنطقة كانوا أصلب وأعنف من البابليين الذين نشأوا فى جنوب ووسط بلاد النهرين .

ومن دراسة تاريخ المنطقة يتبين لنا أن المناطـــق الجبلية حينما أخذت بأسباب الحضارة كانت تدين فى أكثرها إلى حضارات ســـكان السهول ، ومـع أن الدول التى نشأت فى المناطق الجبلية مثـل الدولة الحيثية فى آسيا الصغرى والدولة الفارسية فى إيران قد انتزعت السيـادة من دول السهول التى نشأت فى بلاد النهرين ومصر كما انتقلت إليهـــا مظاهر الحضارات السابقة ونشأت فيها مظـاهر أخرى جـديدة إلا أن تلك السيادة وهذه الحضارة لم يقدر لهما البقاء بل سرعان مـا انتقلا من إقليم الشرق الأدنى بسقوط هذه الدول - وعلى هـذا يمكن القول بأن الحضـارة فى إقليم الشرق الأدنى شهدت دورين عظيمـــين أولهما ظل مستمراً فى مناطق السهول والثانى كان فى منـاطق الجبـال ،

ومع هذا ظلت المظاهر الحضارية قائمة فى مناطق السهول فترة طويلة بعد أن
زالت عنها سيادتها وخضعت لأهل المناطق الجبلية من إقليم الشرق الأدنى
الذين سرعان ماقضى على سيادتهم أهل المناطق الجبلية الاخـرى من خارج
نطاق الإقليم ، وبعبارة أخرى كانت السيادة والحضارة فى أيدى الساميين
بصفة عامة ثم انتقلتا إلى أيدى الهندو أوربيين .

المختار من المراجع العامة

ا - باللغـة العربيـة :

١ - ابراهيم رزقانه وآخرون « حضارة مصر والشرق القديم » - القاهرة (الالف كتاب رقم ٥٩)

٢ - أحمد فخرى «اليمن ماضيها وحاضرها» - القاهرة ١٩٥٧

٣ - إرمان - رانكه «مصر والحياة المصرية» - مترجم - القاهرة ١٩٥٢

٤ - جرنى « الحيثيون » - مترجم - القاهرة (الألف كتاب رقم ٤٥١)

٥ - ديلابورت « بلاد ما بين النهرين » - مترجم - القاهرة (الألف كتاب رقم ٣٥)

٦ - طه باقر « مقدمة فى تأريخ الحضارات القديمة » - جزءان . بغداد ١٩٥٥ - ١٩٥٦

٧ - فرانكفورت وآخرون «ماقبل الفلسفة» - مترجم - بغداد ١٩٦٠

٨ - فيليب حتى «تاريخ سورية ولبنان وفلسطين» مترجم - بيروت ١٩٥٨

٩ - كونتنو « الحضارة الفينيقية » - مترجم - القاهرة (سلسلة المراجع الجامعية رقم ١٢)

١٠ - محمد عبد القادر محمد «تاريخ الشرق القديم» - القاهرة ١٩٦٥

١١ - محمد عبد القادر محمد «الساميون فى العصور القديم» - القاهرة ١٩٦٨

١٢ - مرى «مصر ومجدها الغابر» - مترجم - القاهرة

١٣ - موسكاتى «الحضارات السامية القديمة» - مترجم القاهرة ١٩٦٨

١٤ - نجيب ميخائيل «مصر والشرق الأدنى القديم» - الاسكندرية

ب - باللغات الاوربية

1 — Albright, " The Archaeology of Palestine " (Pelican, A 199).

2 — Atiyah, "The Arabs", (Pelican, A 350) .

3 — Capart, "Egyptian Art", (London) 1923).

4 — Capart, "Primitive Art in Egypt" (London 1905).

5 — Capart, & Contenau, "Histoire de L'Orient ancien", (Paris 1946).

6 — Childe, " What Happened in History " , (Middlesex 1943).

7 — Contenau, " La Civilisation des Hittites et des Hurrites du Mitani" (Paris 1948).

8 — De Burgh, " The Legacy of the Ancient World ", (Pelican, A 284).

9 — Edwards, "The Pyramids of Egypt", (Pelican A168).

01 — Frankfort, "The Birth of Civilzation in the Ancient Near East", (1951).

11 — Ghirshman, "Iran", (Pelican, A 239)

21 — Glanville, "The Legacy of Egypt", (Oxford 1942).

31 — Hayes, " The Sceptre of Egypt ", Vol. I, (New York 1953).

41 — Kees, "Das Alte Aegypten", (Berlin 1955) .

15 — Lloyd, "Early Anatolia", (Pelican A 354).

16 — Maspero, "Art in Egypt", (London 1912).

17 — Murray, " The Splendour That Was Egypt ", (New York 1949).

18 — Petrie, " Social Life in Ancient Egypt ", (London 1923).

19 — Roux, "Ancient Iraq", (Pelican A 828).

20 — Saggs, " The Greatness That Was Babylon ", (London 1962).

21 — Scharff & Moortgaat, "Aegyten Und Vorderasien in Altertum", (Munich 1950).

22 — Steindorff & Seele, " When Egypt Ruled the East", (1942).

23 — Wilson, "The Burden of Egypt", (1951).

24 — Wilson, " The Cultures of Ancient Egypt ", (Chicago 1956).

25 — Woolley, "The Beginnings of Civilization", History of Mankind, Vol. II (New York 1965).

فهرس الأعلام

(ا)

[ت]

[ج]

[ح]

[خ]

[د]

[ر]

[ز]

[س]

[ش]

[ص]

[ط]

[ع]

[هـ]

[و]

[ى]

